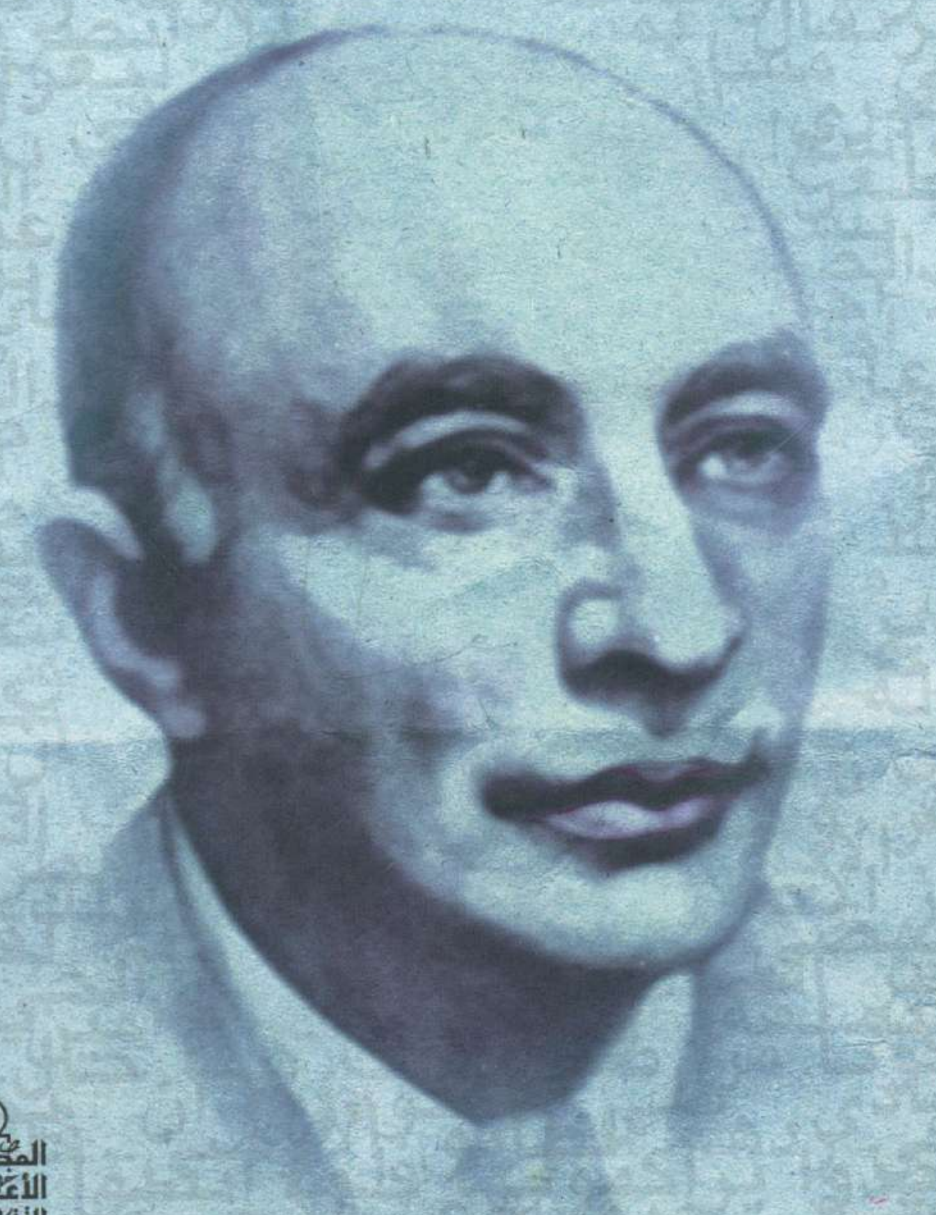


الأعمال النثرية الكاملة

إبراهيم ناجي

تحقيق ودراسة : حسن توفيق



المجلد الثانى

المجلس الأعلى للثقافة



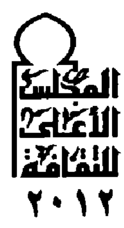
رفع و تنسيق : القرصان الطيب

إبراهيم ناجى

الأعمال النثرية الكاملة

(المجلد الثانى)

تحقيق ودراسة : **حسن توفيق**



٢٠١٢

المجلس الأعلى للثقافة

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

إبراهيم ناجي، إبراهيم ناجي بن أحمد ناجي.
ابن إبراهيم القصبجي، ١٨٩٨-١٩٥٣.
الأعمال النثرية الكاملة/ إبراهيم ناجي (المجلد الثاني):
تحقيق ودراسة: حسن توفيق
القاهرة، المجلس الأعلى للثقافة، ط١، ٢٠١٢
٣٩٦ ص؛ ٢٤ سم.
١- النثر العربي - تاريخ - العصر الحديث
(أ) توفيق، حسن (محقق ودارس)
(ب) العنوان ٨١٩,٩

رقم الإيداع ٥٦٢٦/ ٢٠١٠
الترقيم الدولى I.S.B.N. 978 - 977 - 479 - 971- 9
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

الأفكار التى تتضمنها إصدارات المجلس الأعلى للثقافة هى اجتهادات أصحابها، ولا تعبِّر بالضرورة عن رأى المجلس.

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت ٢٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٢٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo
Tel. : 27352396 **Fax :** 27358084.
www.scc.gov.eg

ناجى بين أشواق الروح ونداءات الجسد

بقلم: حسن توفيق

فى "الطريق".. أثناء مكوثه فى القاهرة التى جاء إليها من الإسكندرية ليبحث عن أبيه الغامض الغائب الذى لا يعرفه.. عرف "صابر سيد الرحيمى" امرأتين فى آن واحد.. الأولى "كريمة" وكانت تلبى له نداءات جسده المتعطش للارتواء.. والثانية "إلهام" التى كانت أشواق روحه إليها تتفجر كلما غابت عنه.

وفى "الطريق" يصور كاتبنا العظيم نجيب محفوظ هذا الصراع الذى لا يهمد إلا ليتجدد فى أعماق صابر سيد الرحيمى بين نداءات الجسد وأشواق الروح. كان صابر معذب النفس، قلق الضمير بين حبه الروحى لإلهام وحبه الحسى لكريمة التى كانت ".. غذاء دسمًا وراحة أبدية لا كالقلق النشوان وعذاب الوحدة التى تخلفها وراءها إلهام.. آه.. كثيراً ما عشق صابر أكثر من امرأة فى وقت واحد بلا عذاب ولا قلق.. ولكنه مع إلهام تعذبه كريمة، ومع كريمة تعذبه إلهام، والتوحيد بينهما أمنية لا يجرؤ على تمنيها..".

صابر إنسان. وفى كل إنسان تتصارع النزعتان، نزعة الحب الحسى ونزعة الحب الروحى، وإذا تغلبت إحداهما على الأخرى فإن هذا لا يعنى أبداً أن النزعة المغلوبة قد استسلمت استسلاماً نهائيا لأنها تظل كامنة متوارية فى الأعماق تترقب اللحظة المواتية التى تحاول خلالها أن تتغلب على من غلبتها.. ويظل الصراع متجدداً..

الشاعر الرقيق الكبير إبراهيم ناجى إنسان شأن كل إنسان، وشأن كل إنسان، كانت النزعتان الحسية والروحية تتصارعان فى أعماقه، لكنه لم يكن يكتب قصائده

فى الحب إلا من وحى وإلهام من تستطيع أن تزلزله روحياً، ولم يكن ناجى يتعمد هذا بطبيعة الحال، وإنما كانت طبيعته الإنسانية المثالية هى التى تقوده إلى هذا بصورة عفوية وتلقائية.

فى شعر ناجى مثالية تكاد تكون مطلقة، والحبيبة الجديرة بأن تكون حبيبته هى التى تغريه "بالذرى الشم" وهى "روح فى سمائه" يعلو إليها كأنه "محض روح" ومن أعلى القمم ومن علياء السماء تطل الروحان، روح الحبيبة وروح الشاعر على الأرض، حيث يبصران الناس ظلالا فى السفوح:

لست أنساك وقد أغريتنى

بالذرى الشم فأدمنت الطموح

أنت روح فى سمائى وأنا

لك أعلو فكأنى محض روح

يا لها من قممٍ كنا بها

نتلاقى وبسرينا نبوح

نستشف الغيبَ من أبراجها

ونرى الناسَ ظلالاً فى السفوح

لكن النزعة الحسية المتوارية فى أعماق ناجى الإنسان لاتستسلم، بل تترقب اللحظة المواتية التى تحاول خلالها أن تتغلب على النزعة الروحية التى غلبتها، وتتجسد هذه النزعة الحسية فى هيئة "غبار آدمى" يلتصق بالروحين، روح الحبيبة وروح الشاعر، لأن "صولة الجسم" تطغى فى دماء الإنسان:

ومن الشوق رسول بيننا

ونديم قدم الكأس لنا

وسقانا فانتفضنا لحظةً

لغبار آدمى مسنا

قد عرفنا صولة الجسم التى

تحكم الحى وتطغى فى دماه

وسمعنا صرخة فى رعدها

سوط جلاد وتعذيب إله

..فى أحيان قليلة، كان الشاعر يبدو يائساً من العثور على المرأة - الحبيبة التى تنظر إلى الحياة وإلى نفسها نظرة مثالية، تتغلب فيها أشواق الروح على نداءات الجسد، وقد أشرت إلى هذه النقطة - من قبل - فى مقدمة "*الأعمال الشعرية الكاملة*" لناجى - ص ١٦و١٧ - واستشهدت بأبيات من شعره، يقول فيها:

هاك فانظر عدد الرمل قلوباً ونساء

فتخير ما تشاء.. ذهب العمر هباء

ضلَّ فى الأرض الذى ينشد أبناء السماء

أى روحانية تُعصرُ من طينٍ وماء

وفى أحيان أقل، كان ناجى يخشى على نفسه من أن تتغلب النزعة الحسية عنده على النزعة الروحية، حيث تتصارع النزعتان فى أعماقه، شأن صراعهما فى أعماق كل إنسان، لكن هذا الصراع صراع تلقائى ويتسم بالعفوية، وبالتالى فإنه لا يحتاج إلى مؤثرات خارجية لكى يحتدم، ومن هنا أجدنى مختلفاً مع ناجى نفسه حين حاول أن يرجع ظهور النزعة الحسية فى قصائده إلى تأثره بشعر لورنس.

يقول ناجى فى مقال له من المقالات التى يضمها هذا المجلد الثانى من "الأعمال النثرية الكاملة" وهو مقال بعنوان "الغريزة الجنسية": ".. وحيث إن الأدباء هم الذين

يطلقون العنان لخيالهم فيسبقون الزمن فى التبشير بكل ما هو جديد، فقد سرت موجة من الأدب التناسلى رفع علمها لورنس وجويس وجيد وغيرهم، وأهمهم لورنس ومدرسته فهو ينسب كل التقلقل الاجتماعى والأخلاقى إلى كبت جنسى، فيدعو إلى إطلاق حاسة الغريزة إطلاقًا تاما، وهو كاتب عبقرى وشاعر من طراز فخم، وشعره كنثره حافل بالمسألة الجنسية، فهو حينًا يمدحها وحينًا يلعنها، وإنى أذكر لكم شيئًا منه على سبيل التفكه:

عندما جاءت إلىَّ فى الظلام
لمع البرق فكشف لى وجهها
فوجدت عليه ذلة الجنس وعبوديته
فبعد ما قبلتها
لعنت الجنس ولعنت دمى
وصحت بها أن تنصرف قبل أن يلمع البرق ثانيا

.. ولقد تأثرت به حقبة من العمر وكتبت شطرًا من الجنس أذكره أيضًا على سبيل المثال.."

أما المثال الذى أورده ناجى، فقد سبق أن أشرت إليه هنا قبل قليل. وهو يتمثل فى أبيات "أين منى مجلس أنت به".. حتى "قد عرفنا صولة الجسم التى تحكم الحى وتطغى فى دماه.." لكنى لا أتصور أن ناجى قد كتب تلك الأبيات تأثرًا بلورنس كما يرى هو.. فقد انطلقت تلك الأبيات بصورة تلقائية، باعتبارها تجسيداً للصراع بين النزعتين الروحية والحسية، وكان ناجى فى شعره ينتصر للنزعة الأولى - الروحية، أما الحسية فقد كانت تبدو فى شعره فى أحيان قليلة، دون أن تكون هناك مؤثرات خارجية، من بينها ما ذكره هو عن تأثره بلورنس.

وأعتقد أنه من المهم هنا أن أعيد طرح تساؤل، كنت قد طرحته من قبل – في غير هذا الموضع – هذا التساؤل هو: كيف يروق لإبراهيم ناجى – وهو الشاعر المثالى – أن يترجم قصائد "أزهار الشر" لشارل بودلير – وهو الشاعر الحسى – ولماذا يروق له أن يفعل ما فعل؟.

الحق أن محاولة الإجابة على هذا التساؤل لابد أن تدفعنا إلى الحديث عن ظاهرة واضحة لا عند ناجى وحده، بل عند شعراء جيله مجتمعين، وأكثر من هذا أن هذه الظاهرة لم تزل ملموسة – فى تقديرى – عند شعراء الأجيال التالية، وإن خفت حدتها، هذه الظاهرة هى ظاهرة انقسام الشخصية عند هؤلاء الشعراء بحيث يجد الدارس لأى منهم أن تكامل النفس الإنسانية غير متحقق عنده، وقد كان هؤلاء الشعراء – فيما أتصور – يدركون هذا ويحاولون علاجه بوسائل مختلفة، وذلك لكى يتحقق لهم ما أسميه تكامل النفس الإنسانية، لو أخذنا إبراهيم ناجى مثالا لهذا فإننا نجد أن صالح جودت يذكر فى مجال الحديث عنه "أنه كان إذ نحن بالمنصورة، فى أوج شبابه، وكانت له صولات وجولات حسية لا تدخل فى حساب الغراميات، بل النزوات يمارسها كرجل لا كشاعر؛ ولهذا لا تجد لها أثرًا فى شعره، ثم انتهت فورة الشباب، وتفرغ الشاعر لحبه المثالى الذى تشهد به كل قصائده أو جلها" ومن هنا فإن ناجى الذى صال وجال فى نزواته الحسية ولم يكتب – فى نفس الوقت – شيئًا عن هذه الصولات وتلك الجولات، نجده يلجأ إلى شاعر آخر صال وجال فى حياته مثله ولكنه – فى نفس الوقت – تحدث عن هذه الصولات وتلك الجولات، وكأنه كان يريد أن يحقق لنفسه تكاملها الإنسانى ويشبع روحه بالحديث عن الصولات والجولات ولو من خلال شاعر آخر غيره، وقد كان هذا الشاعر هو بودلير، ولذا فإنه ليس من الغريب – إذا أدركنا هذا – أن نجد ناجى وهو "الشاعر الذى تفرغ لحبه المثالى" يروق له أن يترجم لنا ما منعه تفرغه من الحديث عنه حديثًا شخصيا مباشرًا، فناجى هنا يستخدم بودلير لكى يشبع ما فى نفسه، ويجعل منه قناعًا يتحدث عما يود هو أن يتحدث عنه فى قرارة نفسه، وإن منعه التفرغ من هذا، ولو قارنا موقف ناجى هذا بموقف شاعر كبير من الجيل الذى يليه، وأعنى به صلاح عبدالصبور فإننا نجد أن صلاح عبد الصبور على

الرغم من أنه كان مفتونًا بناجى ضمن من فتن بهم فى بداية حياته الفنية، إلا ان موقفه يختلف عن موقف ناجى من حيث محاولة كل منهما تحقيق تكامل النفس الإنسانية، فصلاح عبدالصبور لا يستخدم شاعراً غيره لكى يشبع ما فى نفسه، ويجعل منه قناعًا يتحدث من خلاله عما يود هو أن يتحدث عنه فى قرارة نفسه، فهو يلجا إلى نفسه وحدها، وهذا ما يتضح من خلال حديثه عن صولاته وجولاته فى "فيينا"، وهو يختلف - بطبيعة الحال - اختلافًا شديداً عن على محمود طه الذى رأيناه يهبط "فى مخدع مغنية" لكى يصور "الخيال الذى شاع فى جوه" ولكى يحاول إقناعنا بأنه "من طير الخيال" ولهذا هبط على المخدع ليتسنى له أن يصدح فيه فحسب. مهما حاولت المغنية إغراءه بملابسها الشفافة وقبلاتها الحرى، وكأنها امرأة العزيز بإزاء "يوسف" الخيال! الشاعر - فى هذا الموقف - لم يصور الحقيقة فعلا حرصًا منه على الموقف الأخلاقى العام.. ربما.. وربما تمشيا مع النظرة الرومانتيكية، أما صلاح عبدالصبور الذى يتعرض لنفس الموقف (مع فارق هام هو أن على محمود طه ذهب إلى المغنية فى مخدعها هى، بينما نجد أن المرأة هى التى ذهبت إلى مخدع صلاح عبدالصبور، وكان حريا به - تمشيا مع على محمود طه - أن لا يمسها) أقول إن صلاح عبدالصبور الذى يتعرض لنفس الموقف الذى تعرض له على محمود طه، لم يحاول أن يخفى عنا شيئًا بل حدثنا عما جرى ابتداء من وصفه للمرأة وهى نائمة فى سريره، وانتهاء بخروجها من البيت فى صباح اليوم التالى، وقد اختار صلاح أن يحدثنا بنفسه ولم يلجأ إلى شاعر من طراز بودلير يحدثنا من خلاله.

يقول صلاح عبدالصبور:

يا جسمها الأبيض قل: أأنت صوت؟

فقد تحاورنا كثيراً فى المساء

يا جسمها الأبيض قل: أأنت خضرة منورة؟

يا كم تجولت سعيداً فى حدائقك

يا جسمها الأبيض قل: أأنت خمره؟

فقد نهلت من حواف مرمرك

سقايتى من المدام والحباب والزبد

يا جسمها الأبيض مثل خاطر الملائكة

تبارك الله الذى قد أبدعك

فى هذا الموقف لا يجد الشاعر أية غضاضة فى أن يجعل الجسد معبراً إلى الروح، فليس ثم من تناقض بين كليهما، فهما يفضيان إلى بعضهما.. لنتأمل تشبيه الشاعر لجسد تلك المرأة الأوروبية بأنه مثل خاطر الملائكة، ثم لنتذكر راكبة الدراجة الأوروبية التى ود على محمود طه أن يصون خميلة تفاحها! هذا شاعر متكامل النفس، وذاك شاعر يلبس لكل حالة لبوسها إلى درجة دفعت صلاح عبدالصبور نفسه أن يقول عنه فى مقدمته لمختارات من على محمود طه: "..قد يكون هذا الاتساع فى العالم الشعرى مع تنافر زوايا الرؤية، وهذا الحرص على الدنو من تصور عامة الناس للأشياء ورؤيتهم لها، هما الميراث الشعرى الذى ورثه على طه من تراثنا القديم، فصورة الشاعر المجيد فى *تراثنا القديم هى صورة القائل الفصيح الذى يستطيع النظم فى شتى فنون القول*، دون أن يحس بحاجة نفسية إلى التعبير عن غرض ما من الأغراض.."، ولكى لا نظلم شعراء أبوللو، ونتهمهم – وحدهم – بأنهم كانوا يعانون من انقسام الشخصية، وأن تكامل النفس الإنسانية لم يكن متحققًا عندهم، فإنه من المهم أن نشير إلى مقدمة الدكتور عبدالقادر القط لديوانه "ذكريات شباب" فقد ذكر أن كثيرين من الشعراء الجدد يكتبون قصائدهم وفقاً لقوالب جاهزة بلا اقتناع نفسى عميق، والحق أن الدكتور القط كان يشير إلى شعراء الموجة الثانية من موجات الشعر الحر، فهؤلاء الشعراء أخذوا يتحدثون عن قضايا السلام والحرية والجماهير بصورة عقلية باردة من ناحية وبأدوات فنية كليلة من ناحية أخرى، وكانوا يغفلون الحديث عن عواطفهم الذاتية، ولم ينج من هذا إلا قلة من الشعراء استطاعت أن توفق بين المتطلبات الاجتماعية والعواطف الذاتية، فجاء نتاج هذه القلة نتاجًا إنسانيا ناضجًا، لا نتاجًا فجا وساقطًا، والواقع أن

ظاهرة عدم تكامل النفس الإنسانية ظاهرة ممتدة إلى يومنا هذا، وهى تثير عندى قلقًا لا حدود له عندما ألمسها فى شباب جامعاتنا الذين يتحدثون عن القضايا الفكرية والاجتماعية بصورة رائعة تؤكد مدى وعيهم ونضجهم، لكنهم يضطربون أيما اضطراب عندما يضطرون مثلا إلى الحديث عن قضاياهم الحسية والعاطفية.

أترك الآن معاصرى ناجى ومن جاءوا بعدهم، لكى أعود إليه من جديد.

قلت إن فى شعر ناجى مثالية تكاد تكون مطلقة، فماذا يمكن أن أقوله الآن عن نثر ناجى؟.. الحق أن المثالية لا تبدو سيدة الموقف فى نثر ناجى، ففى ناجى مثالية، والمثالية تتطلب الصدق، وفى بعض نثر ناجى مجاملات والمجاملات لا تتطلب الصدق، بل تتطلب ما نسميه "الكذب الأبيض" وفى نثر ناجى تتجلى الروح الموضوعية، كما يتجلى أيضًا الاستغراق فى الذاتية، وهكذا يمكن القول إن نثر ناجى لا يرتبط بالمثالية وحدها، فهناك مقالات تتسم بالمجاملات، وهناك مقالات تتسم بالانفعال الجامح، وهناك غير هذه وغير تلك مقالات كثيرة تسودها الروح الموضوعية التى تتحرى الدقة ويبدو فيها الحياد العلمى جليا وواضحًا، وكل هذا مرجعه أن نثر ناجى يبين لقارئه - كما أشرت فى مقدمة المجلد الأول من هذه الأعمال النثرية الكاملة - أن ثقافة هذا الشاعر الرقيق والكبير ثقافة شاملة ومتنوعة، وأن اهتماماته لم تكن محصورة فى نطاق بعينه، فلناجى رصيد فى كتابة القصة القصيرة وكتابة المحاضرات العامة وكتابة الدراسات فى علم النفس والتاريخ وعلم الاجتماع وفن التصوير، ولا ننسى بالطبع دراساته فى الطب الذى كان مجال تخصصه العلمى أثناء دراسته.

وأتوقف هنا أمام نموذج من المقالات التى تتسم بالمجاملات، فقد كتب ناجى مقالا صغيرًا، نشره فى مجلة "الأستديو" - عدد ٢٧ أكتوبر عام ١٩٤٨ - والمقال بعنوان "ثلاث زوزوات عرفتهن" والزوزوات الثلاث هن زوزو ماضى - زوزو نبيل - زوزو حمدى الحكيم.

يقول ناجى عن زوزو ماضى: ".. عرفتها وهى أديبة صافية لم تشبها السينما بشائبة، ولم ترنق حياتها أكدار الشاشة، عرفتها وهى تستوحى البحر وتنظم فيه شعرًا.. قالت زوزو تناجى البحر:

عـرفـتك والمصـيف عليك زاهٍ

كقرن الشمس يضطرم اضطراما

عـرفـتك والشـتـاء يمـد ظلا

وينشـر في جـوانبك القـتـامـا

هل تذكر هذا الشعر الآن فنانة السينما، وهل تعاوده وهل تحنّ إليه؟ إنها تحب كل شيء أزرق حتى رسائلها..".

ما الذي يجعلني أصف هذا المقال بأنه نموذج من المقالات التي تتسم بالمجاملات؟.

السبب مدهش وعجيب وغريب! فقد رأى ناجي أن زوزو ماضي "أديبة صافية" وهي ليست كذلك، وذكر ناجي أن زوزو ماضي تستوحي البحر وتنظم فيه شعراً، بينما الصحيح أن صاحب البيتين اللذين قال ناجي إنهما لزوزو ماضي هو ناجي نفسه، وإذا شئنا أن نتأكد من هذا، فما علينا إلا أن نرجع إلى المجلد الذي يضم "الأعمال الشعرية الكاملة" حيث نجد قصيدة من القصائد المجهولة بعنوان "صخرة المكس" - ص ٧١٠ - وقد نشر ناجي هذه القصيدة في مجلة "الرسالة" - عدد ٢٩ أبريل عام ١٩٤٠، أي قبل أن ينشر مقاله "ثلاث زوزوات عرفتهن" بأكثر من ثمانية أعوام، يستهل ناجي قصيدته "صخرة المكس" قائلا:

تعـالَ نزف للثـغـر السـلامـا

ألستَ ترى على الثغـر ابتـسـامـا

ألم تشـعـر كـأن يدىْ عـزيزٍ

مـسحنَ لك المواجع والسـقـامـا

كأن خُطى العباب خطى حبيب

كـأن الموج أفـئـدة ترامى

وتتوالى أبيات قصيدة "صخرة الملكس" إلى أن يقول ناجي:

تمر بيَ الحياة ولستُ أدري
أيوم مَرَّ أمْ قضيتُ عاما
عرفتك والشتاء يمد ظلا
وينشر فى جوانبك الغماما
عرفتك والمصيف عليك زاه
وقرن الشمس يضطرم اضطراما
عرفتك والعواصف فيك غضبى
نشرن على محياك القتاما
عرفتك والفلائك فيك بيض
مجنحة يحاكين الحماما
عرفتك هادئا والفجر غاف
كأن البحر وسَّدَه فناما

هكذا أراد ناجي - فى نثره - أن يجامل زوزو ماضى على حساب شعره، فأنطقها ببيتين من قصيدته "صخرة الملكس" دون أن يضع فى اعتباره أن باحثًا مثلى سينقب ويفتش عن شعره ونثره فى المجلات والجرائد، فيكتشف هذه المجاملة ولو بعد ما يزيد على نصف قرن!.

ومن الأمثلة التى نتعرف من خلالها على المقالات التى تتسم بالانفعال الجامح، مقال لناجى نشر فى مجلة "الأستديو" - عدد ١٧ نوفمبر عام ١٩٤٨ - بعنوان "احتجاج" وقد كتب ناجى هذا المقال ردا على محرر مجلة "الأستديو" الذى كان

قد كتب فى عدد ٣ نوفمبر عام ١٩٤٨ مقالا بعنوان "شعراء الجمال محرومون من الجمال" ويبدو أن هذا المقال قد أشعل نار الغيظ فى قلب ناجى، فاستبد به الانفعال الجامح، فقال بالنص: "...يا صاحب المقال: على إى صورة تفهم الجمال؟ يا صاحب البرج العاجى: هل رأيت فى حياتك الدكتور ناجى؟! متى - نعم بالله يا مختلق العبارة - لبس الدكتور ناجى نظارة؟ يا صاحب المقال، هذا كلام أطفال! فلا أنت رأيت وجهى، ولا أنت قرأت شعرى.. سامح الله عينك والذى يدفع لك أجرك..".

إذا كنت قد أشرت إلى مقال من المقالات التى تتسم بالمجاملات، ومقال آخر من المقالات التى تتسم بالانفعال الجامح، فإن مقالات ناجى التى تتسم بالروح الموضوعية وتتحرى الدقة ويبدو فيها الحياد العلمى جليا وواضحًا هى مقالات كثيرة وعديدة، وتتضمن تلك المقالات موضوعات لم يتطرق إليها ناجى فى شعره الذى يتسم - كما قلت - بمثالية تكاد تكون مطلقة، ومن أمثلة تلك المقالات "الغريزة الجنسية" و"هل تجب الصراحة فى المسائل الجنسية" و"خطورة المراهقة فى حياة الشباب" و"أثر فرويد فى الأدب الحديث" و"الشباب المصرى والمشكلة الجنسية" ويجد القارئ نصوص تلك المقالات وغيرها فى هذا المجلد الثانى من "الأعمال النثرية الكاملة" ضمن "كتب أثرت فى حياتى ومقالات أخرى مجهولة".

وإذا كانت العاطفة المشبوبة والجارفة هى التى تقود مسيرة ناجى فى شعره، فإن العقل المحلل والمتأمل هو الذى يقود مسيرته فى نثره المتسم بالروح الموضوعية التى تتحرى الدقة ويبدو فيها الحياد العلمى جليا وواضحًا، ومن الطريف أن ناجى نفسه يتحدث عن ضرورة كبح جماح العاطفة عن طريق العقل، وأترك المجال له هنا كى يحدثنا بصورة مباشرة، يقول ناجى فى كتابه "عالم الأسرة" الذى يتصدر هذا المجلد الثانى من أعماله النثرية الكاملة: ".. إن الله خلق النفس الإنسانية كالقاطرة البخارية فى التركيب، وقود وآلة وسائق، أما الوقود الإنسانى فالعاطفة، أما الآلة فالإرادة، أما السائق فالعقل، يتضح من هذا توًا أن القطار يمكن أن يسير بدون السائق،

وفى العصر الحديث يدور بالآلة (الفرملة) ولكنه لا يستطيع أن يقوم بدون الوقود، فالعاطفة هى أهم شىء فى حياتنا، لا يعدلها شىء ولا يمكن لأسرة مهما نظمت أحوالها وارتقت ويسرت أن تبلغ المستوى اللازم بدون العاطفة بين أفرادها، ولكن هذه العاطفة يجب أن تنظم علاقتها بالعقل والإرادة، بمعنى أن العقل يكشف للعاطفة الطريق، وتكون الإرادة مستعدة بسرعة وبحزم للوقوف أو السير عند الاقتضاء..".

واعتقد أنه من المفيد والممتع فى آن واحد، أن يعكف أحد الباحثين المهتمين على قضية من القضايا التى شغلت ناجى وعبر عنها بالشعر وبالنثر، لأننا – فى هذه الحالة – سنكتشف أن العاطفة المشبوبة والجارفة هى التى تقود مسيرة ناجى تجاه هذه القضية فى الشعر، أما فى نثره فإن العقل المحلل والمتأمل هو الذى يقود مسيرته تجاه نفس القضية.

ويهمنى هنا أن أشير إلى إشادة الكاتب المخضرم وديع فلسطين بنثر ناجى الذى تتجلى فيه ثقافته الشاملة والمتنوعة، حيث يقول – فى الدراسة المثبتة ضمن كتاب أزهار الشر لبودلير – "..كان ناجى فى حياته كثير التوزع، شتيت الاهتمامات، رتب على نفسه التزامات كثاراً، تمليها عليه مطالب الحياة ومطالب الجماعة ومطالب الفكر ومطالب العاطفة فنسى نفسه فى غمار هذه المطالب جميعاً.. وقد دانت لإبراهيم ناجى ثقافة موسوعية ناضجة، فجعلته بصيراً بالحياة الإنسانية من أى زاوية أتاها، سواء أراد استنباط النفس أو رام استكشاف وظائف الأعضاء، أو هام مع فكر فى مجاهله الفلسفية ناقداً من طراز جديد، لأنه وقد صار ذا بصر بالإنسانية ونوازعها وحدودها، استطاع أن يطلق على كل أمر نظرة شاملة مشارفة تطوى المسائل من شتى مناحيها وتصيب كل وتر حساس فتعزف عليه أشجى الأنغام..".

* * *

أصدر المجلس الأعلى للثقافة فى جمهورية مصر العربية "الأعمال الشعرية الكاملة" لناجى، بعد أن قمت بجمعها وكتابة مقدمة مستفيضة تتصدرها، وضم هذا المجلد الضخم دواوين الشاعر التى صدرت فى حياته وبعد رحيله عن دنيانا، وهى "وراء الغمام" - عام ١٩٣٤ - و"ليالى القاهرة - عام ١٩٥٠ و "الطائر الجريح" - عام ١٩٥٧ و"قصائد من ديوان ناجى" - عام ١٩٦١ والطبعة الجديدة من "قصائد مجهولة - مائة قصيدة وقصيدة" - عام ١٩٩٦.

هذا فيما يتعلق بشعر الدكتور إبراهيم ناجى، أما فيما يتعلق بنثره فإنى قمت بإصدار المجلد الأول من "الأعمال النثرية الكاملة" على نفقتى الخاصة والمحدودة بالطبع، بعد أن قمت بجمع تلك الأعمال وكتابة مقدمة تتصدرها، ويضم المجلد الأول من هذه "الأعمال النثرية الكاملة" ستة كتب كانت قد صدرت خلال سنوات حياة ناجى، وهى "مدينة الأحلام" - عام ١٩٣٥ و "كيف تفهم الناس" - عام ١٩٤٥ و "توفيق الحكيم" - "حياته النفسية من كتبه، وتأثيره" عام ١٩٤٥ - وما كتبه ناجى عن فولتير فى "ليالى فينسيا" - فى نفس ذلك العام - ١٩٤٥ و "أدركنى يا دكتور" - عام ١٩٥٠ و "رسالة الحياة" - عام ١٩٥٠.

أما هذا المجلد الثانى من "الأعمال النثرية الكاملة" والذى قمت بجمع ما ورد فيه وكتابة مقدمه له، وإصداره كذلك على نفقتى الخاصة والمحدودة، فإنه يضم أربعة كتب، جميعها - باستثناء كتاب واحد منها هو "عالم الأسرة" - قد صدرت بعد رحيل ناجى عن عالمنا، وهكذا يضم هذا المجلد الثانى كتاب "عالم الأسرة" - عام ١٩٤٧ و"أزهار الشر لبودلير" - عام ١٩٥٤ و"قصائد مترجمة نثرًا - جمع حسن توفيق" وكان مقررًا أن يصدر عام ١٩٩٦ ولكنه تأخر فى الصدور حتى عام ٢٠٠١ لأسباب خارجة عن إرادتى، تتعلق بأهواء وأمزجة الآخرين، إلى جانب الكتاب الذى جمعت مقالاته واخترت له عنوان: "كتب أثرت فى حياتى ومقالات أخرى مجهولة" والذى تأخر صدوره كذلك من عام ١٩٩٦ حتى عام ٢٠٠١ لنفس الأسباب التى لم أشأ أن أتحدث عنها بصورة واضحة حتى يتسنى لى أن أتناساها وأسقطها من ذاكرتى.

ومما أسعدني حقا أنني أحسست بالفرحة العميقة في قلوب أساتذتي الكبار وأصدقائي وزملائي الأعزاء عندما أتيح لهم أن يستقبلوا الطبعة الأولى لهذه "الأعمال الشعرية الكاملة" لناجي، وأذكر من هؤلاء – في مصر الغالية – صديق ناجي الوفي الأستاذ وديع فلسطين وعاشق جبران خليل جبران الكاتب الفنان الكبير الدكتور ثروت عكاشة وأستاذي فاروق خورشيد وأستاذي رجاء النقاش الذي كتب مقالا عن "الأعمال الشعرية الكاملة" لناجي في جريدة الأهرام العريقة، وهو مقال رائع بعنوان "قصيدة في القلب" أعده وساماً معلقاً على قلبي، متمنيًا لو أنه كان قد التفت كذلك إلى "الأعمال النثرية الكاملة" لناجي، كما يطيب لي أن أشكر كل الذين ساندوني وساعدوني على إنجاز ما كنت بدأته، وهم كثيرون بالطبع، أذكر منهم: د. يوسف حسين بكار – محمد بن خليفة العطية – د. محمد شاهين – ناصر محمد العثمان – عبدالرحمن بن سيف المعضادي.

لاقيت ما لاقيت من صعاب، وتحملت ما تحملت أثناء انهماكي في البحث والتنقيب وإعداد الأعمال الشعرية والنثرية الكاملة للشاعر الذي أحببته منذ صباي، الدكتور إبراهيم ناجي، وكان الدافع القوي والأساسي لأن أنجز ما أنجزت هو.. الحب، بصرف النظر عن القلوب التي لا تعرف سوى المصالح العمياء، ولا تتحكم فيها سوى البغضاء، وهاهي طبعة جديدة تصدر عن المجلس الأعلى للثقافة بقيادة أمينه العام الدكتور عماد أبو غازي، وأتمنى أن يستقبلها محبو ناجي بنفس الحفاوة التي استقبلوا بها الطبعة الأولى منها.

حسن توفيق

(٧)

عــالم الأســـرة(*)

(*) صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٤٧.

مقــدمة

من طرائف ما يروى أن والدًا أراد امتحان ذكاء ولده، فناوله خريطة العالم مقطعة، وطلب منه أن يعيد كل جزء إلى مكانه الطبيعي، فلم يلبث الصبى أكثر من بضع دقائق، وعاد بها صحيحة مرتبطة الأجزاء ليس فيها خطأ واحد، فدهش الوالد، وخاصة لأنه يعرف أن ذكاء ابنه ليس من المقدار بحيث يستطيع معه أن يعيد الخريطة إلى أصلها بهذه السرعة، وبهذه الصحة، فصاح مندهشًا.. ماذا صنعت؟ أجاب الصبى، رأيت فى ظهر الخريطة رجلا مقطعًا فأصلحت الرجل فتم إصلاح الخريطة بدون عناء.

قال الوالد أنت على حق، من هنا يجب أن يبدأ إصلاح أى فرد، فلنبدأ العلاج إذن من الفرد، لا من المجموع، أو بعبارة أخرى من الوسط الذى ينمو فيه الفرد وهو الأسرة، فالأسرة خلية المجتمع، والفرد نواة هذه الخلية.

والواقع أن الأسرة هى الجو الذى يتنفسه الفرد، فبقدر ما يصلح هواء الأسرة وجوها، بقدر ما تتنفس رئة الفرد شيئًا نقيا حيويا، والعكس بالعكس.

ولقد ثبت لعلماء النفس المحدثين أن تكوين الفرد فى الأسرة فى السنوات الأولى، هو كل شىء، وما عداه إضافة.

فالأسرة تكون نفسيته وخلقه وشخصيته، والمدرسة تربى فيه الحاسة الاجتماعية، والجامعة تعده ليكون مواطنًا صالحًا، وما أصدق الحديث "أدب ابنك سبعًا، وراقبه سبعًا، وآخه سبعًا ثم الق له الحبل على الغارب"، ولفظة "أدبه" شاملة كل الشمول، محيطة كل الإحاطة، فالأدب كلمة أعمق من كلمة التربية وأوسع مدى واتجاهًا، ويخيل لى أن النصيحة توحى بأن نعلم ابننا كيف يمكنه أن يحب الحياة، ويواجه الحياة،

ويبتهج بالحياة، ويتعاون فى الحياة، أليس هذا هو "الأدب" مهما تغيرت معانية؟ وكيف تتوافر فيه هذه الصفات؟ بنفسية سليمة، وصحة سليمة، وأخلاق سليمة، وعقلية سليمة، إذن، فدستور العائلة يجب أن يبنى على هذه الأركان: دستور صحى – دستور أخلاقى – دستور نفسى عقلى.. أما الدستور الصحى، فيتناول التغذية، والمسكن والملبس والرياضة، والفراغ، والدستور الأخلاقى، يتناول العادات والتقاليد الواجب بثها، والإيحاء بها، والدستور النفسى العقلى يقتضى المعرفة لبديهيات علم النفس، بديهيات مع الأسف مجهولة لكثيرين، فإنها لا تتجاوز بضع بسائط عن السيكولوجيا، يجب على بساطتها أن تنقش فى أذهان الوالدين والمربين، إليك أمثال هذه الأبجديات.

ما الخوف؟ ما الكذب؟ وكيف ينشأ؟ ما منطق الطفل والصبى، وهل هما مشابهان لمنطق البالغين؟ نحن لسنا فى حاجة إلى التعمق فى فلسفة آدلر وفرويد لكى نربى أولادنا، وندعم بناء أسرتنا، إنه سيتضح من صفحات هذا الكتاب أن الدستور النفسى العقلى مكون من بضع مواد، كمواد القانون سواء بسواء، الجهل بها لا يعفى صاحبها من العقاب، ولا يبرئه من الجرم!.

وإذا أردنا أن نزيد الموضوع وضوحًا قبل الدخول فى التفاصيل اللازمة، لابد أن نذكر أن دستور الصحة، سيتناول صحة الوالدين فى الدائرة التى تتعلق بسلامة الأسرة والأولاد، وسيتناول كذلك موضوعًا خطيرًا يحتاج للجرأة فى التفاصيل والشرح، ألا وهو الصحة الجنسية، وسيقتضى كذلك الحديث عن الصحة التناسلية.

أما الدستور الثانى، وهو دستور الأخلاق، فلابد فيه من الإحاطة بالعلاقة التى تربط الزوج بالزوجة، بما أن هذا "الأفق" هو فى رأى الباحثين السماء الأولى التى تطبع فى نفس أفراد الأسرة معانى الغيوم والصفاء، والقتام والصحو، وبمقدار ما تنعكس عليه معانى هذه السماء بقدر ما يعكسونها على الحياة فى الخارج.

أما الدستور النفسى العقلى، فيقتضى الإفاضة والشرح فى نفسية الطفل حتى ينجلى كل غموض حول ذلك الموضوع.

هذه الدساتير الثلاثة، تكون "كتاب" العائلة الذى يجب أن يرجع إليه كل من يهمه أمر الفرد الشرقى، والأسرة الشرقية والمجتمع الشرقى.

نقول (الشرقى) ونعنى أننا وضعنا هذا الكتاب للشـــرقيين، ملاحظـــين فيه عاداتنا الخاصة، وبيئتنـــا الخاصة، وتقاليدنا الخاصة، بما دخـــل عليها من التطـــور فى السنوات الأخيرة.

إبراهيم ناجى

الدستور الصحى للعائلة

١- لماذا نتزوج؟

٢- مبادئ صحية.

٣- المسكن.

٤- الملبس.

٥- الهواء.

٦- حشرات المنزل.

٧- وقاية الكبار ضد الأمراض.

٨- صحة الحامل..

* * *

(١) لماذا نتزوج؟ إذا طرحت هذا السؤال على شخص ما؟ منتظراً إجابة سريعة، سيخيب ظنك لأن من الضرورات ما لا يفكر فيه الإنسان إلا بعد حدوثه، ويصح عليه قول ابن الرومى:

ألا من يرينى غايتى قبل مذهبى!

ومن أين؟ والغايات بعد المذاهب!

ويجوز أن نسمى الزواج (بناء على هذا) لا ضرورة اجتماعية فحسب، بل عدوى اجتماعية، ينطبق عليها قول أبى العلاء:

تثاءب عمرو إذ تثاءب خالد

بعدوى، فما أعدتنيَ الثؤباء..!

والواقع أن أكثر الناس يتزوجون لأن هذا حق اجتماعى لكل بالغ، ولأن التقاليد تحتم وجود الشريك فى الحياة، ولأن فى الزواج ترضية وتغذية للغرور الإنسانى، من ناحية الحصول على المسكن، والمركز الاجتماعى، والنفوذ فى الدائرة العائلية وأكثر الناس يتزوجون لمجرد الحصول على النسل، وبعضهم يتزوج إشباعًا لمطالب الجسد، وبعضهم لتحسين الحالة المادية بالمصاهرة، وبعضهم يتزوج هربًا من القيود الوالدية، وقليلون جدا يتزوجون لبناء عش زوجي، وتآلف وجداني، وأقل من القليل يفهمون الزواج فى معناه الحقيقي، وهو إيجاد نواة مثالية تكون نموذجًا لأسرة الآخر، بما تبديه من التعاون بين أفرادها، وما تسديه إلى أفراد الأسرة الأخرى.. ومن طريف ما يروى أن أحدهم قال إن أكثر الناس فى زواجهم "زوج وشركاؤه ليمتد.."!.

على أن الحياة الزوجية كما يجب أن تفهم، فن جميل، فإذا كان الفن "اندماجًا" أى استغراق فنان فى موضوعه، وإذا كانت غاية الحياة "الاندماج" أى التكافل، والتعاون، فالزواج اندماج بناحيتيه الروح والجسد، واندماج عملى يقتضى التكافل والتساند والصبر والتضحية، لينتهى ذلك الاندماج إلى وحدة فنية ممتازة، فنحن قبل الزواج أمام أشق عمل فى الحياة وأروع، فإذا لم يكن اندماج شخصين اندماجًا تاما فى المذاهب والميول، والمآكل والمشارب، والاتجاهات والغايات، والتقاليد والعادات، روحيا وماديا، عملا فنيا خارقًا، فكيف يكون العمل الفني؟

ومن دواعى الأسف أن القدرة على الاندماج لا تتوافر إلا فى المثقفين الذين يتزوجون بقصد هذا الاندماج، ويعملون من أجله، ويضحون فى سبيله، ولقد يأتى الحب سابقًا للزواج، فيمهد للاتفاق والتفاهم، ولكنا نحن فى بيئتنا الشرقية، على ما بلغناه من تطور ملحوظ، نرمى فى الزواج إلى الاستقرار، والراحة، والتناسل، والسعادة، وأخيرًا الحب، ولذلك يجب أن ننصح لفتياننا ولفتياتنا بأشياء خاصة، أو بعبارة أخرى وصفات "بالتقسيط" تؤدى إلى الاندماج المنشود، وهذه هى ضبط النفس، وكبح الأعصاب،

التجرد من الأنانية، عدم التشدد والتعنت، المرح والبشاشة، التضحيات الصغيرة، ونقصد بالتضحيات الصغيرة، تلك العلاقة الطويلة مدى أربع وعشرين ساعة التى تقتضى التنازل عن بعض مسراتنا، والانصراف عن إرضاء أنفسنا، والتجرد من نزواتنا الطارئة.. وهكذا...

ثم بضع وصفات أخرى، لا أعتقد أنها فى متناول الكثيرين إلا إذا اعترفوا بأن الزواج نوع من "الزمالة" من طراز سام رفيع،.. هذه "الزمالة" تقتضى:

(١) المساواة.

(٢) احترام الحرية الشخصية.

(٣) مواجهة الأمور بصراحة وفى غير نفاق..

فإذا اعتقد أحد، كما هو الشائع، أن الزواج تغذية للسلطة والغرور، فإن هذه النصائح تنهار من أساسها وينهار معها كل تفكير فى الحياة السعيدة المطلوبة، ومن الغريب أن كيفية تمضية "الفراغ" عند كل من الزوجين محك كبير لاتجاهات المستقبل، فإنه فى هذا الصدد ستتضح الميول، وتتحدد المذاهب فى باقى الأمور الأخرى، فإذا خرج الاثنان للسفر مثلا فى رحلة، فالزوجة التى تبتسم وهى تسافر فى عربة مزدحمة، وفى درجة أقل من مستواها هاته الزوجة ستنظر إلى الحياة هذه النظرة نفسها وهى تسافر فى زحام الحياة، وفى الدرجة الثالثة..! إنها بابتسامتها ستجعله يفهم أن هذه الدرجة الثالثة خير من بولمان! ولم لا؟ أليست معه، أليست تقاسمه الشقاء فيهون والسرور فيتضاعف؟ ولقد بحث العلماء أسباب الفشل فى الزواج فخرجوا بالأسباب الآتية: الأنانية، الاندفاع العاطفى، اختلاف الأمزجة الجنسية، سوء تدبير العيشة فى ناحيتين: الناحية الاقتصادية، وتنظيم الفراغ.

أما الأنانية فقد ذكرنا فيما سلف أنها نوع من "توكيد الذات" على حساب الطرف الآخر الذى لا يجد مناصا من الرد بالمثل. أما الاندفاع العاطفى، فأنواع: منها الاستسلام للرغبات والنزوات ومنها الاندفاع فى اللجاج والكلام، أما اختلاف الأمزجة

الجنسية فمسألة خاصة بالطبيب، أما المتاعب الاقتصادية فمنشؤها عمل الميزانية من جانب واحد، أما أوقات الفراغ، فالاختلاف بشأنها منشؤه اختلاف الميول، كأن يرغب الزوج التسلي بالقراءة وترغب الزوجة تمضية فراغها في المجتمعات والصالونات، ومنشأ المحنة ليس في الاختلاف فحسب، بل في أن كلا منهما يريد أن يجر الآخر إلى ما يحبه ويؤثره، إرضاء لأنانيته الخاصة.

إذا اعتقد الزوج أن الزواج علاقة بين سيد ومسود، فلا فائدة من التحدث إليه، لان كل هاته المشاكل التي لابد منها لا تحل إلا على أساس (المساواة) وعلى التفكير في الزواج كنوع من (الزمالة العالية)، وعلى أنه (شركة روحية) تقتضي الصراحة والإيثار.

على هذا يتضح أن الزواج مخاطرة يرمي فيها الإنسان كل رأس ماله، هو مخاطرة العمر، ومغامرة الحياة، ويخطئ من يظن أنه يستطيع أن يجرب، معتمداً على الطلاق، لأن الذي يقدم على الزواج بفكرة أنه "تسلية" يمكن الانتقال منها إلى سواها هو رجل فاشل أولا وأخيراً، ولقد رأيت الكثيرين من أمثاله وقد تلفتوا خلفهم عندما أدركهم الهرم فوجدوا رأس المال قد ضاع، والشباب قد ولى، والأسرة عبارة عن بضع تجارب أثمرت فشلا..

عندما تتفق الأسرتان على المصاهرة، يفكر الزوجان في العش الزوجي، يريدان مسكناً صحيا جميلا يترعرع الأطفال في حماه وتزدهر السعادة في ظلاله..

ما شروط هذا المسكن؟

المسكن الصحى

المسكن الصحى يتكون من جـزأين: المظـهـر الخـارجى، والمظـهـر الداخلـى، وقد تسألنى وما علاقتى بالمظهر الخارجى، إنى أعيش فى داخل المنزل، فكيف تحدثنى عن خارجه؟

أجيبك بأن الصحة فى معناها الحديث تغيرت تغييراً كبيراً، فلم تعد الصحة "مجرد عضلات سليمة، ونوم مريح وشهية مفتوحة" كلا، إن الطب الحديث أعطاها معنى أشمل وأعم وأوسع، فإن الرياضى الكامل الجسم الذى يتمتع بأعضاء سليمة، لا يمثل معنى الصحة كما يجب أن نعرفها، وإليك المعنى الجديد:

(١) إمكان تمتع المرء بالحياة فى طريقة مثلى.

(٢) الحالة التى تجعلنا مستعدين لخدمة الفرد والمجموع.. ومعنى ذلك أن الحالة المعنوية للإنسان أصبحت جديرة بالتدبر والتأمل، وبمعنى أصح إن الصحة هى الحصول على سعادتين: سعادة الجسد وسعادة الروح، من ذلك يتضح أنه فى بناء المسكن لا يكفى أن يعيش الإنسان داخل منزل يجد الطعام فيه متوافراً صحيا نظيفًا، والغرف فسيحة مريحة، بل لا بد من المظهر الخارجى، الذى يساعد على اتزان العقل وصفاء النفس وهدوء البال، وليس أكثر تعلقًا بذلك من الإنجليز، فإنى عرفت فى فلسطين موظفًا من الإنجليز، كان يسكن غرفة صغيرة فى أعلى جبل تطل على الخضرة الجميلة والهواء الطلق، وكانت المسافة بين غرفته ومحل عمله ساعة بالسيارة ومع ذلك كان يفضل هذه الغرفة على المسكن الفخم الذى أعدته له حكومته.

إن الشخص قبل أن يتزوج يبنى على الزواج أحلامًا براقة ويتخيل جنة عرضها السماوات والأرض، وهو يحسبه حبا فحسب وخيالا فحسب، ونعيمًا فحسب، فعندما تصدمه الحياة بحقائقها يصير من حقه أن يفتح نافذته على ما يعيد إليه أخيلته ويجعله يطل على أحلامه الماضية،وإلا فما أبشع الحياة إذا التوت فى الداخل وساءت منافذ الخارج!.

إن سيكولوجية الزواج تتلخص فى أن الحب فى الزواج يجب أن يحلل إلى ثلاثة عناصر: الجنس والتماس الشخصى والتفاعل مع الحقيقة، وهذه العناصر الثلاثة تمتد إلى الوراء حتى تصل إلى الطفولة فنجدها متحدة، نجد عنصر العاطفة متحداً مع عنصر الجنس، نجد هذين العنصرين مندمجين فى جميع العلاقات مع العالم الخارجى يلونان كل معاملتنا مع الحياة والأحياء حتى إذا حان الزواج أخذت هذه العناصر تتحلل ويبدو أثر كل منها واضحًا، هذه العناصر التى ذكرناها ما هى إلا الشخصية مختصرة مركزة، فالزواج من هذه الناحية (محك)، و(اختبار)، و(نهاية)، ويستحيل أن يكون مجرد "حادثة" مهما أراده بعض الناس أن يكون.

ويجب أن يفهم كذلك أن الزواج "تغيير" وإعداد عندما يتماس اثنان، وقد بنى كل منهما قصوراً من الأحلام والأمانى يرجو تحقيقها، يحدث هذا التماس عاطفيا وجنسيا وأخلاقيا، ومن الصعب القول إن كل عنصر من هذه يتفاعل على حده، والصواب أنها تتفاعل منفردة، وتتفاعل متلاقية، ولابد قبل أن نرجع إلى هذه النقطة أن نعود إلى الطفولة الأولى – أى إلى عهد التربية المنزلية فى السنوات الخمس الأولى من الحياة، هذه الحياة مكونة من رغبات واستجابات، الرغبات من ناحية الطفل والاستجابات من ناحية البيئة، أما عن الجنس فيكون الطفل متطلعًا متسائلا دائمًا، فإذا زجرته البيئة كانت إجابته الصمت والانطواء، وقد أيقن أن الجنس محاط بالأسرار والجهل، وعلى هذا يحمل إيمانه بذلك حتى يصير بالغًا فيتزوج فينتقل إلى منزل الزوجية بهذا الجهل وتلك الأسرار، أما عن العاطفة، عن الناحية العاطفية المشبعة بالحنان، فأمر من اثنين إما تندمج فى معنى الجنس، وإما – بحسب التربية – تنفصل عنه، ويتكون فى نفس

الشخص فريقان فريق عاطفى روحى، وآخر لا علاقة له به وهو المعنى الحيوانى البحت، وعلى حسب تغلب الواحد منهما على الآخر، يكون الرد على الحوافز والدواعى، وهذه الصورة بذاتها يحملها البالغ إلى منزل الزوجية، يحملها وهو لا يدرى، وإنما تتبين آثارها بسرعة فى ذلك الاختبار الهائل الخطير الذى نسميه الزواج.

كل من الزوجين يحمل معه لمنزل الزوجية تيارات نفسية مختلفة جنسية وغير جنسية، والإجابات على الحوافز والمنبهات المختلفة، تتباين أو تتشابه، حسب اختلاف التيارات أو تشابهها، ومن هنـــا تبـــدأ أحـــلام الهنـــاء فى اتخاذ شكلها الحقيقى، ومن الواجب أن نقول إن عقدة واحدة تلقى ظـلها على جميع الصور، عاطفية أو جنسية أو أخلاقية، والغالب أن هذه العقـد القـــديمة، تكون كلهـــا باطنية دفينـــة، فلا يشعر بها الإنسان، وإنما يشعر بنوع مخيم مجهـــول من الضيـــق، ويتبين أثره فيما يحدث من المعاملات.

من هنا يصعب إعطاء النصيحة، لأنها يجب أن تنصب على شىء معين واضح، من هنا كان التفكير فى إعداد عيادات، لما قبل الزواج، يبحث فيها الخطيب والخطيبة، لفك أسرار التيارات الخفية فى كل منهما، قبل أن تنكشف بالزواج، فيحدث مالا تحمد عقباه. فى هذه العيادة – المتخيلة – يسأل الخطيب والخطيبة عما يعرفانه عن الغرض من الزواج وعن أسرار الجنس، ويتبين من التحليل إذا كان "التماس" العائلى قد ربى فى أحدهما شعوراً بالنقص، أو بعكسه شعوراً بالعظمة والسيادة، ويتبين من التحليل كذلك إذا كان أحدهما مستعدا "للفطام" من منزل الأهل، مستعدا للاستقلال بنفسه وتحمل المسئوليات الجديدة، أو هو لا يزال يرسف فى قيود بابا وماما..

إننا فى الواقع لا ندرى لماذا نعد عيادات للوقاية من الأمراض ولا نعد عيادات للوقاية من أخطر الأمور الاجتماعية، ألا وهى تفكك وانحلال روابط الأسر.

إننا نحمل إلى منزل الزوجية أسرارنا وجهلنا وعيوبنا ولا يوجد اختبار شاق، كالصلة الدائمة بين اثنين، تلك الصلة التى تقتضى ترقيع الفـــروق، وتضييق الثقوب، ولم شمل الأضداد والتسامح فى العيـــوب، والتغاضى عن الهفـــوات، وسعة الصدر وقوة التحمل، فى كل ساعة بل كل لحظة من لحظات النهار.

على أننا إذا فرضنا أن أحلام الوفاق لم تتحقق، وقد صارت ثمرة الزواج على الأبواب، ولم يعد هناك مجال للتفكير في غير تنظيم عش الأسرة على أية حال، فإن كثيراً من السعادة يمكن أن نحصل عليه بالعيش المنظم المرتب، كالعبقرية التى لا تنال بالفطرة يمكن أن تنظم الموهبة بدلها، وتصقل وتثقف بالسهر عليها والعناية بها، حتى تصل إلى درجة عالية من الكمال.

كذلك الحال في الزوجية، وخاصة بنظامها الحالى، خطوية بين الأسر فإسراع فى الإعداد، فانتقال لمنزل الزوجية ثم سلسلة من المفاجآت، فلنتعلم إذن كيف نحصل على أكبر قسط ممكن من السعادة والراحة بتنظيم معيشتنا، وتربية أولادنا، حتى نظفر بما يعوض نواحى النقص الأخرى.

قلنا إن "العش" الزوجى يجب أن يستكمل كل شروط الصحة، وقلنا إن لهذا العش مظهرين خارجى، وداخلى أما الخارجى فإليك شروطه:

(١) أن يشرف على مناظر سارة، لا على خرابات أو شوارع تشمئز منها النفس.

(٢) أن يكون فى منطقة خالية من الأتربة والدخان والأصوات المزعجة.

(٣) أن يكون قريبا من المواصلات.

(٤) أن يكون قريبا من المنتزهات العامة.

(٥) أن تكون الواجهات شمالية أو شمالية غربية وهى الجهة التى تهب منها أغلب الرياح فى مصر.

(٦) أن لا يكون بعيداً عن مكان عمل الزوج.

قد يقال هذه بديهيات، كلا فإن "البند" الأخير على الأقل هو إصرار الزوجة على القرب من أهلها مثلا قد يضطر الزوج لإرضائها فيستأجر لها ما هو قريب من أهلها وبعيد عن مكان عمله، وأعرف أن هذا السبب وحده كون عقدة نفسية فى نفس صديق أعرفه، كلما عاد إلى منزله متجشماً بعد الطريق وصعوبة المواصلات مضيعاً وقته وراحته دائماً دائماً..

المظهر الداخلى

(١) يجب تجنب المسكن الرطب بأية حال لأن الرطوبة تسبب النزلات، والروماتزم، والسل.

(٢) يجب أن تكون الغرف كافية العدد للمنتفعين بالمنزل لمنع الاكتظاظ الذى هو السبب فى كثير من الأمراض الشائعة وتستعمل الغرف الشمالية الشرقية للنوم، ويكون بالغرفة نافذة واحدة على الأقل، ويجب أن تكون مساحة الغرفة التى يسكنها اثنان ١٨ متراً، وعشرة أمتار لغرفة الشخص الواحد.

(٣) المطبخ، يكون فى الجهة الجنوبية للمسكن، حيث تكون غرف النوم والجلوس بعيدة عن الهواء الذى يجىء من ناحية المطبخ الذى يتصل بغرفة "الخزين" التى تكون ذات نافذة مغطاة بسلك ضيق النسيج، وأرضيتها وأسفلها - كأرض المطبخ - صلبة غير قابلة لنفاذ السوائل والدهانات.

(٤) دورة المياه تكون فى الجنوب، وتفتح على طرق مهواة ولا يستحسن بتاتاً وجود دورة المياه تحت السلم كما هو الحال فى بعض البيوت حتى النظيفة منها، ويجب أن تكون الأرضية والأسفال من "القاشانى المزجج" منعاً لامتصاص الأقذار.

أماكن غسل الملابس

يجب أن يكون لغسل الملابس مكان خاص، وحبذا لو كان بعيداً عن المنزل - فى الحديقة مثلا - فما أقذر المنزل الذى تجد به "الغسالة" حائرة بين المطبخ والحمام!.

غرف الخدم

ليس من المستحسن أن يبيت الخادم داخل مبنى السكن، وهذا من الوجهة الصحية والأدبية والقومية واجب محتم يجب أن يلاحظه الجميع.

إزالة الفضلات

يجب أن يكون للمنزل صندوق صحى للقمامة، ويجب أن تظل القمامة مغطاة.

هذه مبادئ، وقد يقال بديهيات فى علم الصحة ولكن الحياة قامت على البديهيات قبل أن تقوم على المعقدات، فإن زركشة البيت وزخرفته وتأثيثه بالأثاث الغالى الجميل، لا يكون لها معنى ولا أثر بدون البديهيات السابقة، فما أكثر ما تدخل بيت ثرى حرب مثلا، فتجد أغلى الأثاث، وأفخم الطراز ولكنك تجد غرفة النوم بجانب المطبخ، وتستقبلك الغسالة، وأنت فى طريقك إلى غرفة الانتظار.

قد لا يكون القارئ فى حالة تساعده على أبتناء فيلا ولكن أقل شىء نستطيعه فى الحياة هو حسن الاختيار، ولقد زار كاتب هذه السطور بعض بلاد أوروبا التى تعنى عناية خاصة بمسكن الفقير فكان المنزل عبارة عن جنة صحية صغيرة، وكانت هذه

الجنة دائمًا حافلة بالورد والزهور فى النوافذ وعلى الدرج، وعندما يمر بك القطار عبر سهول أوروبا، يروعك ذلك المنظر الفخم، منظر الدور الصغيرة مبنية على سفوح الجبال، والنوافذ حافلة بالزهور، كأن عقداً واحداً من الخلد ينتظم هذه الجنات الصغيرة المنسقة.

بعد ما يبتنى المستعد للزواج مسكنه، أو يختاره حسبما وصفنا باختصار، على الزوجين أن يدركا هذه الحقائق:

(١) عليهما أن يلما بالقواعد البسيطة التى لا غنى عنها لحفظ صحتهما حتى يجىء النسل سليماً فإن هذا دين فى عنقهما لوطنهما وقومهما.

(٢) عليهما أن يعلما أننا فى القرن العشرين، وأن الحياة بتكاليفها وأثقالها لا تبيح استمرار النسل إلى ما لا نهاية، وخاصة إذا كان الدخل صغيراً والموارد محدودة، فليس من العار أن يلم بكيفية منع الحمل بالطرق الطبيعية النافعة، ولا نقول منع الحمل بمعناه الحرفى وإنما نقول: تحديد النسل.

(٣) عليهما أن يلما بأسرار العناية بالحامل.

(٤) عليهما أن يلما بمبادئ علم النفس العامة، ثم بمبادئ علم النفس الخاصة بتربية الأطفال، وعلى الأخص بمواضيع بالغة الأثر كالخوف، والجزاء والعقاب، والخجل، إلخ.

ثم التربية الصحية للطفل، كالتغذية الطبيعية والصناعية، ثم أخيراً بالمراحل التى يجتازها الولد أو البنت حتى المراهقة، وخصائص كل دور منهما.

وأخيراً كيف يعد المراهق أو المراهقة لمواجهة الحياة.

قواعد صحية

الصحة على نوعين: صحة الفرد وصحة المجموع، وتطلق على الأول صفة (الصحة الشخصية) كناية عن أنها تخص الإنسان فيجب أن يعنى بها شخصيا،

والثانية تعرف باسم الصحة العامة ومسئولية العناية بها تقع على عاتق الحكومة وبالأخص السلطات الصحية، على أن السلطات الصحية مسئولة عن صلاح الأغذية التى تباع فى السوق كاللحوم واللبن وأغذية المطاعم والمثلجات ولكنها غير مسئولة عن كيفية طهوها فى المنازل، وتركها هناك مغطاة أو معرضة للغبار والذباب، وقس على هذا، ولذلك وجب أن يدرس دستور الصحة الشخصية فى المنزل، فى البيئة العائلية، وإن لم يكن الآباء والأمهات قد ألموا به منذ نعومة أظفارهم فلا عار عليهم أن يلموا به كباراً، حتى يؤدوا لأولادهم الدين الذى فى أعناقهم لهم.

الهــواء

(١) يجب أن يكون كل مكان توجد فيه جيد التهوية.

(٢) اجتهد أن يكون عملك وتسليتك فى الهواء الطلق.

(٣) نم (إذا استطعت) فى الهواء الطلق، أو ما يشبه الهواء الطلق.

لكى يكون الهواء صالحًا

(١) يجب أن يكون أقل حرارة من الإنسان.

(٢) يجب أن يكون جافا ولا تزيد درجة الرطوبة فيه عن ٧٥٪.

(٣) يجب أن يكون متحركًا وغير راكد.

(٤) يجب أن يكون نقيا غير محتو على مواد معلقة كالتراب والهباب.

(٥) يجب أن تكـون كمية الهـواء كافية للإنســـان أى ٩٠ مترًا فى المتوسـط فى الساعة.

وإننا نلفت النظر إلى هذه الأشياء خاصة، من أجل إقبال الناس إقبالا منقطع النظير على دور السينما، وبخاصة الحديثو العهد بالخطبة أو الزواج.

فمن دساتير الصحة الفردية، تجنب الأمكنة المزدحمة، سيئة التهوية وخاصة عند ارتفاع حرارة الجو، وركود الهواء، وازدياد الميكروبات بواسطة التنفس، إذ كثيراً ما يؤرخ المريض تاريخ مرضه فيقول (كنت فى السينما ..) ثم يستتبع قائلا وأصابنى ضيق، وصداع وفتور عام.. إلخ.

التغذية

(١) لا تأكل أكثر من طاقتك واحرص على أن لا يزيد وزنك عما يجب أن يكون عليه من كان فى مثل سنك وجسمك.

(٢) لا تكثر من أكل المواد الزلالية كاللحوم والبيض ولا التوابل والملح.

(٣) تناول ما استطعت من أطعمة جافة، أو طازجة (غير مطهوة).

(٤) كل ببطء وتنوق ما تأكل.

(٥) تناول ماء كافيا شربًا وعلى بدنك.

النشاط

(١) اعمل وتسل وارتح ونم فى اعتدال.

(٢) مارس رياضة التنفس. فتح رئتيك.

(٣) اغرس فى نفسك الهدوء.

الغذاء

إننا نأكل لنعيش، ولكى نعيش عيشة موفورة، يجب أن نلم ببعض قواعد أساسية بحيث نحسن تخير طعامنا، ونعلم علم اليقين ما فائدة هذا، وما ضرر ذلك.

عناصر الغذاء أربعة:

(١) النشويات كالأرز والبطاطس والسكريات وتستعمل فى توليد الحرارة، إنها بمثابة الفحم للقاطرة.

(٢) الدهنيات وتشمل على الزيوت النباتية كالزيت الحلو وزيت الزيتون، ووظيفتها كسابقتها، وتزيد عليها فى أنها تختزن إذا زادت عن الحاجة.

(٣) الزلاليات وتشمل اللحوم على اختلاف أنواعها، وتوجد فى اللبن والبيض، وتستعمل فى ترميم ما فقده الجسم بالاستهلاك.

(٤) الأملاح المعدنية، وهى لازمة للعمليات الكيمائية الحيوية المختلفة فى الجسم.

ويزيد الطب الحديث عنصراً خامسًا، ومن حقه أن يوضع فى المرتبة الأولى أو الثانية، ذلك هو عنصر الفيتامينات.

غير أننا قبل أن نتحدث عن الفيتامينات التى أصبحت مودة الجيل، ذاكرين بعض الطرائف الطبية الحديثة فى هذا الصدد، نذكر مسألة غذائية لطيفة، تعد أكبر خدعة اقتصادية فى التاريخ تلك هى مسألة الخبز، ولماذا تحتل مسألة (الرغيف) أهمية بالغة فى التغذية العامة؟ إن القارئ الذى أدرك مما ذكرنا ضرورة وجود عناصر بعينها لنستطيع أن نعيش ونعمل، يتساءل: هل الخبز غذاء كامل؟ إن الفقير يتناول رغيفاً، وقطعة من الجبن، أو حزمة من الفجل، فيأكلهما ثم يحمد الله شاكراً، وقد شعر (بالامتلاء) كلا! ليس الخبز وحده بكاف، ولا الفجل، فإن الخبز نشويات خالصة، والفجل فيتامين وألياف، والجبن زلال قليل وأملاح جيرية، فهل هذا الذى يشعر به الفقير صحيح؟ إنه شعور كاذب بأن (الوجبة تمت)، ذلك لأن الخبز ينتفش فيشعر الإنسان كأنه أكل أكلة دسمة!.

ولكن الاستمرار على هذا الغذاء بالذات لابد أن يبدو أثره - على الأقل فى النسبة العامة لصحة الأفراد - كما يبدو أثره فى المصانع فى عوارض التعب وقلة الإنتاج،

وفى فلاحينا، يبدو أثره بانهيار المقاومة، فمما يجب أن نذكره عن وباء الملاريا الأخير فى الصعيد، أن المرضى كانوا يموتون قبـل أن يصلهم الدواء، وذلك لأن المنـاعة عندهم قليلة.

نحن لا ندرى من الذى اخترع خدعة (الرغيف)! ولكن الأمم اليوم تعنى عناية خاصة بأن يستكمل أفرادها فى الوجبة الواحدة كل العناصر التى يمكن أن يؤلف منها غذاء كامل رخيص، وإلى القارئ - قبل أن نحدثه عن الفيتامينات - عرض لأغذيتنا المصرية، فبمراجعة هذا الجدول، يفهم القارئ شيئين، الشهرة الكاذبة التى يتمتع بها بعض الأغذية، وهى لا تحوى شيئًا هاما تقريبًا، كالشهرة الكاذبة للأفراد سواء بسواء، والشىء الثانى أن كل إنسان يستطيع أن يختار من هذا الجدول ما يؤلف طعامًا كاملا ويلاحظ كذلك أن المنتجات المصرية، فى ضوء التحاليل الأخيرة غنية خاصة بالفيتامينات، ومنها ما هو بتركيبه الخاص كالمركب الغروى اللزج فى الخيار والبامية مما يلائم الأمعاء فى المناطق الحارة. ويكون فوقها طبقة بلسمية شافية.

نوع الطعام	زلال	نشوى	دهن	أملاح
خبز القمح	٥٪	٤٧,٥	٥٦.	١,٢
ذرة	٣,٤	٤٥.	١,٤٢	١,٢
لحم بقرى	١٩	–	٤,٧	١,٣
ضان	١٧,١	–	٥,٧	١,٩
عجالى	١٩	–	٥,٧	١,٩
دجاج	٣٢	–	١٤,٨	٢,٦
حمام	٢٠,٨	–	١	١
كبدة	٢٠	١,٧	٣,٨	١,٧
سمك	١٦	–	٣,٨	١
البيض المصرى	١٢,٥	–	١٠..	.٧
لبن بقرى	٣,٤	٥	٣,٨	.٧
لبن جاموس	٤	٤,٨	٧,٥	.٨
جبن مصرى بخيره	١٢	–	١٥,١	١٠
البصل والكرات	٠,٩	٥	١,٧	.٦
الطماطم	٠٩	٤	.٢	.٦

نوع الطعام	زلال	نشوى	دهن	أملاح
القرع	.١٢	٢	.٢	.٨
الخيار	.٦	٣	.٢	.٥
الباذنجان	١	٢,٦	.٣	.٥
الخس	١	٢,٧	.٣	.٥
زيتون	.٦	٤	١٥,٢	٣,٥
الموز	.٦	١٤	.٤	.٧
برتقال	.٤٥	٨,٢	.١	.٤
البطيخ	.١٥	٢,٦	.١	.٢
التفاح	.٢	١٠	.٣	.٣
العنب	٠,٨	١٤	١	.٥
الزبدة	١	١	٨١	.٥
السمن	–	–	٩٠,٥	–
زيت السمسم (إلخ)	–	–	٩٥	–
ترمس	٢٧,٥	٣٤,٦	٦,٨	٣,٢
لوبيا	١٥,٨	٥٩,٣	٣١,٤	٣,٧
بطاطس	١,٦	١٥	.١	١

يتضح من هذا الجدول أن الزيتون مثلا غنى بالمادة الدهنية فهو من المسمنات المجهولة، ويتضح كذلك أن اللوبيا والترمس من الأغذية الرخيصة الغنية، ونتعجب لماذا تكون اللوبيا طعاماً أساسيا والترمس لمجرد اللهو والمزمزة!.

ويتضح كذلك أن من الأغذية ما هو مجرد "حشر" وأن قيمته الغذائية قليلة جدا، وأن أهميته تتلخص فقط فى وجود فيتامينات خاصة به، ولكن غاب عن ذهن الذين يتناولون "الخس" بكثرة رغبة فى الحصول على فيتامين، أنه لكى نحصل على كمية قليلة من الفيتامينات يجب أكل عدة خسات، أو بضع حزمات من الفجل، والأمعاء لا تتحمل ذلك.

أما عن الفيتامينات، فسيأتى الحديث عنها بالتفصيل فى غير موضع من هذا الكتاب، فسنكتفى الآن بشىء من التمهيد لذلك الموضوع الحيوى، الذى هو موضوع الأجيال المقبلة وخلاصة الطب الحديث الذى يلخص فى كلمات ثلاث، سلفاميد من بنسيلين فيتامينات، الفيتامينات عبارة عن مركبات كيمائية، أمكن تقليدها فى المعمل ومن الطريف أن بعضها فى تركيب هندسى كيمائى انقلب الفيتامين هورموناً، هذه الفيتامينات، هى أساس الحياة، وقد ثبت أنها متداخلة فى تركيب الذرة الإنسانية، أعنى فى الخلية الواحدة وفى كل يوم يكشف الطب من عجائب هذه الفيتامينات ما يحير العقل، والأصح أن نقول من عجائب الفيتامين الواحدة، فإن فيتامين ب مثلا صار عشرة عناصر فأكثر، منها ما هو خاص بالحمل وحده، ومنها ما هو خاص بالشعر ونموه، أذكر على سبيل المثل أن الخاص بالحمل يمنع قىء الحبالى من حقنة واحدة، والذى يختص بالشعر يؤخذ فى شكل حقن مدة شهرين، فإن الأصلع ينمو شعره على أثر هذا العلاج وقد جربته فى مرضاى، فإذا الشعر ينمو أخضر اللون كزرع الحديقة، ثم يأخذ لونا يكاد يقرب من الطبيعى. والملاحظ أن الشعر الأشيب ينكسر وينمحى ولا يعود للظهور.

على أن الطب الحديث قد كشف شيئاً هاما جدا خاصة بفيتامين ب فى البول السكرى، إذ اتضح أن عملية اختزان السكر بواسطة الأنسولين الطبيعية فى الجسم

لا تتم إلا بوجود فيتامين ب، فهو ينحل فى مركب فسفورى، ويتحد بالأنسولين فتتم عملية اختزان السكر، من ذلك يتضح لماذا يستفيد مرضى السكر بفيتامين ب. فهو شاف للآلام العصبية التى تصاحب السكر، وهو معادل للأنسولين الطبيعى، أو العلاجى، فى استعمال السكر وتمثيله فى الجسم.

ومن فوائده أيضًا، ولا ندرى بالضبط أى عنصر منه يقوم بذلك، أنه يؤثر تأثيرًا شافيًا على أعصاب القلب بالذات، ولكن يشترط فيه المقادير الكبيرة والاستمرار بلا يأس.

هذا هو فيتامين ب، وقد تخطيت فيتامين أ، ولنتخط كل ميزاته إلى ميزة واحدة، وهى المساعدة على قوة الأبصار وخاصة فى الليل وهذا الفيتامين يتوفر فى الجزر، ولكن للحصول على كمية منه ولو ضئيلة، يجب أن نأكل من الجزر مالا يستطاع تحمله.

أما فيتامين ج، فيكفى أنه هو الفيتامين الذى تقوم عليه نواة الخلية وبدونه تذوى وتموت، ويكفى أنه هو الشافى من مرض الإسقربوط الذى أعراضه الهزال والضمور وتآكل اللثة والذى تزول أعراضه بمجرد أكل الخيار والطماطم والليمون والبرتقال، ولقد كان يصيب البحارة عندما تكون الرحلة طويلة ويكون طعامهم مخزونًا، فبمجرد وقوفهم عند ميناء ما، وتناولهم المواد التى ذكرناها يزول كل شىء.

هذا عرض موجز وسنعود إلى هذا الموضوع بين الحين والحين، أما الآن فهناك شىء هام جدا هو صيدلية المنزل.

صيدلية المنزل

١- أقراص أو برشام.

أسبرين، مسكن لا يستهان به، وأذكره خاصة فى موضوع ينسى فيه ذلك هو ألم الأسنان، مقدار الجرعة الواحدة قرص نصف جرام للكبار - أقصى جرعة فى المرة الواحدة، وليس من الصواب الاعتقاد أن الأسبرين - فى حدود الجرعة المعقولة الطبيعية - مضعف للقلب، بل الخطر هو فى استعماله بلا حساب.

كينين، برشام أو أقراص بمعدل ثلث جرام للجرعة الواحدة، وهو نافع فى الحميات على إطلاقها، زيادة على أنه مقوى عام، وفاتح للشهية، ومفيد فى أعراض هبوط القلب.

المحاليل اللازمة

ماء الجير.

كؤول نقى.

جرعة طود (نافعة فى الهبوط والحميات ويؤخذ فنجان فى الجرعة) ونصف هذا للصغار.

صيدلية المنزل

صبغة يود.

صبغة الجاوى المركبة.

ماء الجير مضافاً إليه مثله من الزيت، غيار للحروق.

ماء أكسجين.

كؤول نقى.

كونياك طبى.

جليسرين.

أدهان.

ساليسلات المثيل للروماتيزم.

مروخ كافور مسكن موضعى.

مراهم.

منتول ٢٪.

بوريك ١٠٪ غيار عام للجروح.

زنك غيار عام للجروح.

راسب أصفر نافع فى التهابات العين.

قطرات.

سلفات زنك.

أرجيرول.

مساحيق.

بيكربونات صودا.

ملح إنجليزى.

مانيزيا مكلسة.

شبة.

حمض تنيك: قابض إذا استعمل حقنة شرجية فى النشا، نافع فى النزيف الصغير، كالأسنان والجروح العادية.

مسحوق أسنان مكون من مقادير متساوية من المانيزيا وكربونات الجير.

زيوت.

زيت خروع.

زيت قرنفل: نافع فى وجع الأسنان (توضع قطنة صغيرة فى فجوة الضرس).

زيت برافين: ملين.

عقاقير جاهزة. يجب وجودها فى كل منزل.

أقراص سلفاناميد.

أقراص سلفا ديازين للنزلات الشعبية والرئوية.

أقراص سلفا جوانيل للنزلات المعوية.

أقراص بنسلين.

أقراص دوفر مسكن للآلام والصداع والمغص.

أقراض انتروفيوفرم لأمراض الأمعاء (يمكن الاستعاضة عنها بأقراص دوفاترين).

أقراص فجانين للصداع والآلام.

أقراص بلادينال لاضطرابات المعدة والكلى.

أدوات لازمة.

شاش، قطن، لنت، حقنة شرجية، ترمومتر.

كاس للعين، مراود، قطارات، كيس ثلج.

كاسات هوا، قربة ماء ساخن.

حقائق سيكولوجية

إذا كنا قد هيأنا المسكن الصالح، وألمنا بما يجب أن نتبعه لنحافظ على صحتنا استعداداً للمسئوليات التي ستشغل كاهلنا، لتكاليف الأسرة، والسهر على حاجات الزوجة والأولاد، مما يحتاج إلى بنية قوية تستطيع القيام بكل ذلك بدون ملل ولا سأم.

إذا كنا قد فهمنا كل هذا فقد بقي علينا أن ندرك أنه لابد من بنية سليمة ونفسية سليمة.

وكذلك لابد من إدراك الحقائق النفسية الواجبة للحصول على نفسية سليمة، وهذه الحقائق النفسية أصبحت لا غنى عنها لأي فرد، إذ صار من الواجب على كل إنسان أن يعلم كيف يعيش عيشة موفورة مليئة، وأن يعلم ما هي نفسية المرأة، وما هي نفسية الطفل، وأن يعلم لماذا يحب الناس، ولماذا يتباغضون، كل هذه العوامل يجب التنبه لها، لأن إغفالها هو الذي يؤدي إلى تفكك الأسرة وانهيار الروابط العائلية وفساد الذرية واضمحلال النسل صحة وخلقاً.

وسنشرح الآن معنى الحياة الموفورة المليئة وكيف تحصل عليها.

الحياة المليئة

إن أكثرنا يعيش على هامش الحياة، بينما يجب على كل منا أن يعيش في صميمها، إن أكثرنا يشكو السأم، والملل ويضيق بالحياة وتكاليفها والأيام وأعبائها، ولكن الذنب ليس بذنبه لأن أحداً لم يعلمه ما هي الحياة، ولا كيف يحصل على أكبر قسط من التمتع بالحياة لا في الأكل والشرب والملذات الحسية لأن كل هذه الملذات يشترك فيها الإنسان والحيوان معاً.

إن الحياة لكي نمارسها، يجب أن تكون "إنسانية" الطابع بشرية الأفق، آدمية الصفة!.

إن الناس لم يخلصوا بعد من طابع الحيوانية وهذا سر شقائهم.

إن الفروق الحقيقية بين الإنسان والحيوان، ليست فى أن الإنسان "حيوان ناطق" ولا فى أن الإنسان حيوان "اجتماعى" إلخ.

كلا فهذه كلها فروق سطحية، إن الفرق الأول هو فى أن الإنسان يتميز بالوعى، يتميز بمقدار ما يلاحظ، ويدرك أوجه الشبه، وأوجه الاختلاف، بمقدار ما يقارن ويحدد ويبوب، وبمقدار ما ينتهى إليه من النتيجة، وهذا كله يقتضى الانتباه، ويقتضى أن ننظر إلى الحياة بكل أعيننا، وكل فهمنا وإدراكنا، إذ الواقع أن أكثرنا يفتح نصف عين، ويلحظ الدنيا بنصف فهم وربع إدراك، ولذلك تغيب عنه مسرات الحياة العالية، ويراها فقط فى معناها الضيق الأسفل، بينما الحياة غير هذا، إنها ملآنة بكل جديد وغريب، كل شىء فيها جدير بوقفة وتدبر، حتى القبيح فيها له جوانبه، والحياة المليئة الموفورة هى التى تنظر إلى الحياة نظرة شاملة متفحصة واعية، إن المعرفة قسمان: قسم علمى قادر على النظر والتسجيل وقسم سيكولوجى قادر على الإحاطة والتأمل العميق، فيجب أن تكون معرفتنا فى الحياة من النوع الثانى ولا نستطيع ذلك حتى نؤمن أن سر الحياة هو فى القدرة على احتمال الحياة، ولقد قال أحد الفلاسفة فى ذلك "سر الحياة هو فى أن تعرف كيف تعيش مع متاعبك" يعنى بذلك أن متاعب الحياة يجب أن تؤخذ كقضية مسلمة، أما الحياة نفسها فآفاق يجب اكتشافها، ومجاهل يجب التغلغل فيها، وإن الفترة القصيرة من العمر يجب أن تكون فترة حافلة بكل معنى الكلمة، يجب أن نستغل فيها عقلنا وعواطفنا وإرادتنا أتم استغلال. إن العقل والعواطف والإرادة هى العناصر الثلاثة المكونة للنفس، ولكى نحصل على حياة موفورة غنية، يجب أن نعرف ما هى هذه العناصر التى تتكون منها النفس الإنسانية، إن الله خلقها سليمة مرتبة منظمة كحلقة رائعة من التنسيق المعجز، ولكن أكثر الناس جهلوا معنى التفكير والعاطفة فخلطوا بينهما أو جاروا عليهما أو بالغوا فيهما، أو بدلوا فى الترتيب الطبيعى للأحوال النفسية، وقد يكون هذا التبديل أو الخلط خارجًا عن أيديهم، ولكن مجرد إدراك هذا التبديل والإحساس به يمكن أن يرد الأمور إلى نصابها.

ويمكن للإنسان الذى له إلمام بهذه الحقائق أن يلاحظها فى دائرة الأسرة، فإذا رأى فيها عيوباً أمكن أن يصلحها، فى غير عناء، مثال ذلك أنه سيجد فى دائرة الأسرة، صنفين من الناس أحدهما يحكم العقل وينكر العاطفة بتاتاً، والثانى عكس ذلك.

الأول يحطم جو العائلة بكثرة التدبير، والإفراط فى التعقل، والثانى يحطم جوها بالاندفاع فى العاطفة التى تتحيز دائماً، ولا يستطيع أن يعدل فى أمر من الأمور.

هذه أمور قد تلوح بديهية، ولكن عندما نزن الأمور يتضح لنا أن هذه البديهيات فيها أسرار الوفاق، وطلاسم الاختلافات ويمكن معالجتها بمجرد ظهور أعراضها فى الأفق، قبل أن تؤدى إلى كوارث حقيقية. إن الله خلق النفس الإنسانية كالقاطرة البخارية فى التركيب، وقود وآلة وسائق.

أما الوقود الإنسانى فالعاطفة، أما الآلة فالإرادة، أما السائق فالعقل، يتضح من هذا توا أن القطار يمكن أن يسير بدون السائق وفى العصر الحديث يدور بالآلة (الفرملة) ولكنه لا يستطيع أن يقوم بدون الوقود، فللعاطفة أحوالها، فإذا ارتقت ويسرت كان لها أن تبلغ المستوى اللازم بين أفرادها، ولكن هذه العاطفة يجب أن تنتظم علاقتها بالعقل والإرادة، بمعنى أن العقل يكشف للعاطفة الطريق، وتكون الإرادة مستعدة بسرعة وبحزم للوقوف أو السير عند الاقتضاء.

تكلمت عن القطار الآدمى، وشبهته بالقطار الحقيقى، وإتماماً للنسبية أقول إنه لابد لكل منهما من هدف.

وهدف واحد تتلاقى فيه الأهداف جميعاً، فالقطار الآدمى يرمى إما إلى هدف فكرى أو عاطفى، فإذا تعددت الأهداف وتوزعت المآرب، غام أفق الطريق، وخيم على الأفق النفسى ظل من الضيق مجهول المصدر، ولكنه واضح الأثر، يخرج الزوج فى الصباح وهو ضيق الصدر، متشائم، محير، لا يدرى – فى الأكثر – سر حيرته وشقائه، وقد تكون الزوجة فى مثل غمه وحيرته، وهى أيضاً لا تدرى سر هذا الكرب الذى لا يبرحها والذى تبحث عن أسبابه فلا تجد.

فلنصرح إذن في غير تردد أن سر هذا الشقاء الغامض والذى يدعى عند علماء النفس "بالقلق العصبى" هو أول ما يكون، من تعدد الغايات، وتضارب العواطف، وتشعب الميول، وتشتت الفكر، ومن ثم عدم اتضاح هدف بعينه، فلابد إذن من (ميزانية) للعواطف والأفكار، كما للبيت ميزانية وللدولة ميزانية، ميزانية يحصر فيها الهام وغير الهام ويحدد الإيراد والمنصرف، والمتوفر والطوارئ.. إلخ، فلنفهم جيداً، أن تعدد الأصحاب، والمحاسيب وتشعب الغايات في أعمال صغيرة، غير مجدية، ولو سارة، تنتهي بأن يتفكك الرباط الأصيل، ويغيم الهدف المرموق ألا وهو إسعاد الأسرة والانكباب على إسعادها.

ولنوقن كذلك أن الحياة قامت على أشياء صغيرة جدا، لم تقم على عظائم الأشياء، لأن هذه الأشياء الكبيرة إنما تأتت من تكدس الأشياء الصغيرة، فإن القروش الصغيرة التى تصرف هباءً، والفرص الصغيرة التي تغمض العين عنها، تؤدى أخيراً إلى كارثة محتومة، وقد نعتقد أنها بنت يومها ولكنها فى الواقع بنت أيام وأيام.

تكلمت عن "الفرص الصغيرة" وقد يكون فى هذا غموض فلكى واضح، لذلك أقول إن هذه الفرص الصغيرة فى دائرة العائلة هى فى تذكر المناسبات اليومية أو السنوية، كالتحيات المألوفة والثناء العابر، والابتسامة الطيبة، والتسامح البسيط والهدايا الصغيرة فى أعياد الميلاد وغيرها، إننا لا يجب أن نستهين بهذه الأشياء بتاتًا، فإن الزوجة والأولاد ينتظرون هذا ويستعدون لها، فإذا نسيت هذه المناسبات الصغيرة قد يسبب إغفالها جراحًا دفينة، فما أكثر ما تسمع عن سبيل الشكوى:

"فات عيد ميلادى ولا جابليش حتى ورده".

ولقد تكون مناسبة كهذه فى بال رب الأسرة ولكن يغطى عليها، ويجعلها منسية، انشغاله بأمر عمرو، وأحوال زيد، وما زيد وعمرو، غير أثقال تافهة تقيد يديه وتغل رجليه، ولكنه يقبلها متورطًا، لأنه لجبنه لا يستطيع أن يقطعها، ولضعف إرادته لا يقول "لا" حين يجب أن يقولها.

أجل ضعف إرادته، وما هى الإرادة؟ أعجب للذين يقولون "تربية الإرادة" كأنها شىء نريد أن نخلقه من عدم. كلا إن الإرادة فينا، هى "الفرملة" تحت أرجلنا، يغطيها الصدأ ويخيم عليها عشب الإهمال، فلكى نستخدمها يجب أن نؤمن بوجودها ثم نمد أيدينا فنجدها فى متناولها، ثم نسرع باستعمالها، إذا قلت الآن فلا تتمهــل ولو على خطأ، وإن الإسراع فى الخطأ، والحزم فيه قد يكون أحياناً أجدى من التمهل فى الصواب، عندما تستخدم الإرادة مسرعة وفى أحوال صغيرة ستجدها مستعدة أتم الاستعداد فى الأمور الجسام.

اجلس إذن، رب الأسرة العزيزة إلى مكتبك، حدد ميزانية بيتك وميزانية نفسك، احذف أو اثبت بحزم، ونفذ، واعرف جيداً إلى أين تهدف ولمن ولماذا، إن هذه الميزانية قد تقتضى تضحيات كثيرة، فإنك تجدك مضطرا إلى حذف أشياء عزيزة على نفسك، وإغفال قوم تؤثرهم، ولكن المهم دائماً هو حصر الأشياء فى دائرة، وتقديم الواجب على السار، والأهم على المهم.

عرفنا مما سبق كيف يفيدنا علم النفس فى إيثار العاطفة على العقل، وفى جعل العقل قائداً لها، وفى وضع اللجام فى فم العاطفة وتحديد هدفها، وعرفنا كذلك معنى الإرادة، وكيفية استغلالها فى مصلحة الأسرة، وبناء الكيان الشخصى والعائلى، وأخيراً كيف يسير القطار الآدمى بركابه إلى الهدف سليماً.

إن الجو العائلى يتكون من أفقين وأربعة عناصر حب وبغضاء وزوج وزوجة وأولاد، وغرباء يشمل ذلك الأقارب والأهل والأصدقاء.

فلنبحث الأفقين أولا، لنعرف عوامل الحب وعوامل البغضاء أما الحب فهو الرباط الوحيد الذى يربط أفراد الأسرة معًا، لا بل هو الشىء الوحيد الذى يذلل العقبات ويتخطى الحوائل ويعبد الطرقات مهما التوت وصعبت، أما كيف ينشأ الحب فنحن لا نعلم بالضبط، إن هذه المشكلة هى مشكلة العالم من مبدئه إلى الآن، الحب بين اثنين، الحب فى العائلة، الحب فى المجتمع، الحب بين الأسر، الحب بين الدول، حقيقة إن هذه ألوان مختلفة ولكنها تنتهى إلى ضرب من الحب على أية حال.

إننا لا نعلم ما هو على وجه التحقيق، وإنما يقول العلماء إنه تجاذب AFFINITY بين اثنين فأكثر، قوى خفية تلقى بشخص فى طريق آخر، ثم فى كتفه، ثم تحت سقفه فالاثنان يتفقان ويتفاهمان فى غير لغة، وبغير بيان، وبغير لسان، قد يلتقى غريبان فى سفر لا يعرف الواحد منهما لغة الآخر ولا اسمه ولا من هو، فيجدان شيئًا خفيا يدفع الواحد منهما للآخر، فإذا تلاقيا، وكان الحافز قويا يتخطى بهما اختلافات الميول، ويرقع الخروق ويتلاقى الفروق ويجيز التضحية، ويحطم الأنانية، ويلم الشعث، ويقرب الأضداد، هذا هو الحب.. وقد ينشأ البغض كما ينشأ الحب من عوامل لا نفهمها، اثنان يتلاقيان فيبغض الواحد منهما الآخر ويستثقل ظله، وإذا سألتهما لماذا؟ وجدتهما لا يدريان.

على أن الحب قد يستحيل بغضًا، إذا لم يعرف المتحابان كيف يتجنبان البغضاء ويحاشيان العوامل التى تثير الأحقاد والمشاحنات، ولكننا نشك فى أن البغض يستحيل حبا، بل قد يستحيل صداقة وتقديراً، عندما يكتشف الواحد فى الآخر من الصفات ما يجعله يقدره ويجله ويتجاوز العوامل الشخصية البحتة...

ولقد يفشل الحب لأبسط الأسباب، ألا وهو اختلاف معنى كلمة الحب ومغزاه عند كل منهما، وشرحًا لذلك نقول إن الحب الفطرى شيء لا يتجزأ، فهو أن يحب شخص آخر كما هو حبا غير مجزأ، يحبه بروحه وجسده فمنذ أن أخذ الحب فى التجزئة، أخذ فى الفشل والانهيار، قد يقول قائل وما رأيك فى العذرى؟ أليس حبا من أرقى طراز فأقول أجل! إنه ناجح فنيا وفاشل عائليا، ونحن نتحدث الآن عن عالم الأسرة ودنياها.

فكم من شاب أحب شابة حبا روحانيا من طراز رفيع جدا فشل فى زواجه من الليلة الأولى، وقل كذلك فى اثنين أحدهما رقيق المشاعر وحبيبه حيوانى النزعة، فإن الزواج سيفشل كذلك من الليلة الأولى، إن علماء الجنس يتحدثون عن هذا الضرب من الحب ويسمونه "الليبيدو المقسم".

وينسبون كثيراً من الضعف الجنسي، والفشل فى الزواج أولا أو أخيراً إلى فصل الحب إلى قسمين غير متصلين ولا يكفى أن يكون التقسيم إلى حب روحانى وجسدى،

بل قد يكفى أن يكون التقسيم إلى احترام متطرف فيه وتقديس مبالغ فى مظاهره ورغبة جسدية تخشى أن تعبر قنطرة التقديس والاحترام، ومن هذا يتضح لماذا يفشل زوج محترم، متزوج بسيدة محترمة جدا، فى زواجه منها وينجح مع خادمة، ويكون هذا مثار عجب الناس وسخطهم وانتقادهم وهم لا يعلمون، نحن لا نتحدث الآن عن علاج هذه الحالة، وإنما نعرضها عرضًا موجزًا كمثل للحب الكامل كما يجب أن يكون فى الزواج السعيد الموفق.

إذا فرضنا تجمع أسباب الحب الكامل، فما هى العوامل التى يستعين بها ذلك الحب على الثبات والبقاء، لندع ما ذكرناه وفصلناه سابقًا (انظر سيكولوجية الزواج) ولكن نقول إن الحب يبقى إذا عرفنا أسباب البغضاء وتحاشيناها، إن أسباب البغضاء، تولد فينا جنبًا لجنب مع عناصر الحب ولم تقصد الطبيعة بها أن تكون عوامل بغضاء، بل الواقع أن كلها عوامل دفاع عن النفس، وألوان من القوى التى ننشرها فى وجوه الأعداء والأخصام، فإذا بقيت هذه العوامل طبيعية فهى حصون وقلاع ضد عدوان الآخرين، فإذا بولغ فيها فستنقلب حصونًا ضد أنفسنا وقلاعًا تحطمنا نحن وأحبابنا معًا.

وما هذه الأسباب؟ ما عوامل البغضاء؟ إن كلامنا يولد محبا لنفسه، وما فى ذلك عيب، لأن الذى لا يحب نفسه لا يستطيع المحافظة عليها، ولا يتمكن من الثبات فى معركة الحياة.

ولكن العيب قائم فى أن من يحب نفسه يتحيز لها ويتحيز لكل ما تحبه هذه النفس، ولكل من يحنو عليها ويدللها، ولكل من يكون به شبه أو تجانب مع هذه النفس، وقد يتحيز الإنسان منا تحيزًا أعمى لهذا الإيثار الخفى، حتى لقد قال العلامة شنيكل وهو يتحدث عن مشاكل الزواج إن الإنسان حين يحب، يحب كما يشاء، ولكنه عندما يتزوج فإنه يتزوج بمن تشبه أمه فى الشكل أو الصفات، قلنا إن الإنسان يتحيز لهذه التيارات الخفية تحيزًا أعمى فى أكثر الأحيان، يتحيز للون الشعر أو العين، يتحيز لشكل الأنف، يتحيز للون البشرة، يتحيز لإيماءة، لكلمة، وأكثر ما يكون التحيز فى النساء، وهذا يفسر

لنا ما نقرؤه فى الجرائد والقصص أحيانًا من أن سيدة مشهورة بالاتزان والوقار أحبت شخصًا ليس من مستواها، وتركت بيتها وأولادها غير مبالية بما يصيبها من ذلك.

على أن هذا التحيز الأعمى يصبغ كل معاملاتنا، فى البيت، فى المكتب، فى المجتمع، فإذا كنت رئيسًا، فأنت تؤثر مرؤوسًا قد لا يكون أهلا لجزء من هذا الإيثار، وإذا كنت موظفًا عاديا فأنت تؤثر من زملائك فى المكتب موظفًا آخر تصطفيه وتعاشره دون الآخرين، وقد لا تدرى لماذا ولكنك إذا بحثت جيدًا وجدت أن فيه صفة من صفات والدك أو أخيك أو فيه على الأقل لمحة أو لمحات تومض إليك فتخاطب عقلك الباطن وأنت لا تدرى.

ولو سار هذا التحيز مسيره ما كان يجنى علينا جناية كبرى ولكن الضرر ينشأ من أننا نتحيز لمن نحبه ونعادى من يختلف عنا، وقد يكون هذا الاختلاف اختلافًا فى الرأى، أو العاطفة أو المذهب أو القومية أو الميول، أو المشارب، لأن كلا منا يولد وفى دمه أنه أحسن الخليقة طرا، وأنه على الأقل أحسن من جاره وأرقى من هذا الصديق أو ذاك، نحن لا نصرح بذلك مجاملة ورياء ولكنك أيها القارئ يمكنك أن تلمح ذلك فى السفر، عندما تزدحم العربات، فتجد كل شخص قد سبقك إلى احتلال أحسن الأمكنة، فإذا دخلت عليه لمحك وهو يكاد يقول لك إنى خير منك ثم إذا ازدحمت الغرفة يتفرس الراكب فى أخيه وهو يقول له فى صمت إنى أحسن منك، وأحق بالمكان الطيب، والموضع المريح؛ فإذا كان على شىء من الغنى تحسس جيوبه وإذا كان على شىء من الذكاء تحسس جبينه، وإذا كان على شىء من المكانة فى الدولة تلفت يبحث عن ساعيه أو سكرتيره فى الخارج.

ويتجلى هذا العداء منا لمخالفينا أثناء المناقشات فإنك ما تكاد تبدى لهم رأيًا مخالفًا حتى تكسب عداوة الآخرين، ولذلك يقول علم النفس فى سيكولوجية الجدل، إنك إذا أردت أن تكسب قضيتك فوافق دائمًا، وصرح بأفكارك كأنها مجرد اقتراحات، إن جو السلام لا يستتب فى الأسرة، إلا إذا واجهنا أسباب التحيز بشجاعة،

ومن منا يستطيع ذلك، إن من أشق الأمور أن يعدل الإنسان بينه وبين نفسه لا أن يعدل بين نفسه وبين الناس، ورحم الله أمرأ عرف قدر نفسه، وأقول إن الأصدق "رحم الله أمرأ تبين ميول نفسه وأهواءها!"

وكذلك لن يستتب جو السلام في الأسرة إلا إذا عرفنا أن من أول أسباب التفرق والخصومة أن يهم الإنسان بعداوة من يخالفه فى الرأى أو فى الميول، وما أشد انطباق هذا على اثنين قد يختلفان فى كل لحظة من لحظات النهار!.

أما وقد فرغنا من الكلام عن الأفقين اللذين يكونان الجو العائلى، فنحن نتكلم الآن على نفسية الأفراد الذين يكونون العائلة وقد فرغنا من الكلام على رب الأسرة، والآن نفتح صفحاتنا وصدرنا لعماد الأسرة وقطب رحاها، ألا وهى الزوجة، إذا كان للزوج نصيب كبير من العبء العائلى، فإن الزوجة هى كل شىء.. ومشكلة الزوجة تتلخص فى قضيتين: قضية المرأة بالذات، وقضية المرأة الأم وواجباتها، وتتلخص قضية المرأة بالذات فى أن نفسية المرأة، تلك النفسية التى تختلف اختلافًا جوهريا عن نفسية الرجل، يجب أن تكون دائمًا فى مقدمة فكر الرجل وهو يعامل زوجته، فلقد يكون الزوج مستكملا كل شروط الزوج كما تقتضيه حقوق الزوجة من القيام على البيت والعائلة، وقد يكون موفور الاستقامة كريم الخلق، ومع ذلك فسيدهش الناس يومًا ما حين يقرءون أو يسمعون أن فلانًا الكريم الخلق المثالى السير والسلوك، طلق من السيدة فلانة التى لا تقل عنه كريم طبع ومثالية أخلاق!.

قد يكون كل شىء كاملا عدا شيئًا واحدًا، أن هذا الرجل الكامل كان ينقصه أن يفهم ما هى المرأة، وربما كان خطؤه الجسيم أنه يخاطبها بمنطق الرجل وشتان بين المنطقين، مثال ذلك أن طبيعة المرأة تأبى الجدل والتفصيل والشرح وتريد أن تنتهى إلى حقيقة ملموسة، لأن المرأة عاطفية يهمها أن تنصب العاطفة على شىء محسوس لا على لا شىء، بينما يطيل الرجل اللجاج، وينصرف كلٌ غاضبًا، لأنه يريد أن يقنع المرأة، بما لا يمكن أن تقنع به امرأة، وهو مجرد الكلام!.

نفسيـة المـرأة

نفسية المرأة مكونة من عنصرين عـاطفة وأمومة، وكـل خصائص المرأة تتفرع من هـذين.

والأصح أن نقول إن المرأة عـاطفة أمومة، أى أنها أمومة مصطبغـة بالعاطفـة، أو عاطفة تلونها الأمومة، وعلى ذلك لا تلام المرأة إذا توسمـت فى اختيار زوجها، وقدرته على القيام بحاجات أولادها - قبل حاجاتها - والقدرة على حماية البيت، والقدرة على الإخصاب المستمرة، هذه نزعات دفينة فى كيان كل امرأة، مهما اختلفت مظاهر النساء.

وعلى ذلك فالمرأة تتطلب فى رجلها، خطيبًا أو زوجًا، هذه الصفات بالذات، القوة فى مظهر من مظاهرها، الحماية فى شكل من أشكالها، الوعد الجنسى بأنه قادر على الإنجاب، أما مظاهر القوة فتختلف، فمنها القوة البدنية، ومنها قوة الإرادة، ومنها قوة النفوذ ومنها سعة الحيلة، ومنها احتمال المكارة والصبر على أحداث الحياة، هذه كلها صنوف من القوى تجاذب المرأة اجتذاب المغناطيس.

على أنها قد يغريها جمال الشكل على أنه مظهر قوة من قـوى اليد المبـدعة، ولكنها سرعان ما تبحث وراء هذا الجمال عن مظهر للقوة أكثر دوامًا، وأشد أسرًا.

أما الحماية، فمعناها الأكبر عند المرأة الحماية الاقتصادية، فإن الزواج كان فى مظهره البدائى شركة اقتصادية من طرفين، الطرف الأول وهو الرجل، متنقل مغامر يدأب فى سبيل الرزق حتى يعود به للطرف الثانى الذى ينتظره ويعد له المكان المريح والوساد الهنىء، من هذا يتضح أن هذا الاتفاق الاقتصادى هو بين كافل ومكفول ولم يتغير هذا النظام ولن يتغير؛ فإن المرأة مهما علا مركزها الاجتماعى، ومهما أصابت من صنوف الاستقلال الاقتصادى تفضل أن تكون مكفولة، إذا بدا لها الكافل الجدير بها يومًا ما!.

أما الوعد الجنسى، فهذا - علميا - ما اصطلح الناس على تسميته نداء الجنس؟ لأنه فى صميمه ليس غير وعد بتحقيق مطالب الجنس وأولها النسل وثانيها اللذة.

ولا يصيب من يعكس، إلا فى حالة الشواذ.

على أن من دواعى الأسف، أنه فى كثير من الأحوال الزوجية تنمحى العاطفة وتبقى الأمومة، وفى كثير من الأحوال ينمحى الوعد الجنسى بعد تحقيقه، وفى أحوال أخرى يبطل أثر النداء بمجرد الرد عليه، فيستحيل البيت إلى أمومة ومادة، بمعنى آخر: الأولاد والإنفاق عليهم والقيام بتكاليفهم، أو بعبارة أخرى تستحيل الأسرة إلى هموم اقتصادية بحتة، وتدور الحياة على قطب واحد، وروح بعينها: تدبير المعايش.

قد يخيل للقارئ أنى أتكلم عن أمر عام، ناسيًا أن من العائلات من كفل اليسر رزقها، والمال لم شعثها، ولكنى حتى فى هذه الأسر الغنية، عندما تتبخر العاطفة التى بين الزوجين، ويصير رب البيت كافلا فحسب، والزوجة أما فحسب، تنغمس الأسرة - على رغم يسرها - فى الروتين اليومى الرتيب، فى تلك العجلة الآلية التى محاورها الأولاد.. والتى يدفعها الواجب نحو الأولاد.. النصيحة هنا للزوجة، فهى التى يجب أن تبدو لزوجها من حين لآخر فى مظهر العروس التى كانته قبل أن تكون أم أولاد، ونصيحة للزوج أيضا، وتذكرة:

إن العاطفة الأصيلة التى تربط بين قلبين متحابين متفاهمين لا يمكن أن تموت، إذا لم يقتلها شىء، وإنما هى فى الواقع تنتحر بيدها، تنتحر يأسًا لأن اللذين أوجداها من عدم، قد تركاها للعدم، إن الزوج على توالى الأيام ينسى أن المرأة التى يشاركها الحياة عاطفة محضة، ينسى ذلك فى زحام المشاغل، وتحت ضغط الواجبات، فيحاسب الزوجة حساب رجل لرجل، وهى بطبيعتها العملية، تقبل هذا، لأن المرأة تنظر إلى الحساب العملى الأخير قبل أن تستطلع التفاصيل، تكره الشرح والتعليق وتتساءل عن النهاية.

ولكن الرجل والمرأة عندما يشرعان فى الجدل، يبدأن فى الخلاف، وينتهيان إلى غير شىء؛ لأن الرجل يحب "التقسيط" والمرأة تؤمن بالجملة، ولأن الرجل يحب الجدل والنقاش، والمرأة تريد أن تضع يدها على نهاية، تراها أو تحسها أو تلمسها، مادة حقيقية تفض النزاع، وتريد المرأة بجانب هذا الرهان المادى برهانًا عاطفيا قديمًا كان الزوج يقدمه دائمًا، فأين هو الآن؟

هذه هى نفسية الزوجة المرأة، والزوجة الأم، والزوجة التى تقوم بالحاجات العملية للأسرة ولا تقل فى هذا كفاءة عن الرجل بل تفوقه دائمًا.

إن عدم فهم الفروق النفسية والعقلية بين الجنسين، من جانب الرجل ومن جانب المرأة هو أول أسباب الشقاء فى الأسرة، وقد وصفنا نفسية المرأة فإلى نفسية الرجل فى المنزل.

(١) الرجل فى منزله طفل كبير.

(٢) الرجل فى منزله يغضب من السفاسف التى لا يعبأ بها فى الخارج.

(٣) الرجل فى منزله يغار غيرة دفينة من انصراف "ماما" بكليتها إلى الأولاد، وينتظر منها أن تعطف على هذا "الرجل الطفل".

(٤) الرجل فى المنزل كما فى الحياة - ينتظر قليلا من الرياء ليرضى غروره الفطرى.

(٥) إن هذا الغرور هو على أشده فى دائرة المنزل، لأن الإنسان مهما صغر مركزه، يعتبر *الأسرة، الدائرة الوحيدة فى الحياة التى يكون فيها سلطانه* مشروعًا، ونفوذه قابلا للتبرير والبرهان، على ذلك أن رب الأسرة المدمن السكير الذى لا قيمة له بتاتًا فى المجتمع يقتضى أولاده ثمن التربية، فإن لم يقتض ذلك مالا اقتضاه طاعة وإذعانا..

ولما كانت حالة السعادة، إنما هى تحقيق رغبة، وحالة الشقاء وجود ثغرة فى مكان تلك الرغبة، يتضح جيدًا أن السعادة فى الأسرة تتلخص فى أن كلا من أفراد الأسرة يتنازل عن أنانيته قليلا، لينظر إلى حاجات الآخرين.

كم منها يمكن أن يسد، وكم من مطالبهم يمكن أن يجيب، على قدر طاقته، إنه حل بسيط جدا، بل هو مسألة حسابية بحته، نزعات - خاطئة أو غير خاطئة، جليلة أم حقيرة - عددها كذا توزع على كذا من الأفراد! ولا تنصب على شخص بعينه، ماذا نسمى هذا؟ اشتراكية عاطفية؟ لتكن هذه التسمية إننا إذن فى سبيل البحث عن سعادة الأسرة، من الجهة النفسية تتطلب شيئًا واحداً نريد أن نكرره ونكرره دائمًا، التجرد من الأنانية ولكن واأسفاه لن نتعلم ذلك كباراً، إننا نلقنه فى الأسرة ذاتها، حين تقول الأم لطفلها ساعد أخاك الأصغر، ولصبيها ساعد رفيقك فى اللعب أو الدرس، وحين يتطلع الأطفال أنفسهم فيجدون أباهم على كثرة مشاغله ينصرف إلى العناية بمطالب الأم والاستماع إليها والأم على كثرة مشاغلها، تتزين للزوج وتستعد للزوج وتنتظره، وقد جهزت ما يحبه "الرجل الطفل".

على أنه من الثابت الذى لا جدال فيه أن الأعباء إذا كثرت والهموم إذا تعددت والأولاد إذا زادوا عن الحاجة، فلا محيص من دخول الفقر من الباب، وإذا دخل الفقر انفض كل حديث وصمت كل حوار.

لا حب مع الفقر، ولا هناء مع الفقر، ولا تفاهم فى ظل الفقر ومن يرينى عائلة كثيرة الأفراد، مرهقة بالفقر والحاجة، ومع ذلك عليها شبح سعادة، فإنه سيرينى معجزة، وربة البيت التى تستطيع أن تنشر ظلال ابتسام فى هذا الجحيم، هى امرأة تستحق تمثالا فى الجنة.

إن آفة العائلات كثرة الأولاد، فليس من الصواب بأية حال - فى عصرنا الحاضر - زيادة النسل أكثر من الواجب. وليس من الحياء أن يتعلم الزوجان كيفية منع الحمل.

* * *

منع الحمل ما له وما عليه

لقد تغيرت نظرة العالم اليوم لهذا الموضوع تغيراً تاما، لقد صار من الواضح أنه لا يمكن إطلاق النسل على علاته، إن الحروب قد ذهبت بأحسن ما فى البشر من شباب، ومضت بالأيدى العاملة القوية، واستبقت المشوهين والعجزة والضعاف، ولذلك صارت عيادات "ضبط الحمل" علنية فى البلاد المتمدينة، فى أوروبا وأمريكا وروسيا، وهى على أكمل نظام فى روسيا، التى تمادت فى ذلك فأعدت متاحف، يتلقى فيها الأمهات والآباء دروساً عن كيفية منع الحمل، أو على الأقل ضبطه.

قد يقول قائل إن الدين ينهى عن هذا، كما ينهى عن الإجهاض، ولقد سألنا كثيراً من علماء الدين لدينا، فأطلعونا على أسانيد خطيرة لكثير من العلماء يقولون فيها قطعيا بجواز منع الحمل عندما يكون هناك دواع من المرض وكثرة الأولاد، على أن فقهاء العرب كانوا يشيرون إلى الطريقة الوحيدة التى يعرفونها وهى "العزل" أى اللقاء المتقطع، أى عدم دفع السائل داخل المهبل.

الضرر على الصحة العامة

هناك نوعان من الضرر عام وموضعى، أما العام فأكثره اضطرابات عصبية ومنشؤها أمر من اثنين، إما خوف واضطرابات عصبية هسترية مختلفة بسبب الطرق المتبعة وإما تعذر إيجاد النسل بعد مدة طويلة من المنع، إذ يكون دور الإخصاب قد فات، فإنه يقل عند المرأة حتما بعد الخامسة والثلاثين.

ويسمى أطباء علم الولادة، البكر التى تتزوج متأخرة "حالة صلبة" لأنها متعبة فى الحمل ومتعبة فى الولادة.

أما الضرر الموضعى فلا جدال فيه، وأشد ضرر يصيب المرأة هو باستعمال الغسيل الدائم، فإنه فضلا عن قلة ضمانه كواق نجده يغسل الإفرازات الطبيعية السليمة ويطردها، أما الكينين فمما لا شك فيه أنه يسبب احتقانات موضعية والتهابات

رحمية وخاصة عند الاستمرار فى استعماله، أما الحواجز الواقية (النسوية) فمما لا جدال فيه أنها تسبب - مهما غلا معدنها - احتقانات والتهابات مختلفة.

لا يبقى صحيا وسليماً غير الكبوت الذكر وخاصة إذا أضيف إليه مرهم أو غسيل بسيط لا يضر بالمهبل.

صحة الحامل

كان كاتب هذه السطور طبيبًا لعيادة أطفال السكة الحديد منذ عشر سنوات، فكان من عادته أن لا يلقى بالا إلى المرض بالذات فى الأطفال والحوامل، إذ كان يعتقد أن حول هذا المرض عوامل كثيرة من الجهل والفقر، وكان يتساءل ماذا ينفع الدواء لطفل مريض، إذا كان الثدى فى فمه ليلا ونهاراً، وماذا ينفع لبن الأم والأم فقيرة لا تكاد تجد طعامها.

وكان مقتنعًا برأى المرحوم الأستاذ الشهير الدكتور كابوت أستاذ الأمراض بجامعة هارفارد، الذى أنشأ عيادة اجتماعية، بجانب كل عيادة باطنية أو جراحية مؤمنًا بأن علاج الحالة الاجتماعية للأسرة يجب أن يمشى جنبًا مع العلاج الطبى، ولا شك أن الحالة الاجتماعية يقصد بها التعليم والمادة، أو بعبارتنا نحن معالجة الجهل والفقر.

هذا ما كنت أقوم به بصفة خاصة فى عيادة الأطفال، كنت ألقن الأم الدرس، فإذا عادت أستعيدها إياه قبل أن أكتب لها الدواء، وكنت أطبع هذه التعليمات وأوزعها على اللواتى يعرفن القراءة، وكنت أقول للحوامل إن وقايتهن وسلامة صحتهن أثناء الحمل، تضمن طفلا قويا وسليمًا، فلا يتحتم عليها بعد الولادة إلا أن يستمر هذا الطفل صحيحًا سليمًا، وفرق بين معالجة طفل يولد مريضًا عليلا، وبين آخر، علينا - باتباع بضع نصائح صغيرة - أن نحفظ عليه صحته، هذه النصائح التى كنت أعطيها للحامل تشمل سبعة أمور: الرياضة، المجهود الشاق، السفر مسافات طويلة، هل يمكنها أن تخيط على الماكينة، هل يمكن الاستحمام فى المصيف؟ ما ملابس الحامل؟ الراحة الفكرية للحامل ومأكلها ومشربها. هل تعرض نفسها على طبيب بين وقت وآخر؟

فللإجابة على هذه الأسئلة نقول إن الرياضة المعتدلة ضرورية جدا للحامل، والأم النشيطة الحركة تكون ولادتها أسهل من الكسولة الخاملة، وأفضل الرياضة المشى فى الهواء الطلق على شرط أن لا تتعدى حدود طاقتها، أى تمشى حتى تتعب وتلهث، وعلى شرط أن يكون المشى سارا مرحًا لا مجرد تأدية واجب، ولا نوافق على المجهود الشاق بتاتًا، كالغسيل، ومسح الزجاج، وما إلى ذلك، أما عن السفر، فإن ركوب القطار أفضل من ركوب السيارة، وإذا اضطرت للسفر بالسيارة ففى الشهور الأولى فقط على شرط أن لا تطول الرحلة وعلى شرط أن تستريح السيارة فى الطريق عدة مرات ومن الواضح أنه لا يجوز سفر الحامل فى طريق متعرج وغير معبد.

أما عن ماكينات الخياطة، فالأفضل تجنبها مدة الحمل، وإذا كانت الحامل مضطرة لكسب عيشها عن هذا الطريق فالأفضل أن تتجنب الماكينة التى تدار بالرجل.

أما عن الاستحمام، فأمران يجب أن ننبه إليهما، تجنب النزول إلى البحر فى الستة شهور الأخيرة، وبالطبع لا يجب على الحامل فى الشهور الأولى أن تطيل مكثها فى الماء، ولا يجب أن تقوم بمجهود شاق فى سباحة أو نحوها، أما عن ملابس الحامل فإليك شروطها:

(١) تكون خفيفة غير ضاغطة.

(٢) تكون أميل إلى "الغامق" لأن هذا يساعد على إخفاء معالم الحمل.

(٣) يكون الحذاء واسعًا ومريحًا وبدون كعب عال.

(٤) لا يجب بتاتًا لبس المشد (الكورسيه).

راحة الفكر

لا أنسى مطلقًا ما حدث ذات يوم بعيادتى، وما يكفى أن أقصه لتعليم السيدة الفاضلة التى تطالع هذه السطور مدى تأثير انزعاج الفكر فى صحة الحامل والوالدة، والقصة التى حدثت أمامى حدثت لوالدة وليكن الفرق بين الوالدة والحامل أن الأولى تحمل طفلا على ركبتيها أم الثانية فتحمله فى داخلها، فالفرق فرق زمان ومكان فقط، القصة أن إحدى جاراتى فى العمارة، جاءت تستشيرنى فى أمر طفلها، طفلها يبكى باستمرار، يصرخ بلا توقف، وقد فحصته عند أطباء كثيرين من أخصائى أمراض الأطفال فلم يجدوا به مرضًا قلت "لعل الجو العائلى يا سيدتى غير صالح" أقصد بذلك الصفاء اللازم فى محيط الأسرة.

قالت "نعم إنى مختلفة مع أبيه، وأقوم بكل تكاليف الحياة وحيدة، ولا يساعدنى إلا أبى الفقير، على جهد طاقته".. ثم سكتت وتندت عيناها بالدمع وكانت تقول ذلك ووليدها فى حجرها، كان ساكتًا هادئًا فأخذ يصيح فجأة كأنما جلده شيطان، قرع باب الغرفة بشدة، وإذا بأحد أقرباء السيدة يحمل إليها تلغرافًا فما قرأته حتى صاحت مرتاعة "مات أبى مات أبى" فأخذت أهدئ روعها حتى سكتت قليلا، بينما كان الطفل عبارة عن جحيم ثائر، فناولته الثدى بين دموعها وتأوهاتها لعله يسكن، فسكن الطفل فجأة سكونًا غير عادى، وشعرت هى بأن هذا السكون غير عادى فقلبته يمينًا وشمالا فإذا به لا حركة فيه فصاحت مرتاعة وقالت ابنى، قمت لفحصه فوجدته قد مات، مات بمجرد الرضاعة من لبن هذه المرأة التى استحالت كل إفرازات جسمها ودمها سما مريراً بتأثير المصائب والحزن.

هذه قصة غريبة ولكنها تفسر لنا مدى ما يفعل الحزن بالدم، ولماذا تذهب بعيداً فكم من حامل أجهضت لمجرد خصام بينها وبين زوجها بدون أن يحدث اعتداء، أو بمجرد نزاع بينها وبين حماتها أو بمجرد وصول خبر سيئ.

المحافظة على الثديين

(١) يجب أن تلبس الحامل رافعاً لثدييها.

(٢) تدلك الحلمة بزيت الزيتون مرة واحدة فى اليوم وتتجنب التدليك بالكحول أو الكلونيا.

(٣) أثناء التدليك تشد الحلمة قليلا إلى الأمام حتى تبرز بالتدريج.

المـأكل والمشرب

(١) يجب أن يكون المأكل والمشرب مصحوبين بالمرح والسرور والبهجة.

(٢) تجنب الحامل المسمنات على أية صورة.

(٣) تكثر الحامل من أكل الفواكه والخضر.

ضرورة العرض على طبيب من حين لآخر:

صار هذا الأمر، اليوم من أوجب الواجبات، ومما يسرنا أن نساء الطبقة الفقيرة عندنا أصبحن يذهبن بانتظام، لرعاية الطفل، إلى مستشفيات الولادة لتحليل البول وتحليل الدم، والتأكد من وضع الجنين، وقياس الحوض، وضغط الدم، إن القول بأن الوقاية خير من العلاج صادق أتم الصدق فى هذا الصدد، وكم من أخطار عظيمة تستطيع درءها الحامل، إذا استشارت طبيبها بانتظام أثناء الحمل.

إلى هنا ينتهى دور المرأة، ويأتى دور العزيز الذى نحتفل به هذا الاحتفال ونتأهب له كل هذا التأهب، دور الطفل المنتظر الذى هو أمل الأسرة وهدفها المرموق.

سنتحدث الآن عن الطفل فى المراحل الآتية:

(١) التربية النفسية للطفل.

(٢) أثر الخوف فى الأطفال.

(٣) التغذية الطبيعية للطفل.

(٤) التغذية الصناعية.

تربية الطفل

لقد تقدمت دراسة "نفسية الطفل" تقدمًا باهرًا فى السنوات الأخيرة واختص بها علماء كرسوا أنفسهم لها، وعاشوا بين الأطفال يدونون الملاحظات ويجرون التجارب.

ولقد عنى العلماء بشكل خاص بدراسة منطق الطفل وكيفية الترقى العقلى والوجدانى عنده، ومركزه بالنسبة لوالديه، وبالنسبة للمربى، وأخيرًا المسألة الجنسية، وتوخوا فى هذه الدراسات أن تكون عملية، وأن تساعد على تكوين شخصية قوية سليمة.

منطق الطفل

يجب أن تفهم أن منطق الطفل يختلف عن منطق الكبار، إن كثيرًا من الناس لا يفهمون هذه الحقيقة، ويقيسون منطق الأطفال بمنطقهم، فيخطئون أشد الخطأ فى تربيتهم.

إن الطفل قبل السنة الثانية ذاتى المركز، أى أنه لا ينظر إلى الأشياء إلا بنظرة شخصية، ولا ينظر لباطن نفسه، بل للعالم الخارجي، يريد أن يعرف كل شىء، ويفحص كل شىء، ولكنه لا يربط الأشياء ببعضها، وليست لديه نسب، ولا يستخلص أية نتائج، ولذلك يخلط بين حروف السبب والاستثناء، (لكن ولأن)، على أنه بعد الثانية يصل إلى دور الترقى الاجتماعى؛ فتأخذ الروابط والنسب عنده مكانها وتنمو بالتدريج.

وقد تكلم أحد العلماء عن (فلسفة الطفل) ووجد فيها شبهًا من فلسفة الإنسان الأول، فإنه يخلع ما بداخل نفسه على العالم الخارجي.

وهو كذلك يخلع على الكائنات الجامدة ثوب الحياة، ومن ذلك تجىء بعض أوصافه غريبة على الذى لا يعرف هاته الحقيقة. يتكلم عن الأشجار وعن الأثاث كأنها مخلوقات حية وقد نندهش لأقواله ونعدها طريفة ونتنقلها لأهلنا وذوينا كأشياء مسلية أو نعدها

دليلا على ذكائه وبعد خياله، ومن فلسفة الطفل أيضًا أنه دائب السؤال والبحث عن أصول الأشياء وأسرار الميلاد، ولعل حب الطفل للحيوان ناشئ من تلك الفلسفة النظرية، ولعل فى ذلك سر حب الأطفال للنبات، أى أن الطفل يرغب فى استطلاع ما خفى من أعضاء الحيوان وهو بالفطرة يحب أن يعرف كيف تنمو الشجرة وكيف تستقى وتتفرع وتثمر.

بقى أن نذكر نقطتين هامتين عن نفسية الطفل:

الأولى: بناء على أن الطفل غير منطقى فى تفكيره يكثر التناقض عنده فحذار من اعتبار هذا التناقض كذبًا أو صفة ممقوته؛ فإنه طبيعى فيه.

الثانية: لقد أجرى سريل برت العالم المشهور تجارب فى هذا الباب استنتج منها أن البنات يفقن الأولاد فى الصبر على التفصيلات والأولاد يفوقونهن فى صحة الحكم والسلامة من التأثر بالإيحاء.

الترقى العقلى عند الأطفال

إن السؤال الذى نسمعه دائمًا هو، هل للطفل عقل؟ هل له عقل بمعنى هاته الكلمة فى الكبار؟ وإذا لم يكن الدافع لأعماله "عقل" فكيف يتكون؟ أو بعبارة أخرى: ما العوامل التى تسيطر على الطفل وتكون باعثًا لما يقوم به من أمور؟.

فإذا نظرنا إلى الحقيقة وجدنا قوة حيوية جديدة مكتومة تتحين الفرص للظهور والانطلاق، وهذا يفسر لنا ما نراه من حركة الطفل الدائمة، ولعبه وركضه وقفزه وضحكه وصياحه، والمسيطر على هاته الحركات جهاز عصبى حساس جدا، وبخاصة الأعصاب الحسية؛ فالإشارات العصبية تنتقل بسرعة وبغير توقف، والسبب فى ذلك شيئان، الأول: أن الطفل تحت تأثير الغرائز، وهذه الدوافع الغريزية متصلة بقوة الحياة، والثانى أن الطفل لا يفرق بين مجرد الفكر وتنفيذه، فالأفكار عند الطفل هى قوى محركة، ناشئة عن اختيار ضئيل لا عن دراية أو تعليل، فالطفل مكتشف صغير يخرج للعالم وليس له غير

حواسه الخمس من معلم، وجهازه العصبى حساس قابل للتأثر، ما أفكاره غير قوى محركة تدفعه للعمل، وتكرار العمل يكون العادة، ومن مجموع العادات يتكون السلوك، فإذا فهم الوالدان أو المربى هذه الحقائق النفسية، أمكن استغلالها فى التربية على الوجه الصالح وبعبارة أخرى، تستغل يقظة الحواس وحساسية الجهاز العصبى فى تكوين شخصية الطفل وأخلاقه.

أخيراً نتكلم عن الترقى الوجدانى، وما يتصل بذلك: كالانفعال والخيال والتصوير ويستلزم ذلك أن نقسم مراحل الطفولة إلى ثلاثة أدوار:

الأول: من الولادة إلى دخوله المدرسة.

الثانى: من بدء دخوله المدرسة إلى التاسعة.

الثالث: من التاسعة إلى البلوغ.

الدور الأول. الطفل فى هذا الدور يحيا فى عالم يرى نفسه فيه نقطة دائرتها هو، لا تحكمه عوامل الشفقة أو الحنان أو محبة الغير: (أنا) و (لى) هما أهم الكلمات فى قاموسه الصغير، فليس علينا أن نعتبر هذه الصفات أنانية فيه بل تلك هى فيه شىء طبيعى.

وفى هذه الحقبة من العمر تكون صفة اللعب أبرز صفات الطفل وهى وسيلة الطبيعة التى تعلم بها الأطفال كيف يتعلمون فى المستقبل.

وكذلك تكون غريزة التقليد يقظة أتم يقظة وكذلك يكون الخيال نشطاً، ولكنه خيال حى، عالم مملوء بالصور، وهو يُلبس الوهم ثياب الحقيقة، ولكنها صور ليست مبنية على العقل ولا على المنطق، أوبعبارة أخرى إن الطفل فى هذا الدور لا يفرق بين الحقيقة والخيال.

الدور الثانى: هذا الدور امتداد للأول مع اختلافات ناشئة من أن الطفل قد أخذ يتكون فيه شعور اجتماعى، وذلك بوجوده بين رفاقه، فأخذ شعور "الغيرة" عنده يستيقظ.

ولكنه لا يزال يتكلم بالمقارنة، ويفهم لا عن طريق الحواس بل المشابهة.

ولا تزال قوة الخيال على أكملها: وعلى ذلك يحب الطفل فى هذا الدور القصص الخياليةولكنه يريد قصصاً منسقة، ويأخذ فى التمييز بين الحقيقة والخيال ويتساءل دائمًا هل هذا حقيقى؟ ويأخذ فى ربط السبب بالمسبب، ولكنه لا يزال غير قادر على إدراك طبيعة الأعمال من خير وشر، دائماً هو يقيسها بحب تجربته، ويحب تجربته، فإذا فهمنا مميزات هذا الدور أمكننا أن نستفيد منه فى تكوين شخصية الطفل متوخين فى ذلك الصراحة التامة معه والإرشاد الصالح، حتى يكون المربى ملجأ التلميذ فى ذلك البحر المضطرب المكون من أشياء جديدة عليه..

الدور الثالث: بين التاسعة والثالثة عشرة

يتميز ذلك بظهور الغرائز الاجتماعية، وهى ناشئة من اندماج الطفل فى جماعات مختلفة، وهنا يبدأ عنده معنى احترام الرأى العام ويأخذ برأى الكبار الناضجين ويقلدهم، ويتفهم معنى الشرف والأمانة والمحافظة على الوعود، ويأخذه ولع بالقراءة فهذا العهد من حياة الطفل أخطر العهود، فيجب اختيار الوسط الصالح لتكون له به أمثلة عليا، ويجب أن ننقى الكتب التى تثير فيه روح التضحية والشرف والبطولة.

نتكلم الآن عن جو الأسرة وأثره فى تكييف بواعث الطفل.

إن الآباء هم الذين يحددون مستقبل الطفل، وكذلك يحددون الباعث الجنسى فالروابط العائلية لها أثر هام فى نفسية الطفل، فإن الطفل الذى ينشا فى جو هادئ، غير الطفل الذى ينشا فى جو مضطرب ملىء بالشجار والمشاحنات، ومن هنا يتجلى أثر القدرة فى حياة الطفل، ويتجلى أثر معاملة الوالدين، وكيفية اهتمامهما بالطفل، والعناية بكل كبيرة وصغيرة يلاحظانها، على أن مجرد الاهتمام والعناية بغير فهم وإدراك للحقائق لا يؤديان الغاية المطلوبة؛ فليفهم الآباء أن أهم ما فى حياة الطفل شيئان هما: الحب واللعب، أى الدافعان – الدافع الجنسى والدافع الحيوى – أما من جهة الدافع الأول، فإن الطفل محتاج للحب والحنان وبغيرهما ينشأ قاسيًا جاف الطبع ناقمًا على المجتمع.

غيـر أن من المسلـم به أن الولد يـحب أمـه والبنت تحب أباهـا ولكنه من الخطأ أن نشجع الإغراق فى ذلك الحب، فإن تركيزه على الأب أو الأم يؤثر على الميول الجنسية فيما بـعد، وكذلك يغير الشعور الاجتماعي، ولابد أن نذكر أن الطفل ككل مخلوق آخر، منقـاد لعاملى اللذة والألم، وفى بعض أعضـاء جسـمه مصـدر لذة له، ومن هنا تنشأ المشكلة الجنسـية، فإذا عاملنا الطفل بالردع والعنف أدى ذلك إلى اضطرابات نفسـية خطيرة، وإننا لا نستطيع أن نقتل الغزيرة الجنسية بل الصواب أنه يجب توجيهها بشىء من الحرية المتزنة والإرشاد المعقول، فحذار من معاملة الميول الجنسية بالقمع، وحذار من إطلاق العنان لها، ولنكن وسطاً بين هذا وذاك.

هذا فيما يختص بدافع الحب أو غـريزة الحياة، أما دافع غـريزة حفـظ النفس أو غريزة إثبات الذات أو غريزة البقاء فكيف نتصرف إزاءها؟.

إن الأطفال الذين يوكل إلينا تربيتهم ثلاثة أنوا ع - الأول طفل مدلل والثاني مدلل ثم أهمل والثالث طفل متروك فالأول هو أسوا أنوا ع الأطفال، إذ إنه عند ما يشب يطلب من المجتمع ما لقيه من ذويه أى أن يدلله ويجيب كل مطالبه، ثم أنه شخص تعود أن يتكل على أبيه وأمه فمهما كبر سيظل (طفلا كبيراً) قليل الثقة بنفسه، مطلق الاعتماد على غيره، وعندما يصدمه المجتمع ينقلب أفاقاً من الطراز الراقى الذى نصادفه كثيراً فى مجتمعاتنا.

أما الطفل الذى من النـوع الثـانى أى الذى كان مدلـلا ثم أهمل فهذا تختبئ فى نفسـه فكرة ثائرة حانقة تلازمه طول حياته، فيشب رجلا حاقداً على النابغين والبارزين فى المجتمع ويحاول هدمهم على مراكزهم بأية الوسائل.

أما الطفل الذى من النوع الثالث أى المتروك فمنه من ترك فتعود أن يعتمد على نفسه ومنه من ترك وأسيء إليه معاً فينشأ حاقداً وعدوا للمجتمع.

فماذا نصنع إذن؟ إن الغـرض من التربية الصحيحـة أربعـة أشـياء. الأول - أن لا نحاول قتل غريزة إثبات الذات بل نكبحها كبحاً معقولا.

الثـانى – أن لا نسـرف فى تدليل طفلنـا بل نعـوده الصـبـر على شىء من الخشونة والمكاره.

الثالث – أن نعدل بين أطفالنا، لكى لا يطعنوا فى كبريائهم ويبقى أثر الظلم فى نفوسهم كجرح عميق.

الرابع – أن نرفع ونهذب ونطلق العنان لغزيرة (إرادة المجتمع) لأن الطفل الذى يحب رفاقه، وعنده نحوهم شعور المساواة والمودة والعطف وحب المساعدة، هو صورة مصغرة للرجل المرجو للمستقبل.

تم فى ١٠ يونيو عام ١٩٤٧

(٨)

بـــودلـــير
وقـصـائد مـن ديـوانـه(*)
أزهـــار الـشـــر

(*) صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب عام ١٩٥٤.

"سأظل دائمًا، وربما إلى الأبد كذئب وقع فى كمين، أثب إلى قمة المثل العليا..."

بودلير

الإهـــداء

إليك أيها الأخ الحبيب

أما هذا الكتاب الذى نقدمه للقارئ العزيز، أما هذا الكتاب، أيها الأخ الحبيب، فهو منك وإليك، من قلبك الحى، من روحك الفياض.. يعيش بعدك، وقد اتصل بالخلود وعاصر الأزل، أهديه إليك ردا على كتاب أهديته إلىَّ، أهديتنى كتابك "كيف تفهم الناس"، وأهديك اليوم كتابك عن "بودلير"، وهو الكتاب الأول من خمسة كتب، تحدثنا - وأنت معنا - فى طبعها ونشرها، وكان حديثك كثيراً عن بودلير، وكنت أرى أن تتقدم إلى القراء بكتابك الثانى "قراءات أحببتها"، أو بكتابك الثالث الذى يخلد لأول مرة بالعربية "أغانى شكسبير" وأعرف مدى اتصالك (بأغانيه)، وكيف أنها شفتك مرة من داء وبيل، وكان لى رأى آخر أن تتبع الدقة أختها، فتطلع على الناس بالجزء الثانى من "رسالة الحياة"، ذلك الكتاب الجديد من نوعه، لكنى أذعن اليوم لإرادتك، فنبدأ بنشر هذا الكتاب أولا.

ولست أريد أن أتعدى حدود الإهداء، وأترك حقول النقد وأحاديثها لزراعها، أمثال صديقى وصديقك مصطفى السحرتى.. إنما أريد أن أسجل هنا أنك بادئ مبتكر، تبدأ الطريق فيتبعه الناس، وأنك كنت أكرم حامل للواء التحرير الفكرى والأدبى، رفعته فى ديوانك الأول "وراء الغمام" فبدأ الشعراء الشباب تجديد الأدب، ورفعته فى حديثك عن علم النفس فى كتابك "كيف تفهم الناس" فتحدث الناس عن علم النفس فى الأدب، وترفعه اليوم فى "بودلير"، فلست تقف فى دراسة الشاعر كما وقف الأقدمون عند: جزالة اللفظ، وفخامة الأسلوب ولا عند المعانى وطلاوتها وجدتها، ولا عند الشخصية وأثرها فى الأدب، بل جعلت من هذا كله كلاماً واحداً يتصل أواصر بأواصره، ومسبباته بأسبابه،

وبحثه بعمليته، فجعلت من بودلير وشعره وحدة موحدة، ومزجت فيها الشاعر بالشخص ودرسته درساً عميقاً، خرجت من داخله إلى خارج، ومن نفسيته إلى إنتاجه فشققت طريقاً جديداً في النقد والبحث، نقد الشعراء على أساس جديد من التحليل النفسي؛ رأى جديد رأيته وفكر جديد مهدته.

ولست أريد أن أتحدث عن بودلير، الشاعر الرمزى العظيم، الذى رسمته لنا فى هذا الكتاب، لكنى أؤكد لك إننى خرجت منه بصورة جديدة فذة، عن هذا الشاعر الذى مزج النغم الموسيقى فى الكلام بنفس جياشة تتأرجح بين الرجاء والخيبة والإيمان والكفر بصورة قد تجدها إذا مررت بباريس حية تخاطبك واعية تحدثك.. وقد بدأت أرى الشعر والشاعر من زاوية جديدة مغرية حية نابضة مثيرة.. أؤكد لك أننى بدأت أفهم: لماذا بدأ الناس يتحدثون عن "بودلير" اليوم، كما لم يتحدث به أحد مثلك، يستعيدون ذكراه فى هذا العهد الحديث، عهد القلق الذرى، والتأرجح الكونى.

وبعد أيها الأخ الحبيب فهذا ظلك الذى تحدثت عنه فى قصيدة الوداع وقلت: "وعدونا فسبقنا ظلنا".

وأود مخلصاً أن يتقبله القراء، وأن ينعموا به..."

القاهرة فى أول سبتمبر ١٩٥٤...

محمد ناجى

رئيس رابطة الأدب الحديث

تحليـــل ودراســـة

للناقد الكبير

مصطفى عبد اللطيف السحرتى

- ١ -

يطيب لنا أن نقدم إلى قراء العربية هذا البحث السيكولوجى القيم عن الشاعر الفرنسى الأصيل - شارل بودلير - الذى دبجه صديقنا الشاعر الموهوب إبراهيم ناجى - قبل وفاته، ولم يتح له القدر القاسى مراجعته قبل أن يشهد النور.

ولقد رأت رابطة الأدب الحديث نشره وإذاعته على رجال الفكر والثقافة، لما جمع من فكرات سيكولوجية نيرة عن شخصية بودلير، وترجمات صادقة لكثير من قصائد ديوانه الشهير "أزهار الشر".

والحديث عن فن هذا الشاعر وحياته قد شغل كثيراً من الكتاب والنقاد فى جيله، ولا يزال يتجدد على ولاء الأجيال، لما تميز به فنه من نباغة وإخلاص وأصالة وعمق. وما تفردت به شخصيته من تعقد وغرابة، وما تلونت به آراؤه وفلسفته من جرأة ومخالفة لأبناء عصره.

وقد يختلف كثير من الكتاب اختلافاً بعيداً فى النظر إلى موضوعاته الشعرية، ويتناقضون أشد التناقض فى تعرف شخصيته، وفهم آرائه واتجاهاته، ولكن هذا الاختلاف يمتنع فى تقدير فئة النابغ، وتفكيره المتعمق، واستقلاله الأدبى، وإنسانيته العاطفة على صرعى الحياة من أية طبقة أو لون.

والبحث الذى نقدم له، قائم على شقين: الشق الأول دائر حول شخصية بودلير على ضوء علم النفس الحديث، والشق الثانى، ترجمة عديد من قصائده لإلقاء النور على هذه الشخصية.. ودراسة الشخصية الشاعرة، ومحاولة فهمها وتحليل مكوناتها، غنم فى ذاته كما يقول الناقد الفرنسى الكبير – سانت بيف. كما أنها واجبة فى العصر الحديث لدعم الأدب واغتنائه. ومثل هذه الدراسة جديرة بحفاوة أدباء العربية، والتمعن فيها، وبخاصة إذا تناولها أديب مثل الدكتــور ناجى، الذى تخصص في السيكــولوجى، وأنفق عمره فى سبر أغوار النفس.

- ٢ -

والملحوظ من تلاوة هذا البحث، أن مؤلفه سجل آراءه عن شخصية بودلير، على افتراض معرفة القارئ لحياة بودلير وإلمامه بها، وعلى افتراض درايته بالمصطلحات السيكولوجية الذائعة بين الجمهور المثقف، ولهذا رأيناه يصدر أحكامه دون مقدمات من حياة الشاعر، ودون بيان لمراحل هذه الحياة، وكأنما يكتب للفاقهين الدارسين.

وإزاء هذا نرى لزامًا علينا أن نضع تخطيطًا لمراحل حياة بودلير، لإمكان النظر فى آراء المؤلف، وأول مرحلة هى مرحلة الطفولة، وهى أهم مرحلة سيكولوجية فى حياته، وفيها لقى أما شابة مليحة، وأبًا شيخًا محبا للفنون، كانت الأم "كارولين" مشغوفة بحبه، وتغار عليه حتى من مربيته "ماريبت".. وكان الغلام يبادلها حبا بحب، ويهيم بعطرها وأناقتها، وكان الأب "فراسوا" بمثابة الجد يجول به فى الحدائق، وبخاصة حديقة لكسمبورج العامرة بالتماثيل، وينبهه فى جولاته إلى جمال المعمار والنحت.. ومن المقطوع به – كما نرى – عند ستاركى – فى كتاب "بودلير" – أن حب شارل لأمه كان غير طبيعى.. ومما تجدر الإشارة إليه أن شارل – كما يقول فراسوا بورشيه فى كتابه "حياة بودلير الحزينة" – امتلأ سخطًا على أبيه، عندما وقعت عيناه على أخ لأبيه كان يدعو كارولين أمه!

وتبدأ المرحلة الثانية وهى مرحلة الصبا، بموت أبيه وهو فى سن السادسة، وزواج أمه بالقومندان - أوبيك - وقد كان هذا الزواج سهمًا مسمومًا مصوبًا لقلبه الفتى، ملأه غيرة وحقداً عليه، ونقمة على أمه.

ويرى بورشيه، أن الغلام اعتبر هذه الفعلة خيانة، وفى رأى ستاركى أنه من المحتمل أن الغلام شعر بالغيرة عندما وجد غريبًا يشترك معه فى حبه، وأنه ليس فى هذا شىء غير عادى.. وفى المرحلة الثالثة، ذهب شارل إلى مدرسة داخلية بليون، ولكنه نفر منها ومن نظامها الشبيه بالنظام العسكرى، ولم يكن فيها سوى الخلق، وترك دروسه، واهتم بالشعر وبقراءة الكتب المحرمة فى ذلك الوقت: "الرغبة الجامحة" لسانت بيف وغيرها من روايات العشق وانتهى أمره بالفصل لسبب غير معروف، وقد كان هذا الفصل - كما نرى عند ستاركى - مفاجأة له وصدمة عظيمة وكان لها نتائج خطيرة على جهاز بودلير العصبى فى هذه المرحلة الدقيقة من حياته.

وتنتهى هذه المرحلة بنيله البكالوريا، وذهابه بعد ذلك للاستجمام فى باريس، حيث قضى فترة فى الحى اللاتينى، وعاش عيشة تحذلق وغندرة، وفسوق، وأصيب بالداء الخبيث، ولما عاد اقترح مجلس الأسرة أن يذهب فى رحلة إلى الشرق، فاستقل الباخرة، ونزل بجزيرة موريس بالمحيط الهندى، وضاق ذرعًا بالرحلة، وألح فى العودة إلى باريس، وعاد بعد أن غنم من هذه الأجواء إلهامات، وصوراً رائعة، كانت ركيزة لصوره الشعرية الأصيلة.

وبعد أن بلغ بودلير سن الرشد، استولى على ميراثه، وفارق أسرته خفية، حيث ذهب إلى باريس ونزل فى فندق جميل على نهر السين، وهنا تبدأ مرحلة الشباب، وفى شطرها الأول عاش عيشة تبذل وأنفقها فى متعات حسية إذ أحب السمراء جان دوفال، حبا جنسيا، وأضاع نصف ماله عليها.. وقضى الشطر الثانى فى تصوف وحب برئ، فأحب الآنسة مارى دوبرين حبا عذريا، واستلهم مدام سباتييه كثيراً فى شعره العفيف، وفى هذه المرحلة توزعت نفسه بين الشر والخير، والشهوة والصوفية، وتجلى ازدواج شخصيته، وانعكس هذا الازدواج على شعره.

وفى نهاية هذه المرحلة ديوانه الخالد "أزهار الشر" عام ١٨٥٧، فأحدث ضجة وهزة فى البيئة الأدبية، وصودرت بعض قصائده ومن بينها "النساء اللعينات"، وقد رفع هذا الديوان ذكره، وأذاع اسمه وكشف فيه النقاب عن نفسه الموزعة بين حب الفضيلة والميل غير المرغوب فى الرذيلة، وبين الحب الجنسى والحب العذرى، وبين اللذة والألم، اللذة التى لا غناء من ورائها والألم الذى لا غنى عنه فى إخصاب العبقرية وازدهارها كما يقول.

وفى المرحلة الأخيرة من حياته لاذ بالمخدرات، وأفرط فى الشراب، وساءت حاله فذهب إلى بروكسل، وفيما هو يزور إحدى الكنائس انتابه الشلل، واعتقل لسانه وقضى السنتين الأخيرتين فى المصحات ببروكسل وباريس حيث وافاه الأجل فى أغسطس ١٨٦٧.

- ٣ -

هذه هى مراحل شارل بودلير فى كلمات: طفولة منعمة، ويفوعة قلقة متبرمة، ومراهقة أليمة متمردة وشبوبة مقسمة موزعة، وكهولة متحسرة متصوفة.

حياة رجل، لقى الحب الجم، والحنان الوارف طفلاً، وفقدهما يافعًا وسعى إليهما فى كل طريق شابا، ووجد عزاءه فى الفن والجمال والأدب كهلا، وألفى فيها جميعاً مثابة وجوده وملاذ انسجامه.

أجل، إنه الرجل الشقى الذى أصابته "عين القدر"، كما كان يقول عن نفسه، والذى أسعد الناس بشعره، وشدهم بجرأته فى كشف القناع عن نفسه المفرطة فى الحساسية، فازدراه من لم يعرفه، وخافه من قرأ فى سطحية، ووضعه فى صف عظماء الشعراء من تعمق فنه، وفقه إخلاصه وأصالته، واختلف الكتاب فى تعرف شخصيته وتحليل نفسه اختلافاً متفاوتًا، وسيظلون على هذا الاختلاف، حتى يغوصوا فى أغواره، ويتعرفوا حوافزه، ويقترنوا بتجاربه، ويدرسوا دقائق حياته، ولطائف شعره فى تأمل، وتمعن وزكانة.

وهذا الكتاب الذى بين أيدينا، بما وعى من نظرات سيكولوجية، وترجمات شعرية، يمنحنا مادة صالحة لهذه الدراسة، ويضع فى أيدينا المفتاح السرى لباب هذه الشخصية المغلق.

ومن رأى الدكتور ناجى أن بودلير كان يكابد من مركب أوديب أى حبه لامه حبا بالغًا، وكراهيته لأبيه وأن هذا المركب لازمه طوال حياته بأعراضه ونكباته المسمومة، وأن هذا المركب يقترن به الشعور بالإثم والشعور بالندم والحب الجارف، كما يصاحبه سعى وراء العقاب طلبًا للراحة عن طريق الألم - ومن لوازمه شعور بالنقص وكراهية لذوى السلطة - وهذا الشعور بالنقص دفين فى المصاب بهذا المركب، ولهذا تظل حياة المريض به متأرجحة بين حق ملازم وحاجة ملحة للتعويض تتخذ صوراً شتى ومن بينها إثارة النزاع بطريقة استعراضية، فبودلير كان يحقد على زوج أمه، وكان فى بعض الأحيان يستثيره، ويتعمد فعل ذلك علنًا، تنفيسًا لمكتوم حقه وتلمسًا للعقاب.. وكم قامت بين بودلير وزوج أمه مناوشات، وكم قذفه بألفاظ عوراء على مشهد من الناس ليعوض ما يشعر به من نقص.

وقد فسر ناجى هذه الظاهرة بأن بودلير كان مازوشيا، أو كما يقول مازوكيا أى أنه كان يحب التعذيب للتنفيس عن نفسه كما كان ساديا أى محبا لتعذيب غيره، وقد ظهرت آثار هذه السادية فى أفعاله ومناوشاته، وفى تفكيره فى الهدم، والدماء، والموت والفناء.

ويضيف الدكتور ناجى - إلى ما تقدم من لوازم لهذا المركب - أن المريض به يبدع سلوكًا وأسلوبًا فى الحياة يناقض ما لدى الأب أو بديله تمام المناقضة، مع الاحتفاظ بشىء واحد وهو المنافسة فى السيادة، فإذا كان الأب يعيش فى النور عاش الابن فى الظلام، وإذا كان يعيش عيشة منتظمة عاش الابن عيشة مضطربة.

وتبعًا لذلك سار بودلير سيرة معوجة فى المدرسة، وفى الحياة وخف إلى حياة الظلام فأحب الزنجية جان جوفال حبا جنسيا، وكره الصحة والاستقامة فشبع عللا وأسقامًا، وقد أوضح الدكتور ناجى اتصاله بهذه الزنجية وغيرها بقوله. إن بودلير كان يبحث عن شقية خاطئة تجمعه بها صلة الشقاء والخطيئة، فيجد فى هذا العامل المشترك ما يبعث الشفقة والحنان عند كليهما.

ويعاود الدكتور ناجى الحديث عن شخصية بودلير وعن حبه العذرى لمارى ومدام سباتييه، ويرجع ذلك إلى أن بودلير وإن خلع العذار ومرق فى طريق الغواية والفساد فإن هذا الفساد لم يكن أصيلا فيه، ولا كان نزاعًا إليه، ومع مقارفته اللذة الجنسية فقد كان يصفها بأبشع الأوصاف ويتأفف منها وأخيرًا يضع ناجى يدنا على حقيقة سيكولوجية كبيرة هى أن بودلير كان موزعًا مقسم الشخصية أى يكابد من الشيزوفرانيا - الفصام انقسامًا بين الروح والجسد، وهذا المرض يؤدى إلى ضعف جنسى كامل أو جزئى وهذا ما أيده بعض الكتاب، ومن بينهم بورشيه.. وعلى أساسه يمكن الحكم على كثير من تصرفات بودلير، ويمكن تأييد قول القائلين بأن بودلير كان مصابًا بمركب أوديب.. وهذا العجز الجنسى الدائم أو المؤقت من ظواهره.

- ٥ -

هذه هى بعض فكرات الدكتور ناجى عن شخصية بودلير، أيدها بواقعات من حياته، وأسانيد من شعره، وقد سايره فيها بعض الكاتبين الغربيين - عن شارل بودلير - وخالفه فيها البعض الآخر، ومن بينهم انيدستاركى فى الكتاب القيم عن بودلير والذى أشرنا إليه فى هذا البحث، ففيه: كتب كثير من السخف حول "مركب أوديب" لدى بودلير ودبج كثير من القصص لتأييد هذه النظرية ولكن ينبغى أن نذكر أن معظم هذه القصص ابتدعها بودلير ذاته فى أواخر حياته.. وفيه نقرأ:

"ليس هناك شك أن بودلير أضنى نفسه فى تفحص أعماق القلب البشرى والكشف عن أغواره، ولا شك أيضًا فى أنه كان ضحية لهذا الفحص والكشف وأنه عذب نفسه

فى غير مقتض لكن هذا لا يرجع – كما زعم أحد المحللين النفسيين – إلى ميول مازوكية، ومن الحق القول بأنه لم يكن عابداً لفشله".. وقد نقل هذا الرأى الأستاذ عبدالرحمن صدقى فى كتابه "الشاعر الرجيم" كما نقل عنه معظم أقواله، دون إبداء رأيه إذ قال.

ولقد تكرر منه الحديث فى مستأنف حياته، عما كان يجده وهو طفل من لذة فى ملامسة ثياب الحرير التى هى ملبس أمه الدائم وفى مصافحة الفرو الوثير الذى كانت تؤثره وفى شم مساحيق زينتها وشذا عطورها، على أنه ليس من مقتضى ذلك أن تكون هذه الحال حجة على بوادر الانتكاس فى طبيعته، ومثالاً من الأمثلة على ما لم يفتأ يلوكه "فرويد" وأتباعه أصحاب مذهب التحليل النفسى فى نظريتهم المرموزة بمركب أوديب.

ونود أن نلاحظ أن كتاب ستاركى أشار فى أكثر من مكان إلى انحراف طبيعة بودلير وإلى أنه كان مشكلة وإلى أن أمه مسئولة عن هذا الانحراف لحبها الغيور له ونحن إذا رجعنا إلى الكتاب السيكولوجيين: من أمثال ادلر، أو الدر فى كتابه "سيكولوجية الخلق" نجد ما يؤيد أن تدليل الطفل قد يؤدى به إلى الضلال البعيد، وإذا رجعنا إلى واقعات حياة بودلير نجد أن الأحداث زادته تيهًا وقلقًا وضلالا فزواج أمه حرمه من الحب والحنان وإرساله إلى مدرسة داخلية زاد من آلام نفسه وفصله من هذه المدرسة كان صدمة له قاسية، وهذه الأحداث وأشباهها وأمثالها تؤكد أن بودلير كابد من مرض نفسى قد يكون مركب أوديب أو يكون عقدة الأم وقد يكون غير ذلك وهذا المرض لازمه فى شبابه ودفع به إلى الرذيلة، ولما أصيب بداء الزهرى بلغ قلقه وعدم استقراره الذروة، ومن نتائج هذا المرض كما يقول – لويس برج – فى كتابه الشخصية – أن يجعل المصاب به دائم التجوال، لا يستقر فى مكان. ولا غرو إذا انتاب بودلير فى قابل أيامه توزع نفسى شديد، وانفصام بين روحه وجسده، ولعله يكون قد كابد من الفصام البسيط – ومن مظاهره مقارفة الرذيلة والفرار من الواقع، والإخلاد إلى الأحلام والخيالات – ما كابد.

وفى هذا البحث شواهد على هذا الفصام لدى بودلير، استخرجها الدكتور ناجى من واقع حياة بودلير ومن القصائد التى ترجمها، فعلى حين تراه يسعد بالخمر فى مثل قصيدته "روح الخمر" أو يناجى خليلته جان دوفال الزنجية فى مثل قصيدته "المجنون" نراه يهيم بالعالم الروحى، ويتملى بجمال مارى وحبها العذرى، أو يستلهم مدام سباتييه إلهامات صوفية فى مثل قصيدته "الفجر الروحى" - أو "أغنية" إذ يقول: إلى أغلى الناس وأجمل الناس التى تملأ قلبى بالضياء، إلى الملاك إلى المعبود الخالد، سلام الخلود.

ويستحيل علينا فى هذا المقام أن نورد الأسانيد الشعرية التى اعتمد عليها مؤلف هذا الكتاب فى تبيان صحة كثير من نظراته السيكولوجية، وتحليلاته العميقة لشخصية بودلير.

وسوف يكون لهذا التحليل العميق المركز، أصداء قوية لدى قراء العربية...

مصطفى عبد اللطيف السحرتى

شارل بودلير

CHARLES BAUDELAIRE

قصة حياته وفنه

(١٨٢٩-١٨٦٧)

هذه سيرة بودلير، وسيجد كثير من المعاصرين أنه يوافقهم، وسيحبونه، ويقرؤونه.

والسبب فى ذلك أنه إنسان شقى، وهذه الإنسانية الشقية بلا رياء ولا نفاق وهو قد وصف الضجر الذى نعانيه اليوم أصدق الوصف وأوفاه وهو قد وصف عصرنا الحاضر بأخطائه وآثامه، مع البقايا الباقية من تعاليم الديانات ومع عبث المجهودات المبذولة فى الحث على الفضيلة وإقامة صرحها من جديد.

وأخيراً هو صورة لنفسية العصر الحديث، من حيث التعقد والكبت والقلقلة العصبية بكل صفاتها.

فلنقرأه كإنسان ولنعطف عليه ولنستمع إلى أناته وشكاياته فهى أنات كل باك ودموع كل متألم.

ومن منا لا يبكى ومن منا لا يتألم..؟

إبراهيم ناجى

- ١ -

لا يعنينى فى هذه الصفحات أن أحدد مركز بودلير فى سجل الأدباء، ولا أن أتعرض لسيرة حياته بالتفصيل، وإنما يعنينى أن أتناول تحليل نفسيته مستعينًا بشعره على هذا التحليل، ولابد أن أذكر أنه كان مريضًا بالنفس، أى أنه من ضحايا الحياة، وأدبه ما هو إلا مرآة صادقة لآلام هذه الضحية ومتاعبها.

إن نفسية بودلير إنما هى مظهر خارجى لصراع داخلى تتعدد آثاره بحسب الظروف والبيئات والملابسات، وسيرة بودلير تطابق الآلاف من سير الناس الذين يعيشون معنا وبيننا وهذا يفسر: لماذا يحبه ويحب قراءته آلاف المثقفين؟ إن سيرة صاحب "أزهار الشر" هى سيرة الذين سعوا فأخفقوا فاستعذبوا إخفاقهم وتألموا فاستمرءوا الاستمرار فى آلامهم، سيرة حب لم يتخذ مجراه الطبيعى فأخذ يسير بصاحبه نحو الدمار ويغرقه فى الآثام، ويجعله من ناحية أخرى يحاول التضليل والتعمية، سيرة حب لم يستطع أن يسير سيرًا طبيعيا سهلا فصار ملتويًا شاذا معقداً، سيرة حب قد يدفع صاحبه إلى تضحية نفسية إلى تقديم ذاته قربانًا أو إلى عمل خارق من أعمال البطولة، فإما أن يعده الناس بطلا أو يعدوه شيئًا آخر ومن ثم يتضح كيف يحدث النقيضان عند المحبين الذين يستحيل تحقيق أهداف حبهم لأنها تتمشى مع أحوال الحياة، فمن لم يذهب إلى الدير يذهب إلى السجن أو إلى مستشفى المجاذيب والسبب واحد دائمًا: حب مستحيل.

إنه إذا استحال الحب إلى شىء بعيد عن التحقيق فإن ذلك يعتبر عند صاحبه إنكاراً لحق الحياة فيلجأ إلى طلب الموت بأية طريقة وإن لم يطلب الموت فهو على الأقل يحن إليه. ويستتبع أفكار الحياة، أفكار السير فى طريق النمو الطبيعى، فيؤثر الشخص أن يبقى طفلا كما هو، طفلا بضعفه طفلا بتخيلاته التى تخلق من الوالدين آلهة ومن الجبال عمالقة، وإذا شب شخص من هؤلاء يظل يحن إلى عهد الطفولة كأنه يحن إلى فردوس مفقود، ذلك العالم الذى لا تفسد فيه المسرات بالمعرفة ولا يستبد العقل بالطباع، ولا شك أن فى هذه العواطف الصبيانية على حمقها وعنفها لذة أن بها إحساس الصغير

يحتضنه عملاق وإحساس الصغير يذنب وينتظر الرحمة واثقًا من إدراكها من الذى يملك أن يمنحها، حقيقة إنه إحساس بالذل والضآلة ولكن له لذته الخاصة حتى أن الواحد ممن وصفنا يتشبث به وينقشه في ذاكرته، ولقد يفتعل الموقف افتعالا لكى يكرر الصور القديمة ويستعيدها. إنهم يقولون إن هذا الحب صورة مختصرة للحب المطلق حب الجمال الذى لا يتقيد بقيود والذى وصفه بودلير مراراً فى رسائله وشعره. أما التحكم فى البيئة وأما التسلط عليها فيدعونه ساخرين "الميل العصبى للتأمين الاجتماعى" يستمرئ المريض مرضه لأن سلامته معناها التخلى عن الألم الذى يغطى به المريض عجزه وقصوره، على أن هذه التغطية كثيراً ما تفتح الباب لأمراض حقيقية ولكن الغالب أنه علة يتعلل بها العاجز فمنها اصطناع الفشل، ومنها ارتكاب الجريمة لا عن عمد ومنها تصيد الأذى بافتعال الحوادث، وما كل ذلك إلا هرب من الندم، وجلب للراحة عن طريق خاص والاستفادة - كتعويض - من المجتمع بعد أن صعبت الاستفادة من محيط النفس.

ولا شك أن هذا السلوك يؤدى إلى متعة خاصة، فإن أغلب هؤلاء المرضى يضيفون إلى شذوذهم فى الحياة شذوذهم فى ناحية الجنس، ومرد هذا الشذوذ هو التشبث بالطفولة وأهم ما فى الطفولة هو الأم؛ ولذلك فإننا نجد صفة عامة فى هؤلاء هى مركب أو ديب.

ولنعد إلى مذكرات روسو لندرك كيف كان يحصل على السرور الجنسى بالحصول على العذاب أو على الأقل تخيل العذاب، فإن الواحد من هؤلاء لا يحصل على لذة إلا إذا تخيل أنه يضرب أو أن غيره يضرب أمامه، الصورة الماثلة فى الذهن دائمًا هى العقاب فقبول العقاب السعى إلى التكفير فالسعى إلى المذلة فالسرور من بلوغ ذلك فالمتعة المتحصلة من كل هذا ومثل ذلك فى المسألة الجنسية عقاب أو تخيل عقاب فتكفير يعقبه راحة فمتعة جنسية.

ولقد فسر فرويد العادة السرية بأنها شىء من هذا القبيل، ولذلك أصابت التسمية العربية حين دعتها "جلد عميرة" فإن المزاول لها يتخيل أن رجلا يعاقب طفلا وفى أثناء تلك المزاولة تتكرر هواجس أن رجلا يعاقب طفلا وفى أثناء تلك المزاولة تكرر هواجس وخيالات عدة وقد تكون من الغرابة والشذوذ والطرافة بحيث يستمد منها الأديب قصته.

- ٢ -

كان شارل الصغير يحب أمه حبا بالغًا، ومهما يكن فرحه عند موت والده، فإن ذلك لا يقاس بفرحه الباطنى من أن أمه صارت له وحده، حنانها، شعرها المعطر، حضنها الدافئ، كل ذلك سيغدو له وحده.

ولقد كتب الشاعر لأمه فى خطاب سنة ١٨٦٠ قائلا: "تلك كانت أيام سعادتى.. أيام حزنك، أيام ترملك" أيام ترملها التى كان فيها الطفل سيدا مطاعًا.

* * *

هذا هو الحب الذى يسمى فى علم النفس مركب أوديب والذى على علم النفس أن يعنى بتحليله.

هذا المركب أمر طبيعى فكل طفل يحب أمه وليس فى ذلك عجب ولكن على الطفل أن يفطم سيكولوجيا كما فطم من الرضاع، فإذا اعترض هذا السبيل ما يعوقه فإن هذا العائق يحدث ما يسمى التراجع لا قيمة له فى المجتمع إلا بمقدار التعويض الذى يقتضيه إياه الشخص ليكمل ما نقص لديه، وقد يؤدى هذا الاقتضاء - اقتضاء دين يفترضه الشخص على المجتمع - إلى أخطر العواقب أو يؤدى إلى اختلال نفسى يتراوح بين العصاب وبين لون من ألوان الهمجية الأولى أو على الأقل إلى نزعة عدائية للمجتمع، وأما العصاب فإن الطب الحديث يعد الإدمان والإجرام نوعين مشتقين منه وثيقى الصلة به.. ونحن إذا استعرضنا حياة بودلير وجدنا ألوانًا متعددة من هذا التزاوج، فمع العصاب تعلم أن بودلير كان مريضًا بالزهرى، فمهد هذا المرض إلى عصاب أشد عنفًا، وقد لجأ بودلير إلى إدمان الأفيون، وإلى السرقة والغش وقد تكون هذه الألوان فى سجل حياته ألوانًا غير صارخة، ولكنها فى نظر رجل مستقيم كالجنرال أوبيك زوج أمه، كانت تكفى لاعتبار بودلير - فى نظره - مجرمًا.

ولقد يحسب أكثر الناس أن الذات الإنسانية ذات مفردة،والصواب أنها مثلثة فهناك دائما الأم والأب. فى أول الأمر يكون هناك اثنان، ثم يتحدان فى واحد ثم يتبلور هذا الواحد ويظل قائمًا بعد ذهابهما ويظل ماثلا منفذًا لأوامرهما وتؤدى الذات تحيتها العسكرية لهذا القائد كما يؤديها له الجندى حتى بعد تركه للجيش. إنه احترام انعكاسى مثمر مدى الحياة وهذا الرمز هو الذات العليا والرقيب أو الضمير، فإذا تبلور فنحن لا نزال قبل الذات العليا والرقيب أو الضمير، فإذا تبلور فنحن لا نزال قبل ثلاثة أيضًا: الرقيب والذات والبيئـــة، وكان جـــل اهتمـــامه أن يجعل تصرفات الذات منـــاسبة لتقـاليد البيئـة.

كل شيء يتوقف على هذا الرقيب وآثاره فينا، فإن أوامره الباقية تظل فى النفس حتى أنها لتقف وتعترض أكثر الناس انسجام شخصية فيبدو أمامها خاضعًا ذليلا، وقد يكون ذلك الرقيب وإشاراته من الصلابة بحيث يخلق فى النفس ثورة تنذر بحرب أهلية، وقد تكون هذه النذر داعية للنظام أو داعية للعصاب "النيورور" أو للمرض أو للتمرد أولهدم الذات الإنسانية أو تمزقها.

ويمكن إيجاز ذلك فيما يأتى: "كل صراع والدى يؤثر فى نفس الطفل ويبقى هناك متبلورًا كشيء ثابت لا يزول بحيث يصبح جزءًا كذلك من الكيان السيكولوجى وربما جزءًا كذلك من الكيان الجسدى ويمكن أن ينتقل بالوراثة، وأسوأ ما فى الصراع الوالدى: الحصول على الطاعة بالإرهاب، إذا كانت الصلابة مقرونة بالوعيد والنذر فإن المريض يلجأ لوسائل عدة يهرب بها من ذلك الإرهاب منها عقاب النفس أو إذلالها أو يلجأ إلى التوبة أو إلى الندم، ولماذا يلجأ لهذا؟ لقد فهم قيمته من الطرق التى تتبع فى تربيته وقد أدرك أنه ضئيل غير نافع، إذ أنه يتعرض لسخرية الوالدين وتهديدهما بين آونة وأخرى، إذن فعليه أن يتألم وعليه أن يكفر وعليه أن يتوب.. وشيء آخر أن الحالة فى جوه النفسى جو توتر لا يمكن الاستمرار عليه إلى النهاية فلابد من طريقة للوصول إلى الهدوء والسلام

ولن يكونا إلا بالتوبة والتكفير والندم، فإن لم يوجد ألم فهو يخترعه اختراعًا نفسيا وجسديا، إنه يخترع الألم ويتخذه صاحبًا وقرينًا ومنقذًا وإليه يتجه للحماية والخلاص وما الألم إلا كالاعتراف يشترى بهما المريض العفو ويسترضى القاضى الأعلى أوعلى الأقل يشترى سكون الرقيب أو يشترى حق الحياة فى نظره أو على الأقل يتجنب المسئوليات الاجتماعية أو يغرى نفسه بأنه شخص مخالف للغير، وعلى كل حال إذا حدث تعويض فإن التعويض يستغل فى فرض ضريبة على المجتمع والتحكم فيه.. لقد كتم بودلير حبه لأمه وأظهره فى شكل تناولته يد الرقيب فحوله لجهات عاطفية أخرى، وكان هذا الحب مقترنًا دائمًا بإحساس داخلى عميق بالذنب ومن ثم بضرورة العقاب والتكفير، هو نفسه يطلب العقاب ويطلب الإخفاق فيما يسعى إليه كنوع من العقاب، ولقد كان بودلير فنانًا يطلب الكمال، ولكن عندما يحين بلوغ مأرب تقتصر يداه عمداً عن تحقيقه المأرب، وسواء كان هذا العجز رذيلة أو كسلا فإنه عقاب يسعى إليه على كل حال، ويمكن أن نسمى هذا السعى إلى العقاب سعيًا إلى الهدم.. ونسوق على سبيل المثال قصيدة "طائر الطريق".. يقول بودلير:

كثيراً ما يأسر الملاحون هذه الطيور البحرية الهائلة، التى تتبع المركب فى كسل وتراخ، وهى تمخر العباب.. هؤلاء ملوك الجو. ولكنهم ما يكادون يهبطون إلى المركب حتى يعتريهم الخوف والخجل..

وتتراخى أجنحتهم وتتدلى كالمجاديف بجانبهم.

منذ هنيهة كانوا أمثلة للجمال.

والآن ما أشدهم ذلة وما أقبحهم

هذا بحار يداعب منقاراً بغليون مكسور

وهذا آخر يتعارج، مقلداً فى سخرية مهينة منظر الطائر بعد هبوطه من مطاره هكذا الشاعر

ملك السحاب الذى يطارد العاصفة ويهزأ بالصياد

..عندما ينفى إلى الأرض

وتحوطه سخريات البشر

فتعوقه أجنحته المهيضة عن الطيران.

* * *

هذه صورة حية للقصور والفشل، ولما كانت العلاقة بين الأبوة والبحر معروفة فالمقارنة واضحة وثمة صورة جنسية جلية ألا وهى منقار الطائر ومداعبته بغليون مكسور.

وارجع إلى خطاباته لأمه، فهى أكثر بيانًا وإيضاحًا من كل شىء..

- ٤ -

ولكن عوضًا عن ذلك العقاب عن طريق الإخفاق والعجز أخذ الشاعر يتغنى بحبه لأمه وللصحراء وللصخور، وبعبارة أخرى لكل شىء عظيم خارق للعادة.. مما يصوره فى قصيدته "العملاقة"..

إنه يعود طفلا وينظر للمرأة كأم كعملاقة لا تصل إليها الأم الإنسانية، شخصية قوية مذكرة فتية لا يكون الإنسان فى قربها غير طفل، وفى هذه العلاقة مغزى كبير إذا أردنا أن نفهم حبه الشاذ وساديته ومازوكيته...

ثم انظر إلى قصيدته "الجمال".. ثم أنشودة الجمال..

وفى هذه الأنشودة يرى القارئ التطرف فى الاستسلام للعاطفة القوية والألم المرير، والرجوع إلى الأم والى الأرض وإلى القبر، فهو يقول للجمال: **أنت تمشى على الموتى..**

ثم ها هى ذى قصيدة "الحياة الأولى"، حيث يعود إلى ثدى الأم ثم إلى حياة الجنين.. يقول الشاعر فيها:

لقد عشت تحت أقبية صبغتها شمس البحر بألوان من اللهب وعندما يزحف الليل، تجعل الأعمدة المستقيمة هذه الأقبية ككهوف قديمة تاريخية.

بينما الأمواج وهي تعكس ألوان السماء تجمع بين انسجام الموسيقى وانسجام أضواء الغروب المنعكسة في عيني.

هناك عشت حقا في سرور هادئ

بين السماء والأمواج

وبين عبيد عرايا تضمخوا بالعطور

عبيد كانوا يبردون حر جبيني بأوراق النخيل

وكان همهم الوحيد أن يعرفوا سري الذي جعلني حزيناً مهموماً

ومن قصيدة أخرى له عنوانها الثعبان:

ثيابها المتموجة المطرزة باللآلئ

تمشي وكأنها ترقص

حتى تشبه الثعابين التي يعلقها الحواة على أطراف عصيهم وكأنها تشبه الرمل الصامت

أو سماء الصحراء أو الأمواج الممتدة المتلاحقة

تلك الأشياء..

التي لا تبالي بآلام الإنسان

على هذا المنوال استلقت هي في غير مبالاة

إن عينيها اللامعتين تشبهان المعدن الفاتن البراق

وفي ثنايا طبيعتها الخفية التي تجمع بين الملاك وأبي الهول

والتى ليس بها غير الذهب والصلب والضوء واللؤلؤ

يتجلى جلال صامت

جلال امرأة عقيمة تلمع دائما كنجمة بعيدة المنال.

هذه القصيدة الأخيرة تعبر أوفى تعبير عن حب بودلير، ولكنه يجتهد فى التعمية فيختصر جمله ويتحمل عبودية القافية.

فإن فى شعره محاولة لإخفاء عواطفه الحقيقية بخلاف رسائله التى كانت تحمل جملا أصرح وأوضح.

- ٥ -

وهاك تعريفه للجمال.. لقد اكتشفت تعريفًا للجمال، خاصا بأن رأس الرجل لا تحمل لرجل آخر - وقد تحمل لامرأة معنى الرغبة، أما رأس المرأة فتحمل كل معانى الاشتهاء إذا اقترنت بالحزن، ولكن هذا الاشتهاء يضفى على الحزن شيئًا من الحماسة شبه مطامع ارتدت إلى عالم الظلام أو شبه قوة قلقة غير مستعملة وأحيانًا عاطفة انتقام مكتوم كل هذا بالطبع يتوقف على نوع العاشق المشتهى، ومن أهم مميزات الجمال عنصر الخفاء ثم عنصر آخر.. هو الشقاء.. لا أنكر أن السرور قد يقترن بالجمال ولكنه زينة رخيصة له بينما الحزن والشقاء هما رفيقاه العظيمان بحيث لا أستطيع أن أتصور جمالا لا حزن وراءه، وعلى ذلك ألست معذوراً إذا اعتقدت أن أفخم أنواع الجمال الذكر هو الشيطان كما صوره ملتون؟

وفذلكة أخرى للشاعر: عندى اشتهاء مبكر للنساء، وطالما خلطت رائحة الفراء برائحة المرأة، وأذكر أنى أحببت أمى من أجل أناقتها، لقد كنت عاشقًا قبل الأوان.

صلاة: رب لا تعاقبنى من أجل أمى ولا تعاقب أمى من أجلى، رب إنى أستودعتك روح أمى وأبى، رب اعطنى القوة لأقوم بعملى اليومى حتى أستطيع أن أكون بطلا وقديسًا.

ولنعد إلى التحليل النفسى لبحث هذا النوع من الحب، إنه يحب أمه ومن ثم يريد أن يملكها ولكن لا شيء من عناصر الجنس المألوفة فى ذلك وإن اشتركا فى الأساس.

بل بالعكس، إن كل شعور جنسى يرفضه كأنه جريمة ويتحول لشيء آخر أو ينتقل لجهة أخرى وفى ذات الوقت ينكر الهوان الذى يعانيه وينكر وجود أبيه وينكر وجود علاقة بين أبيه وأمه وينكر الحب على الإطلاق وعليه أن يعوض هذه المرفوضات بموجودات أخرى، يعوضها بالتكفير القوى أو بالشفاء كوسيلة يستأثر بها باهتمام الأم والانتصار على الأب، وفى ذات الوقت يريد أن يحقق مرفوضاته بطريقة خفية فيلجأ لكل شاذ ولكل غريب.

ويعود كل ما هو طبيعى فارغًا وخادعًا فى نظره ويمكن الاستدلال على كل ذلك من كتابات بودلير نفسه.. "إنى أعتقد أن كل مسرات الحب هى فى ارتكاب السوء، والرجل والمرأة يعرفان من ميلادهما أن أكبر الملذات هى فى ارتكاب هذا السوء، والحب فى نظرى يشبه التعذيب أو عملية جراحية..

وعندما يجتمع اثنان فى عناق فإن أحدهما يكون جراحًا للآخر..

وإلا فما معنى الصرخات والتأوهات والتنهدات، وأى محبوب لم يفعل ذلك، أليس ذلك كله شبيهًا بالأسئلة عند التعذيب، وما هذه العيون الزائغة والأعضاء المتصلبة، وهل السكر والمخدر لا يؤديان لمثل ما وصفنا.

وإذا كان أوفيد يقول: إن الوجه الإنسانى إنما خلق ليعكس النجوم فما قوله فى الوجه الذى ينطق بالجنون المتوحش أو الذى يبدو عليه قناع الموت.. إنى لمخطئ إذا نسبت النشوة لهذا الانحلال.. ثم يقول: هاهى الظلماء أليست فى غرورها قناعًا، فعندما تلاقى الصريعان واختلطت دموعهما وقبلاتهما، كان فى ذلك معنى الأسف على الماضى والخوف من غموض المستقبل ولم يكن أهنأ من تلك الليلة الحافلة بالحزن والصفح، سرور مغمور فى الحزن والندم.

- ٦ -

لنفرض جدلا أن المنافس اختفى. أو كما هو فى حالة بودلير، قد مات، هل تخف وطأة الندم المقترنة بمركب أوديب؟ وهل تخف وطأة الإحساس بالإثم، كلا إن المنافسة القائمة تحتم على الغريم - بودلير - أن يتمتع كما كان أبوه، إذن فهو يحرم على نفسه الرغبة، وبالامتناع عن الرغبة يمتنع عن كل ما يتعلق بها، ولما كانت الرغبة الجنسية مرادفة للنمو فإن الطفل يظل طفلا أو يتراجع نحو الطفولة وقد يحدث شيء آخر وهو أن تقل رغبة الذكر حتى يكاد يصير أنثى وبمعنى آخر: بدل أن يكون نشطًا موجبًا يصير آليا سالبًا، وهذا يفسر لنا كيف يحدث الحب للجنس المشابه.

وفوق ذلك فإن الندم لا يهدأ بل يتمادى المريض فيه وتصير شريعة الندم مرادفة لشريعة العذاب.. ومن ثم يتضح معنى إقبال بودلير على كل ما هو فظيع وشاذ، إنه لا يحجم عن ارتكاب أخس الأفعال وحتى الحب يتحول رغبة فى القتل. وعلى الرغم من صلواته فإنه فعل كل ما يعاقبه الله عليه ولا ندرى هل كان يعاقب نفسه أو يعاقب أمه فى داخله؟.. "وهاهو رأيه فى المرأة أن جمال المرأة ما هو إلا فى: غرورها.. سامتها.. وقاحتها.. سرورها.. تكفيرها فى الماضى.. تسلطها.. عنادها.. حقدها.. صفاتها التى تشبه القطة؟

"المرأة ظامئة تريد أن ترتوى، ساخنة تريد إطفاء نارها بالقرب الجنسى.. المرأة طبيعية - أى فظيعة - المرأة سطحية.. سوقية".

"وما هى جورج ساند..

كانت تدعو للخلق، وهى ضده وكانت تدعى الفن وهى تكتب بأسلوب البورجوازيين. إنها باردة غبية ثرثارة، إن عقليتها ليست أكثر من عقلية خادمة، خذ مثلا ما تقوله عن أمها وعن الشعر.. ثم حبها للعمال. وإذا كان كثير من الناس وقعوا فى حبها، فهذا دليل على حقارة أهل هذا الجيل..".

* * *

وهذا رأيه فى أمه، حين تزوجت الجنرال أوبيك:

"بعض النساء كوشاح اللجيون دونير، لا يريد الإنسان أن يمسه لأنه قد لوثه كثيرون..".

"ولذلك فأنى لا أرتدى بنطلون رجل أجرب، إن أسوا ما فى الحب أنه جريمة يشترك فيه اثنان.. إن فى الحب كما فى كل المسائل الإنسانية تكون المخالفة نتيجة سوء تفاهم حول المسرة".

"وبينما يقول الرجل: يا ملاكى، وتقول المرأة: يا أمى يا أمى.. ويعتقد الغبيان أنهما انسجما فالواقع أن بينهما هاوية سحيقة بعيدة القرار".

* * *

ولنعترف أن بودلير هو الذى كان يصيح.. يا أمى يا أمى فالوضع معكوس.

وها هى بعض آرائه الأخرى فى المرأة..:

"محررة فى صحيفة فنانة أى قاتلة للفن"

"غبية صغيرة، إنها سخرية مضاف إليها فساد.."

"على الإنسان أن يضرب التى يحبها.. كلما تعمقت فى الفن كلما قللت من الاقتراب الجنسى.."

"وكلما زاد البعد بين الروح والوحش.. إن الوحش هو الذى يضاجع جيداً والمضاجعة غنية الشعب، إن المضاجعة معناها أن يدخل شخص فى آخر والفنان لا يخرج من نفسه أبداً".

- ٧ -

وهكذا نجد الرغبة الجنسية في بودلير يحكمها الندم والسخط والعقاب.. إن كل ما نذهه نطلب عقابه فى المرأة إنما يقصد به نفسه فإنه هو الشخص الذى يجب أن يضرب والشخص الذى تنسب إليه كل المآخذ السابقة، ونلاحظ أنه يخلق هوة عميقة بينه وبين المرأة، فلنعلم أن هذه الهوة جنسية محضة وأنه كثيراً ما يستعيض عن هذه الهوة الجنسية بتقديس المرأة روحيا، ويمكن لهذه الصلة الروحية أن تكون بين امرأة وامرأة فهذا الانقسام بين الجسد والروح يسمى فى علم النفس الانفصام، وهو يؤدى إلى ضعف جنسى كامل، وعندما يقف رجل من امرأة هذا الموقف فإنه يكون ذليلا مذنباً ضئيلا.. وفى ذات الوقت يلجأ إلى العاهرات ليعوض ما فقده من الكرامة، عند تلك وعند هؤلاء العاهرات يسعى إلى الأمراض سعيًا لكى يعطفن عليه وإلى نوازع من الطفولة لكى يجد بينهن أما تشفق عليه، وأحيانًا يحول هذه النوازع فيسعى إلى عمل ما، يسعى إلى عمل ضخم لا يقصد أن ينجح بل يقصد أن ينهك قواه كطـريقة من طـرق العذاب، فإن قول بودلير إذن: "هيا إلى العمل" إنما هو يأس متصنع، ومهرب نحو عمل يفنى فيه قواه.

- ٨ -

يقول بورشيه فى مذكراته: إن هذا المتشكك الساخر كان عاجزاً من ناحية الجنس، ولم يكن يستطيع أن تظهر رجولته إلا مع أحط النساء، هل كان بودلير فاسداً؟ وهل كان بلا عقيدة؟ إن السؤال الأول مرتبط بالثانى والجواب إذن عليهما معًا.. لاشك أن الفساد عنده لم يكن أصيلا ولا عن نزوع إليه.. فقد كانت عائلته متدينة وكانت أمه سيدة فاضلة وإذا استعرضنا الصلات الغرامية لبودلير رأينا عجبًا.. فإذا صرفنا النظر عن علاقته بالزنجية جان دوفال، حيث قامت الصلة بينهما على الشهوة المطلقة فإن قصته مع مارى دوبران عجيبة، فهذه كانت ممثلة مستقيمة طيبة، أحبها بودلير حبا بريئًا وعطف عليها عطفًا خالصًا وكان يقدم إليها كل ما يمكنه من المعونة حتى إنه إذا أفلس صارح والدته بذلك وأخذ منها المال ليعين به صديقته مارى، وهناك صديقة أخرى - لا نعرف بالضبط من هى،

كتب فيها بعض قصائده.. يتغنى بأنه فى أعماقه كان يشعر بحاجته إلى الحب الكريم النبيل، على أن هناك مارى أخرى طارحها الهوى فصارحته بأنها تحب رجلا آخر فاحترمها وأكرمها ولم يكفر بها، على أن قصته مع "الزعيمة" قصة عجيبة حقا، فإن مدام سباتييه كانت سيدة من سيدات الصالونات الأدبية المشهورة فى باريس وكان يكتب إليها خطابات لا تحمل اسمه ويرسل إليها قصائده الرائعة.. فلما علمت أنه صاحب "أزهار الشر" زادته إكبارًا وأرسلت إليه تستقدمه لتهبه نفسها وكانت ليلة المحاولة بالضبط فى يوم ٣٠ أغسطس فأخفق أخفاقًا شنيعًا حين رفض ما قدمت إليه من كنوزها الجسدية فغضبت لكرامتها وجمالها أما هو فكتب إليها بعد هذا الإخفاق يقول لها: لقد كنت إلهة فى نظرى ولست الآن إلا امرأة، فكتبت هى إليه قائلة: "إنى كنت محقة فى غضبى عندما رأيتك باردًا عند قبلاتى وعناقى ولم يكن سبب هناك إلا تعرض خيال تلك السوداء بينى وبينك ولو لم أكن أحترم نفسى لأهنتك".. وإذا رجعنا لمذكراته عن الصلة الجنسية وجدناه يصفها بأبشع الأوصاف، فإنه يقارن هذا العناق بالتعذيب وبالعمليات الجراحية ويصف الوجه الإنسانى بعد هذه الصلة بالجنون الوحشى فما باله إذن كان يزاول هذه المهنة، أليق الأوصاف به أنه قديس ركبه الشيطان أو أنه خاطئ عينه مصوبة نحو السماء ويمكن تلخيص نفسية بودلير فى هذا الصراع بين الخير والشر: فهو ظامئ للخطيئة كما هو ظامئ للحب الممتلئ بالعطف والحنان والرحمة، ويمكن أن نصور نفسية بودلير من شرح حلم وصفه فى خطاب له أرسله لصديق من أصدقائه، وهذا الحلم واضح صريح ودال أبلغ الدلالة على شخصية بودلير الجنسية والفكرية والروحية.. "لقد ذهبت مع صديقى إلى دارها وتركته عند باب الدار وصعدت الدرج فما دخلت حتى وجدت قدمى عاريتين مبتلتين وأزرار ثيابى محلولة، وكانت الدار ذات دهاليز متعددة واسعة وقد علقت فى الجدران صور فيها ما هو غير لائق وبعض هذه الصور أجنة مشوهة أو ناقصة، ولكن من بين كل هذه صورة مسخ حى، لقد كان وجهه جميلا أسمر، لقد كان يجلس القرفصاء وحول جسمه شىء أسود التف حوله، فلما سألته عنه قال لى: إن هذا نتوء من رأسه أخذ لطوله يلفه حول بدنه، وأخذت أتحدث مع المسخ فباح لى بكل متاعبه وآلامه وأخبرنى أنه مما يضايقه أن يقضى كل حياته على قاعدة

تمثال وذلك الشيء الأسود الملتف حول جسمه دائماً. فلنشرح هذا الحلم حسبما علمنا فرويد أن المسخ فى الحلم هو بودلير وهيئة بودلير وأزراره المحلولة تدل على أنه كان فى بيت دعارة وهامة الصورة التى للأجنة المشوهة تشير إلى النسوة الأمهات الخاطئات، وأما حكاية المسخ الجالس فوق تمثال فهى قصة بودلير ورأيه فى نفسه وغروره وكبرياؤه، وأما ذلك الشيء الأسود الملتف حوله فهو جان دوفال، أما نتوءه من رأسه فإشارة إلى أنه استعاض عن العلاقة الجنسية بما يعوضه إياه تفكيره وخياله، وقد نحسب هذا الشيء الأسود رمزًا إلى جهاز تناسلى يضايقه ويتعبه، ولقد نستنتج منه أن بودلير كان عاجزًا حتى مع العاهرات وأنه لم يكن له هناك أكثر من مهنة التفرج، ولكن لا يمكن أن نؤكد على الأقل أن بودلير لم يكن طبيعيا من ناحية الجنس، وأما ارتياده بيوت الدعارة فلأنه يبحث هناك عن شقية خاطئة تجمعه بها صلة الشقاء والخطيئة فيجد فى هذا العامل المشترك ما يبعث الشفقة والحنان عند كليهما، وكم من أديب كبير صنع ما يصنعه بودلير، فعندما يتنكر له المجتمع وينكره يبحث فى هذه الأمكنة التعسة عن امرأة شبيهة به أنكرها المجتمع ولفظها، هناك يحلو البكاء - بكاء الأطفال - للواحد منهما على صدر الثانى.

* * *

- ٩ -

المازوكية عند بودلير:

ذكرنا أن مركب أوديب قسمان: قسم خاص بأثر الأم وقسم خاص بأثر الأب فالمريض بقدر ما يحب الأم ويخفى حبها بقدر ما يكره الأب أو من يقوم مقامه وإن كان فى ذات الوقت يجله ويحترمه، ونحن قد علمنا مما سبق شرحه أن مركب الأم مصحوب بندم عميق وشعور بالذنب وحاجة للتكفير وسعى وراء العقاب طلبًا للراحة عن طريق الأم، أما عن الناحية الأخرى أى ناحية الأب فإن الشعور بالنقص يصاحب الكراهية

لشخص محترم يحقد عليه المريض وفى نفس الوقت يعرف أنه دونه منزلة، ومادام هذا الحقد مكتوماً وما دام الشعور بالنقص دفيناً فلا بد لهما من تغطية أو تعويض فتظل حياة المريض متأرجحة بين حقد ملازم وحاجة ملحة للتعويض والتغطية تتخذ لها صوراً شتى، ولنلاحظ أن هذا الحقد يصبح للحياة غرضاً ودعامة، وتصبح مستلزماته هدفاً وعلة للوجود، ومن الوسائل المعروفة لدى المريض بهذا النوع من الحقد إثارة أصناف النزاع بطريقة استعراضية - فمن ناحية بودلير كان يسعى إلى استثارة زوج أمه الجنرال أوبيك ويتعمد أن يكون ذلك علناً ادعاء للقوة وتنفيساً لمكتوم الحق وتلمساً للعقاب الذى يسعى إليه من ناحية أخرى، وحكاية هذا النزاع مشهورة فإن بودلير تلفظ بما يعاب عليه فأخذه الجنرال فقام مغتاظاً وارتمى عليه يريد أن يخنقه فلكمه هذا فما لبث أن ارتمى على الأرض فى نوبة هسترية، وليست الألفاظ التى لجأ إليها بودلير إلا مثالا لما كان يتبعه من نواح أخرى، فهو كان يتعمد سلاطة اللسان والقول اللاذع لا لشيء إلا ليستعرض قوته فى شيء ما - اللفظ بدل السيف - ويعوض ما يشعر به من نقص.

فهذه هى المازوكية المستترة، وهذه الظاهرة هى ما يلجأ إليه كثيرون من ضعفاء الناس حين يثيرون النزاع ويكدرون الصفاء باللسان اللاذع والقول القارص، فإنهم يتحملون العذاب والآلام من ناحية فينفسون عن أنفسهم من ناحية أخرى، ويتخذ الاستعراض شكلا آخر هو اشتراك المريض فى المعارك والثورات ولهذا ثلاثة أسباب: الاستعراض ثم تحويل الحق والانتقام لجهة ما وثالثاً لتخيل كل ما يطلقه المريض من الرصاص أو الحجارة أو ما إلى ذلك موجهاً للشخص الذى يكون موضع الحقد والكراهية.

والثابت من حياة بودلير أنه اشترك فى الثورات التى قامت فى عصره وأنه كان يطلق بندقيته ويصوبها ساخراً إلى صدر أوبيك فى الخيال، فإذا راجعنا ما قلناه عن سعى المريض بمركب أوديب لهدم نفسه فإنه فى ذات الوقت يسعى لهدم نفس أخرى ثم

إلى الهدم بأى طريقة، وقد يهدم ويهدم بطريقة شيطانية، وفى حالة بودلير اتسعت رقعة معاوله باتساع أفق خياله وتفنن فى ذلك كل التفنن فلجأ إلى كل موبقة معروفة، ولزوج أمه الحق إذا اعتبره مجرمًا وقبل أن ننتقل إلى الكذب عند بودلير والالتواء الخلقى واللفظ المقنع نذكر على سبيل الطرافة مثلا على الاستعراضية فى حياته، فقد خطر له أن يرشح نفسه للأكاديمية بكتابه: "أزهار الشر"، فصار ذلك مجالا للتندر والسخرية بين أصحابه وحتى "سنت بيف" الذى كان يعطف عليه كاد يصيبه الذهول من هذه الجرأة كتب إليه يطلب منه بإلحاح أن يعدل عن هذا فعدل، أما عن كذب بودلير فهذه ظاهرة سيكولوجية تفسر لنا كثيراً من الظواهر العامة فى حياة الناس عن الكذب، فما هو الكذب؟ الكذب: إما كذب صريح أو انحراف عن الحقيقة أو تعمية أو التواء فى الإفضاء بالحق، ولقد كان بودلير فنانًا وكل فنان رائده الصدق، ولقد كان بودلير يتحمس للحق والصدق والعدل ويثور من أجلهما ولكن العجز الذى يلازم أمثاله من المرضى والقصور عن بلوغ الغاية عند قرب الوصول إليها شأنه فى ذلك شأنه فى جميع غاياته الأخرى، فإنه حين يصل إلى حيز التنفيذ يقف أو يجىء بالعكس أو ينحرف عن القصد، فمهما تكن نواياه من ناحية الصدق فهو يكذب على الناس ويكذب على نفسه، وإن كان الصدق يلح عليه ويقتضيه إظهاره فهو غالبًا ما يلجأ إلى الرمز فى قوله أو كتابته، ولعل هذا فيه تفسير كاف لرمزية بودلير وغموضه، ولعل فيه كذلك تفسيراً لأمر كثير من الشعراء الرمزيين.. لا نقول: الرمزية مرض وإنما نشير إلى أنها ظاهرة تستدعى البحث والتحليل، ويمكننا أن نقول على الأقل: إن أهل المدرسة الكلاسيكية المتصفين باللفظ المباشر كانت نفوسهم بسيطة صريحة، وأما أرباب المدرسة الرمزية فلم يكن أحد منهم يخلو من عقد نفسية. ولماذا ننسى ريمبو وفرلين.. ولقد يكون استعمال اللفظ الملتوى والتعمية.. إلخ من ظوهر العقد النفسية، فإذا بولغ فيها فهى مرض حقيقى. فإننا نلاحظ أن أسلوب المرضى بالشيزوفرينا هو من هذا الطراز وحديثهم ملتو ونراهم قد فقدوا القدرة تماماً على التحدث باللغة الطبيعية الصريحة.

سادية بودلير من شعره:

بودلير مزيج من المازوكية والسادية، والمازوكية هى الغالبة ولكن السادية تلون جنبًا كبيرًا من حياته وأشعاره.

فهو لا يخلو من عواطف الحب ورقته ولكنه فجأة يفكر فى الموت والفناء والدماء، يفكر فى الخناجر يفكر فى الأظافر، وعندما يعتريه هذا التفكير يبدو جنسه الشاذ - الهوموسكس - بصورة جلية فهو يتخيل حبيبه رجلا يحمل سيفًا أو سهمًا أو يتخيل الحب ذاته شخصًا مهاجمًا قد ملأ كنانته نبالا.

حتى فى أبدع قصائده التى تبلغ القمة من حيث العمل الفنى تجده ينغمس انغماسًا تامـا فى الفناء والموت والدماء والقبور ولا شك أن من أبدع قصائده على الإطلاق قصائد: المبارزة، وإلى غانية، والمجنون، والأختان، والهدم والبركة...

لا شك أن هذه القصائد أعمال فنية خالدة..

إن مركب أوديب نو وجهين: حب الأم وكره الأب أو هما مقترنان، وعلى الأقل لا يقل تأثير الشطر الأول عن الشطر الثانى فى حياة المريض، ونحن هنا نتحدث عن الشطر الثانى، ألا وهو كره الأب، فالمنافسة تقضى بداهة أن لا يعترف المريض بسلوك الأب ولا بأسلوبه فى الحياة، فهو يبتدع سلوكًا وأسلوبًا يناقضان ما لدى الأب تمام المناقضة مع الاحتفاظ بشىء واحد ألا وهو المنافسة فى السيادة والتشبه فى السيطرة، ولكنها سيادة من لون آخر وسيطرة من طراز مختلف، فإذا كان الأب سيدًا يستمد سيطرته من جانب الله كان الابن يستمد سيطرته من جانب الشيطان، وإذا كان الأب يعيش فى النور فإن الابن يعيش فى الظلام، وإذا كان الأول يعيش عيشة عائلية منتظمة ويسير وفق أصول الحياة فإن الثانى يأبى أن يكون ذا عائلة ويرفض أن يمشى وفق ما تشير مقتضيات الحياة، فهو إذن دائمًا فى حاجة إلى سور أو حاجز يحجبه عن العائلة وعن المجتمع، وإذا لم يوجد فإنه يخلقه خلقًا، ولقد كان لبودلير حاجزان لا حاجز واحد:

الأول أوبيك زوج أمه والثانى جان دوفال، وقد كان أثر جان دوفال أوقع فإنها ساعدته حقيقة على كل ما يبغى: حياة الشيطان، حياة الظلام، البعد عن الجو العائلى، وهو قد كان يسعى سعياً حقيقيا للإخفاق والفشل، وقد ظفر بذلك تماماً، وهو قد كان فرض على نفسه الشقاء والألم وقد وجد من ذلك غايته وهو قد كره الصحة والاستقامة فشبع عللا وأسقاماً. قلنا إنه فرض على نفسه العذاب بشقيه: سادية ومازوكية، فما السبب فى السادية؟ إنه كان يحب أن يرى دموع أمه مع أنه كان يحبها حبا يقرب من العشق، وهو قد اعترف بذلك أكثر من مرة، يحتمل أنه رآها فى وضع جنسى، والأطفال كثيراً ما يستيقظون على مشهد من ذلك فيظن الوالد أن هذا لا أهمية له مع أن حساسية الطفل من القوة بحيث لا يمحى ذلك الأثر أبداً، وغالبًا ما يجرح الطفل نفسيا، فإذا شب فإنه يلذ له أن ينتقم، والثانى أنه باعترافه قد رأى زوج أمه يغاضبها أحيانًا ويبكيها أحيانًا، فلماذا لا يكون هو منافسًا له فى ذلك وهو قد صرح لها بذلك فى إحدى خطاباته قائلا: "إنى أحبك هكذا" أى بدموعك وقد شرح ذلك فى قصيدته الجميلة: "معذب نفسه".

وسبب آخر للسادية هو أنه فى عالمه الخاص الذى يحتمى به ويختبئ وراء حاجزه يخلق مالا حد له من أسباب الدموع والآلام كوسيلة للتطهير، فهذه الدموع التى يستدرها هى تثبيت للحاجز ودروع للعالم الذى يعيش فيه.

أما المازوكية فمفهوم أنه فرضها على نفسه بما فيها من دموع وهوان، فهى ليست فى حاجة إلى شرح أو بيان، وحيث إنه قد فرض على نفسه الإخفاق والمذلة وحياة الشيطان وأساليب المجرمين فهو يتبع طـريقة عجيبة أنه يصور ذلك العالم الفاشل نثراً ونظماً.

وطريقته أن يرسم "مشروع رواية" تمثل نفسه القلقة المضطربة وجهادها وكفاحها وانتهاءها بالفشل والموت، والواقع أن مشروع الرواية جميل ولكنه لا يتم أبداً لأن إخراج الرواية إلى حيز الوجود يؤدى إلى النجاح وليس هذا من أغراض بودلير على الإطلاق.... من هذه المشروعات مسرحية "مركيز اللواء الأول".. وفى هذه المسرحية يعكس

الشخصيات التى مرت فى حياته أو فى خياله، فهناك أكثر من رجل واحد يمثل الرجل الكبير السن والمركيز معًا، وهناك امرأة تمثل أمه.. بطل القصة هو ولفجانج كادوليس وأبوه الكونت كادوليس، فى الفصل الأول نتعرف على هذين وعلى مسز تيمى وندرك أننا فى الأيام الأخيرة لنابليون، وبينما نحن نتعرف على الأشخاص يدخل تريتون وهو فرنسى صريح لا يلبث أن يغير من آراء ولفجانج ويوجهه وجهة وطنية.

أما فى الفصل الثانى فنحن أمام سهل وإجرام، وقد انتصر الإمبراطور وأخذ يكافئ بنفسه ولفجانج ويقلده الوسام.

أما فى الفصل الثالث فعودة المحاربين جميعًا إلى منزل كادوليس وقد تلاقى ولفجانج بالمسز تيمى وأخذ الحب بينهما مأخذه، على أنه بالرغم من حبه لها فهو لم يعجبه مسلكها مع متملقيها فهو مسلك امرأة مجربة خبرات الدنيا على صغر سنها، على أنها ما تكاد توجه رأيه السياسى وجهة جديدة حتى يعلم أن الإمبراطور عاد فيعود للانضمام إليه، أما فى باريس فيسير ولفجانج لمبارزة صاحبها ويعود إليها بهذا النبأ فيزيد حبها له وتأخذ فى التحدث عن ماضيها فيعلم أن زوجها كان رجلا هرمًا وقد مات ليلة عرسه غير أنه على فراش الموت لقنها كثيرًا من وصاياه وتجاربه، فها هى إلى الآن عذراء ولكنها مليئة بالتجارب والخبرة، ونحن فى الفصل الأخير فى السجن وولفجانج يقبض عليه بتهمة وقد كتب لصاحبته سرا أنه سيهرب إذا رضيت بالفرار معه فكتبت إليه تستبقيه، وأخيرًا استصدرت عفوا عنه وذهبت به إليه فما كان منه إلا أن أطلق الرصاص على نفسه ظنا منه أنها ابتاعت له العفو بثمن.

لا شك أن مسز تيم هذه كانت تمثل أمه وأن شخصية تيمى الزوج تمثل زوج أمه، ولابد أنه فى الحب الذى بينه وبين مسز تيمى يعرض صورة عن حبه لأمه، أما الختام فختام مازوكى محض، فهو يحب الموت وقد سعى إليه فى مختلف أدوار حياته وهو الآن وقد عادت إليه الحياة يأبى الانتحار.

* * *

وهذه مسرحية أخرى "مشروع"

عاطل يتزوج حسناء فاضلة، إنه فقير وبائس فهو يدمن الشراب، إنها تتعرف على غنى فاضل يساعدها ماديا غير أن الزوج يشك ويهجرها ثم يبيت لها الانتقام ويدعوها إلى موعد غرام وهناك يلقيها في بئر ويهيل عليها الأحجار ثم يتناوله عذاب الضمير حتى يبوح فيقبض عليه. إن بودلير لا يكتفى بهذا المشروع بل يوجزه فى قصيدة جميلة عنوانها "خمر القاتل": "زوجتى ماتت إنى حر أستطيع الآن أن أشرب ملء جوفى طالما نهتنى عن الشراب وصرخت في وجهي وأنا عائد إلى المنزل الآن إنى سعيد كملك الهواء نقي والسماء فخمة كان لنا صيف كهذا أيام كنا أحبابًا.. إن الظمأ الذى عندى الآن لا يرويه شىء إلا خمر تملأ قبرها وليس هذا بقليل قد ألقيتها فى قاع البئر وأخذت أهيل عليها كل الأحجار التى ظفرت بها ولكنى سأنساها بلا ريب بحق الصلات التى كانت بيننا التى لم يكن يستطيع شيء قطعها.. ولكى أصالحها ونعود كما كنا طلبت منها ميعادا فى المساء فى طريق مظلم فاتت - المجنونة الحمقاء كلنا مجانين حمقى كانت جميلة كعهدها على الرغم من تعبها أما أنا فأحببتها أكثر من الأول ولذلك قلت لها: ودعى هذه الحياة لا أحد يستطيع أن يفهم من هؤلاء السكارى الأغبياء لا أحد يستطيع فى ليل كئيب أن ينسج كفنًا من خمر هؤلاء الصم البكم كالآلات الحديدية لا صيفا ولا شتاء عرفوا معنى الحب، الحب بمفاتنه الحالكة ومواكبة الجهنمية، الخوف... قنانى السم، الدمع، قعقعة القيود.

* * *

ها أنا ذا حر ووحيد سأشرب الليلة حتى الموت وبلا خوف ولا ندم سأفترش الغبراء.. سأنام شبه كلب وستمر عربة ثقيلة محملة بالطين والوحل.. هذه العربة الغليظة يمكن أن تسحق رأس المجرم أو تشطر وسطى شطرين.. ولا فكرة لي لا فى الله ولا الشيطان ولا القديسين.

* * *

أما حياة بودلير فهى بإيجاز:

ولد بودلير سنة ١٨٢٩، أبوه فرانسوا بودلير وأمه كارولين أرشمبو دوفيس، كان عمر أبيه عند ميلاد بودلير ٦٢ عاماً وأمه ٢٨، ولقد كان له أخ من أبيه يدعى كلود وكان زواج الوالد من الأم – أم بودلير – بالنسبة لفارق السن أمراً غير طبيعى، برغم أن الزوج كان غنيا جميل الصورة وقد قبلته كارولين طمعاً فى الرخاء والثروة، والدليل على أنها أفاقت من حلمها هذا بعد تحقيقه نادمة أنها تزوجت بعد عام من وفاة زوجها الأول، وكان شارل بودلير فى السادسة من عمره بالقومندان أو بيك الذى صار جنرالا بعد ذلك ثم سفيراً.. إن الذى يهمنا من هذا هو أن شارل لم يسامح أمه مطلقاً فى ارتكابها هذا الزواج الثانى، ولقد ترك ذلك الحقد فى نفسه أعمق الأثر فقد أخفق فى المدرسة وطرد منها وأخذ يتجه نحو الأدب، ولم تكن هذه المهنة تتفق ونزعات الجنرال أوبيك، ويبدو أن كل هم بودلير كان أن يعارض نزعات الجنرال ويخالفها أو على الأقل يتعمد إثارة غضبه ويتلمس لذلك أسباباً مثيرة وأساليب فى الحياة يراها الجنرال شائنة حتى حدثت الواقعة ذات يوم فى مأدبة عامة فصفع الجنرال بودلير علناً، ثم اتفق مع أمه على إرساله فى رحلة بعيدة فأرسل إلى جزيرة موريتياس ولكنه عاد بعد قليل على أثر نوبات عصبية متكررة، وفى هذا الوقت أصيب بودلير بمرض الزهرى وبعد قليل من عودته حصل على ميراثه سنة ١٨٤٢ – ٧٢٠٠٠ فرنك فما لبث أن تعرف على جان دوفال وانطلق فى حياة عجيبة شاذة وانفق كل ما يملك، وأينما سار كان محاطاً بالمرابين والمحضرين، غير أن فكرة كتاب "أزهار الشر" أخذت تنمو فى ذهنه فنظم هذه القصائد بين ذراعى جان دوفال وآثامه الأخرى وديونه المتراكمة فحاول الانتحار على أن حالته بعد وفاة الجنرال أوبيك أوشكت على شىء من التحسن ولكن بعد فوات الأوان فإن الزهرى كان قد استفحل معه فمات مشلولا سنة ١٨٦٧.

- ١٢ -

هذه هى سيرة بودلير، وسيجد كثير من المعاصرين أنه يوافقهم وسيحبونه ويقرؤونه، والسبب في ذلك أنه إنسان شقى، وهذه هى الإنسانية الشقية بلا رياء ولا نفاق، وهو قد وصف الضجر الذى نعانيه اليوم أصدق الوصف وأوفاه، وهو قد وصف عصرنا الحاضر بأخطائه وآثامه ولا دينيته مع البقايا الباقية من تعاليم الديانات ومع عبث المجهودات المبذولة فى الحث على الفضيلة وإقامة صرحها من جديد، وأخيراً هو صورة لنفسية العصر الحديث من حيث التعقد والكبت والقلقة العصبية بكل صفاتها، فلنقرأه كانسان ولنعطف عليه ولنستمع إلى أناته وشكاياته فهى أنات كل باك ودموع كل متألم، ومن منا لا يبكى؟ ومن منا لا يتألم؟..

- ١٣ -

إن شأن الشاعر بودلير يكبر يومًا عن يوم، ففريق يعده أكبر شاعر فى فرنسا وفريق يعده أكبر شاعر فى أوروبا بأسرها، ولماذا يعود القرن الحالى إلى هذا الشاعر؟ ولماذا ينبش الأدباء قبره ويعيدون ذكره؟ هل هو حقيقة كما يقولون؟ إما أنه شاعر من الطراز الأول فهذا مالا يختلف فيه اثنان، فالموسيقى التى فى شعره لا تجارى وألفاظه متخيرة تخيراً عجيباً وكثير من شعره يتمثل به ويجرى على الألسنة جرياً مدهشاً، بل الأصح أن شعره يجرى وفق مقتضيات العصر الحديث، وهذا هو السبب فى أن أدباء هذا العصر يعيدون الحديث عنه وعن شعره بشىء من الإجلال والإكبار.

* * *

لقد حللنا شعر بودلير ونفسيته تحليلا نفسيا مستفيضاً، وقلنا فيما ذكرنا عنه أن "مركب أوديب" جعله يتضرع ضد العالم المألوف ويبتدع لنفسه عالمه الخاص.. وما هو عالمه الخاص؟ إنه عالم بعيد عن الواقع، إن ثورته كلها ضد الواقع ضد الطبيعى فى

الحياة، إنه إنسان مختلف عن الإحياء عزوف عما اعتادوا متعال عن تقاليدهم، هذا هو الأساس فى فهم شخصيته، إنه اصطنع عالمًا لنفسه، عالمًا بسماته الخاصة وأرضه الخاصة، بنى قبته كما يشاء وقد استرسل فى أفكار حقائق الحياة ما شاء له الاسترسال والانفصال، والخارج على المألوف، بهذه الصورة إما شيطان أو "مجذوب" أو مجنون، إما أنه شيطان فقد كان بحق يقلد الشيطان، فقد كان يمارس الخطيئة بكل أشكالها، وكان يتجنب الضحك ويتنافى مع المتعارف من أحاديث الآدميين ويلجأ إلى قول لاذع مركز.

وإما أنه "مجذوب" فإنى أعنى بذلك الإفراط فى الورع لدرجة البلاهة ولقد ظهر من قصائده إفراطه في تمجيد الروحانيات، وإما أنه مجنون فلأن حياته لم تكن حياة إنسان عاقل، ولقد عده الكاتب الشهير الدوس هكسلى شيطانًا من طراز خاص، فهو يعده شيطانًا مؤمنًا، فإن فى أعماقه الرعب من الخطيئة والندم من الإثم وفى باطنه كره الجريمة واستبشاع الشهوات، فقد استنكر العلاقة الجنسية وعدها عملية بشعة وكرر فى أكثر من موضع أنها تقتل الفن، وكرر فى أكثر من قصيدة – كقصيدة الفجر الروحى – استيقاظ الروح وثورتها على الرذيلة، ولكن هذا الشيطان المؤمن بما اصطنع لنفسه من الخلال وما سورها به من الدروع إنما هو شيطان نظرى عاجز، فهو أعجز من أن يمارس الخطيئة حقا، فهو ينادى بها ولا يرتكبها وهو يكتب عنها ولا يطبق ما يكتب، ليس ذلك فحسب بل هو شيطان ضجر فإنه لا يجد لسطوته منفذًا ولا لأوامره اتباعًا لأن شيطانيته مجرد أصداء، وكل الذى أفلح فيه أن كره الحياة وحاول هدمها ولكن حتى هذه المحاولة كانت فاشلة، فإنه لم ينجح حتى فى هدمها ولكنه كان يطعن نفسه كلما أراد أن يطعن الحياة وهو فى عالمه الخاص وكرهه للعالم الخارجى وأسواره التى ابتناها حوله، وكان يحن إلى الحب ويظمأ إليه، إنه أراد حبا غير عادى وحبيبًا غير عادى أراد حبا لا يفضى لعائلة فأحب جان دوفال ولم يجد فى جان دوفال إلا بشاعة الصلة الجسدية البحتة فاعترف بهذا، ولكنه لبث ملازمًا لجان دوفال لا يتركها لأن له لذة فى وصف تفاهة الحياة وبشاعتها وكذلك أحب غيرها وغيرها: يهوديات وغير يهوديات

وقد وصف أجسادهن بالجثث ووصف رائحتهن بنتن القبور، فلما لم يجد فى ذلك الحب أقل ما يرضى أحب حبا مخالفًا لذلك أتم المخالفة، الحب الذى لا دخل للجسد فيه بأية حال، فوجده ينتهى إلى الفشل ومآله للإخفاق، وفكر أن يمارس الاثنين فى وقت واحد مع مختلفين برغم أن ما يخسره فى عبادة الجسد يكسبه فى عبادة الروح فلم ينته إلى نجاح لأنه فى هذا يخالف الطبيعة البشرية، فإن أسمى الحب ما تكون عبادة الروح أساسًا له والجسد غاية لتكوين أسرة وبناء مجتمع..؟

إبراهيم ناجى

صورة من حياة بودلير بقلمه

من بودلير إلى أمه

- ١ -

"سواء في ناحية الجسد أو الأخلاق: عندي شعور بهاوية، ليست هاوية النوم فحسب، بل هاوية الحلم والذكرى، والرغبة والأسف والجمال، إني أنا زرعت هذه الهستريا بسرور ورعب، والآن عندي منها دوار لا يبارحني... واليوم - ٢٣ يناير سنة ١٨٦٢ - عندي شعور غريب، أشعر بجناح الجنون يحلق فوقي".

- ٢ -

ولكنه قبل ذلك في يوليو سنة ١٨٣٩ كتب لأمه الخطاب الثاني: "أشعر أن شيئًا يطير بي - لا أعرف كيف أصفه - كأن رغبة تستحثني على اعتناق كل شيء وكأن عندي خوفًا من الجهل أو خوفًا من الحياة، أو كأنني أشاهد منظر غروب جميل خارج نافذتي، لمن أتحدث عن كل هذا؟ لست بجانبي: لا أنت ولا أعز أصدقائي، ماذا حدث لي؟ إني أردأ مما كنت بالمدرسة، لقد كنت أؤدي عملا بالمدرسة، كان عملا قليلا ولكنه عمل على كل حال غير أنني عندما تغربت صدمت صدمة عنيفة، لقد كنت في قربك أستطيع أن أقوم بعمل ما أما الآن فلا شيء لا شيء، ليس هـذا كسلا لذيذًا ولا بلادة شاعر، إنه كسل غبي بليد.

لم أستطع الإفضاء بهذا لأعز أصدقائى ولم أستطع أن أكشف نفسى له فى أسوأ حالاتى لأنه لابد أن يلمح فى نفسى تغيراً هائلا: إنه عرفنى بالمدرسة فى أحسن أحوالى، كنت أعمل، كنت أقرأ، وكنت أعيش.. أما الآن فلا، ما أكثر أخطائى الآن، وإنها لأخطاء مشينة، إن النشاط الذى كان يدفعنى أحيانًا للخير وأحيانًا للشر لم يبق منه شىء الآن، لم يبق إلا كسل وجمود وضجر، إنى الآن فى عالم من الغرباء ولكنى أحب أمى أكثر من أى وقت مضى، من لى بمن يجردنى من مواهبى؟ إنى لفى حاجة إلى التحول.. اكتبى إلى لا تنقطعى عن الكتابة وإن كانت خطاباتك لى تزيد فى آلامى، إنى أحب خطاباتك لأن حبك ينمو فى داخلى نموا مضطرداً واكتبى عن أبى..".

- ٣ -

إنى آثم فى حق نفسى، إن عدم الانسجام بين إرادتى وكفاءتى لأمر محير لى، والمحير أكثر أننى أعرف واجبى وما هو نافع لى، ولكنى أقوم بعكس ما أرجو تماماً.

ثم يقول:

ولكن هذا الوجود البغيض والكأس الذى أنوى تركه قد أضرا بمعدتى ضرراً بالغاً، إن أعصابى متعبة جدا.. كامرأة.. ولكن هذا أمر لا مفر منه.

- ٤ -

إن الذى أشعر به هو يأس مرير: إحساس بالوحدة لا يحتمل. خوف مبهم من ضرر متوقع، ثقة ضائعة بنفسى، رغبة مفقودة.. البحث عن التسلية فى غير طائل.

- ٥ -

وفى خطاب آخر لأمه سنة ١٨٥٨:

أضيفى إلى متاعبى هذه الظاهرة: عندما تزدحم الأعصاب المرهقة بالمخاوف والآلام، يزحف الشيطان إلى الفكر. وقد أقضى يومًا واحداً فى الراحة ونسيان المتاعب فما يزحف الليل حتى تتواثب المخاوف وإذا بحزن ساحق يسبب لى العجز والقصور.

هل أستطيع أن أكشف لك روحى جميعها، هاته الروح التى لم تقدريها ولم تفهميها، فى طفولتى مررت على حب عاصف لك، لا تخافى من الإصغاء لى والقراءة، إنى لم أكتب لك قبل اليوم، إنى لأذكر يوماً عندما خرجت من المصحة فأريتينى صوراً لى كنت ترسمينها بريشتك، أريتينى إياها لتبرهنى على أنك كنت تذكريننى، ألست أتمتع بذاكرة هائلة؟ وبعد ذلك لا أنسى سيرنا المسافات الطويلة وزياراتنا لأمكنة مختلفة، لا أنسى عطفك المتواصل، لا أنسى سيرنا على الميناء فى الليل الساكن، كان هذا أسعد أيامي وأذكر – إذا ذكرت أنا السعادة هنا – أنك كنت حزينة إذ ذاك،ولكننى كنت أعيش فيك وكنت ملكًا لى.. كنت معبودتى وصديقتى، أيدهشك هذا الحديث، إنى أعود إلى الماضى الذى يرتسم بوضوح الآن، لأنى اليوم صرت أتمنى الموت.. وتذكرين بعد ذلك صرامة زوجك فى تعليمى، إنى الآن فى الأربعين، ولكنى لا أستطيع أن أذكر المدرسة بغير ألم،ولا بغير خوف، ومع ذلك فقد كنت أحبه وأحترمه ولكنى لا أنسى خشونته.

لأدع ذلك، إنى أتخيل الدموع فى عينيك..

بعد ذلك هربت، وصرت وحيداً واندفعت نحو المسرات المثيرة: السفر والأثاث الفخم، واللوحات والنساء، إنى أدفع ثمن كل ذلك الآن، أما من جهة حارسى القضائى فإنى الآن أعلم قيمة المال وكل ماله علاقة بالمال، لقد كان الحارس موجوداً ولكن كل المال على الرغم من ذلك قد ذهب وقد كبرت وصرت شقيا، هل يعود الصبا؟ هذا هو السؤال إنى أرجع للماضى لأجد مبرراً لأخطائى فلا تلومينى، لا شىء يغير من تقديرى لك واحترامى، لقد كنت دائمًا مضحية، إن ميزتك العظمى هى التضحيــة، والآن هأنذا أطلب منك العون والتضحية، إنى فى آخر أدوار احتمالى وصحتى وشجاعتى وليس أمامى غير الدمار والفزع، إن حياتى الأدبية تحكمت، إنى لأهب أى شىء فى الوجود لأراك وآخذك بين ذراعى..

إني في ضيق فظيع، ولقد ارتكبت حماقة مالية، فقد بددت أموالا ليست لي وقد اضطررت لذلك اضطرارًا ولقد كتبت اعترافًا بذلك لصاحب المال ولا أدرى ماذا سيحدث، إن كثيرات من صاحباتي في ذمتهن مال لي ولكن هذه تأبى الدفع وتلك تماطل وتلك مسافرة وهكذا..

أتوسل إليك.. أرسلي من المال ما يقيم أودى ثلاثة أسابيع وسأحاول أن أعمل عملا مستقيمًا مدى هذه الأسابيع، آه لو استطعت ذلك فإني أنقذ عقلي من الجنون، جربي هذه الأسابيع جربي هذه المرة يا أمي فأمري بذلك، اسمعي حديث هذه العشرة السنين: إهمال وتأجيل أعمال اليوم للغد.. الشقاء الشقاء، لقد كنت أقضي ثلاثة أيام في السرير لقلة الثياب وقلة الزاد والوقود، وكنت ألجأ إلى الأفيون والخمر اللذين لا يشفيان حزنًا مطلقًا فوق ما يكلفان من المال، وعندما أعطيتيني خمسين فرنكًا لآخر مرة كنت لم آكل قبلها بيومين، وكنت أعيش على الخمر حتى تلفت معدتي آه!! كم أود أن لا يدرى بهذه الاعترافات مَنْ يصدق أن ابنك ينحدر إلى هذا الحال.

كم أود الهروب إلى بعيد.. مرتب طيب، وسأم ممتد وخمول المنطقة الحارة، إني مضطر للعمل ليلا لكي أتجنب المرأة التي أعايشها، كم هربت إلى مكتبة أو إلى حانة أو إلى قهوة، لقد أصبحت "جان" عقبة في سبيل سعادتي وصارت عقبة في سبيل نضوجي العقلي.. ولا شك أن دفع ديوني والحصول على الألقاب الأدبية التي أحلم بها والشهرة.. إلخ، كل هذا غير مستطاع في مثل هذا الجو، لقد كانت لها خلال جيدة فيما مضى أما الآن فلا، كيف يعيش الإنسان مع إنسان آخر لا يهتم بشئونه، إنسان يعطل هذه الشئون مكرهًا إنها لا تعدني غير خادمها غير ملك لها، إنها لا تستطيع أن تتحدث بكلمة واحدة في الأدب أو السياسة، إنها لا تريد أن تتعلم شيئًا لقد حاولت أن أعلمها ولكنها لا تقدر فائدة ذلك، وإنها لتلقي بكل أوراقي للنيران لو أصابت من ذلك كسبًا ماديا.. لقد ألقت بقطتي - صديقتي الوحيدة - إلى الشارع وجاءت بكلب لأنني أكره الكلاب، إنها لا تعرف معنى الاقتصاد ولو أنها اقتصدت شهرًا واحدًا لأمكنني أن أؤلف كتابًا قيمًا، إن دموع

الخجل والغضب فى عينى، وإنى لآسف أنه ليس لدى سلاح، كيف أنسى أننى كدت أكسر رأسها ذات يوم.. هذه حالى بعد عشر سنوات، كم كنت آمل أن أجد الهدوء والسلام ولكن أين منذ أربعة أشهر وأنا أحاول التخلص منها ولكن كبريائى الفظيعة حالت دون ذلك، كيف أترك هذه المرأة دون أن أعوضها ببعض المال وأين المال؟ إن أمى العزيزة التى طالما أعانتنى لا تستطيع أن تعطينى ما أطلب، أفهمتنى الآن؟ إنى أريد أن أهرب من حياتى كلها، عشر سنوات فى هذا الصراع، أحلامى كلها تبددت، لم يبق لى غير مرارة دائمة، لم يبق إلا اليأس والعزلة وخوف دائم من مصير مجهول وشك نام فى مقدرتى على العمل وشلل للرغبات وانعدام التأسى بأية حال، إنى لا أسأل نفسى ما فائدة هذا ما فائدة كل ذلك فإذا أضفت عدم مقدرتى على العمل إلى تعدد الديون إلى صحتى المعتلة ومعدتى المسكينة أمكنك معرفة كل شيء عنى.. لو أن الهمة تشفى كل الجسم لاشتغلت ولكن أين همتى وإرادتى؟ ما أشد خوفى من أن أموت بدون أن أكمل ما بدأته. ما أشد خوفى من أن أموت دون أن أسعدك.. أسعدك أنت.. أنت الوحيدة التى أستطيع أن أعيش معها، بلا مكر، ولا حيل، ولا كذب.. وأخيراً ما أشد خوفى من أن أموت، قبل أن أتوب عن رذائلى.

مقتطفات من يوميات بودلير

– ١ –

الصحة، الخلق.. إلى هونفلور قبل أن أغرق...

كم من النذر جاءتني، على أن أعمل الآن، إن هذا هو الوقت الذى على أن أنشط فيه، وإن خلاصي من عذابي إنما هو في العمل فقط...

– ٢ –

الصحة، السلوك، الخلق.. كم يسحقنا الإحساس بالزمن، وليس من سبيل للفرار من ذلك الإحساس الساحق إلا بشيئين: العمل والمسرات.. السرور يلتهمنا والعمل يقوينا.. وعلينا أن نختار.

وكلما ملنا لجانب، برمنا بالآخر ولا نستطيع نسيان الزمن إلا باستعماله. والعمل الشاق الطويل، هو الذى يخشى الإنسان البدء فيه.

– ٣ –

لقد فات الأوان، أمي وجـان، وصحتي، وأمـراض جان، وعـزلة أمي وآلامها.. اعمل واجبك وثق بالله.. خلاصة الحكمة: النظافة والصلاة، والعمل.. الصلاة: الخير والحكمة والقوة.

بدون الخير إنى لمعدن براق كاذب، إن كل ما يعترينى من الخطوب هو نعمة الله، ألم ينته غرورى بعد؟ يقول شاتوبريان: إن الشقاء الطويل، له على الجسم الإنسانى، نفس تأثير الهرم والشلل والنوم، إن عذر الشاب أن أمامه الأيام فهو يستمهل حتى يجىء اليوم المناسب للعمل اللازم.

قصائد من "أزهار الشر" - لبودلير

ترجمة - إبراهيم ناجى

الحب

إنى أعبدك، كما أعبد السماء ذات ليل
يا دعاء الحزن، يا أيها الصمت الرهيب
إنى أزداد حبا لك يا جميلتى، كلما تهربين منى
كلما يبدو لى يا حلية ليالى أنك تتعمدين ساخرة أن تزيدى
الأميال التى تبعد ذراعى عن زرقة السماء الهائلة
إنى لأهم بالهجوم فأصعد ولكنى كالدود حول جثة
وإنى لأعشق.. أيتها القاسية.. أيها الحيوان الثائر
حتى هذا الفتور الذى يجعلك رائعة الجمال..

الجمــال

أيها البشر : إنى جميلة كحلم نحت من الصخر
وهذا صدرى الذى من أجله ضحى أناس كثيرون
إنما صنع، ليلهم الشعراء الحب
الحب الأبدى الصامت صمت المادة
إنى أتربع على عرش اللازورد كأبى الهول ذى الأسرار
وعندى قلب يجمع بين نصاعة الثلج وبياض البجعة
وإنى لأكره كل حركة تعبث باستقامة الخطوط وانسجامها
وإنى لا أعرف البكاء ولا أعرف الضحك
وإن الشعراء أمام منصتى العالية
التى اتخذتها من أروع التماثيل وأشدها كبرا
ليستنفدون أيامهم فى دراسة مضنية
لأن عندى – لأفتن هؤلاء العشاق –
مرايا صافية تزيد كل شىء جمالا
هاته المرايا هى عيناى الواسعتان اللتان تشعان صفاء أبديا .

أنشودة الجمال

أيها الجمال : أجئت من أعماق السماء أم صعدت من هاوية ؟
فى مقلتيك جحيم وألوهة
يخلطان الخير بالإثم خلطا مبهما
ولهذا يكون فعلهما فعل السلاف . .
فى مقلتيك الغروب والفجر معا
وإنك لتسكب العطر كمساء ممطر
شفتاك شراب سحرى وفمك قنينة
يجعلان الشجاع جبانا والطفل شجاعا
أجئت من حفرة سوداء أم هبطت من النجوم ؟
إن القدر المحظوظ يتبع أذيالك ككلب ذليل
وأنت تبذر على هواك المسرات والكوارث
أنت تحكم كل شىء ولست مسئولا عن شىء
أنت أيها الجمال تطأ الموتى ساخراً منهم
والرعب ليس أقل جواهرك فتنة
والقتل بين باقى حلاك الثمينة

يرقص على صدرك المتكبر بشغف
تطير الفراشة المفتونة نحوك كما تطير نحو الشمعة
فتحترق وهى تقول : "بارك الله فى اللهب"
وأما العاشق فهو إذ يلهث على صدر جميلته
فهو إنما يشبه ميتا يداعب قبره
وماذا يهم : جئت من الجنة أم من الجحيم ؟
أيها الجمال العملاق المخيف الساذج
ماذا يهم ما دامت عينك وقدمك وابتسامتك تفتح لى
بابا من الأبد أحبه وأجهله
لا أبالي : أمن عند الله ، أم من عند الشيطان ؟
مادمت أيتها الحورية ذات العينين الناعمتين كالمخمل
تجعلين العالم أقل مشقة والأيام أخف عبئا
يا لحنى يا عطرى يا ضيائى يا مليكتى الوحيدة . .

الجرس الخافت

إنه لعذب ومر معًا أثناء ليالى الشتاء
أن نصغى قرب النار التى تنبض وتلتهب
إلى ذكريات بعيدة تصعد ببطء على ترانيم الخشب المستعرة
فيدق جرس كنيسة
قوى الرئتين واضح الجرس
مرت عليه السنون وهو قوى غير مجهد
كجندى عجوز يراقب قرب خيمة
ولكن جرس روحى مشجوج يريد أن يملأ الهواء البارد فى الليالى بأنغامه
فلا يعلو صوته على قعقعة ثم يصمت
كحشرجة جندى جريح ملقى على ضفة بركة من الدماء
يغنى بلا حركة تحت العناء العظيم.

المبــارزة

جنديان يندفع الواحد منهما صوب الآخر
وقد نثر سلاحاهما الضوء والدم فى الهواء
وما هذا الحديد المتلاحم إلا دورة الشباب
فريسة للحب الطاغى
ولقد تكسر السيفان يا حبيبتى.. كشبابنا
وبعد قليل تقوم الأظافر والأسنان مقام الخناجر
بالثورة القلوب الناضجة اجتاحها الحب
إن الجنديين قد انحدرا لهاوية ملؤها الأشباح
ولقد كسا جلدهما فضاءها العقيم
هذه الهاوية جحيم سكنه أصدقاؤنا
فلننحدر نحن أيضا بلا ندم
يا لشيطان الحب، إنه يخلد أحقادنا إلى الأبد.

المجنـــون

لقد تقنعت الشمس فتقنعى أنت
يا شمس حياتى.. بالظلام
بالنوم أو بالدخان كيفما شئت
فى صمت، وسكون
ووقار.. أغرقى فى هاوية الملال
إنى أحبك هكذا
وإذا حلا لك أن تخطرى فى المحلات العامة الحمقاء
كنجم خارج من فلكه فلا بأس
ولكن اخرج أيها الخنجر
من غمدك
وأضئ عينيك بنور الشموع
وأضئ أعين المهرجين شهوة ورغبة
كل شيء منك يسرنى: سواء كنت معتلا أو غير معتل..
مجنونا أو عاقلا.. كن كما تشاء
ليلا قاتما أو فجرا أحمر..
ليست هناك ذرة فى جسدى لا تصيح: إنى أعبدك.

إلى غانية

إني أريد أن أبتني لك يا حبيبتي هيكلا تحت الثرى
في أعماق متاعبي بعيدا عن شهوات الناس وسخرياتهم
ركنا مرصعا بالذهب واللازورد
تقفين فيه وحدك يا تمثالي الرائع
وأضع على رأسك تاجا من أشعاري التي هي معدن خالص
بقوافٍ من البلور
وعندما تثور غيرتي
سأكسوك ثوبا بربريا
صلبا ثقيلا مطرزا بالشكوك
ثوبا يحوط جسمك كأنه حارس
ثوبا لا يُطرز باللؤلؤ ولكن بدموعي
ولكن رغبتي المرتجفة هي التي تكسوك
رغبتي المتموجة التي تعلو وتهبط بين القمم والوديان
رغبتي التي تغمر جسدك الأبيض الوردي بقبلة كبيرة

واحتراما لك، وذلك عند قدميك، سأضع لهما خفا من الحرير

يعانقهما عناقا رقيقا

ويحفظ طابعهما كقالب جميل

وإذا لم يعنى كل فنى أن أجعل من القمر مقعدا لك

فسأضع عند قدميك الثعبان الذى ينهش أحشائى لكى تطأ قدماك

ذلك الوحش المملوء بالضغائن والأحقاد

أيتها الملكة المنتصرة

سترين أفكارى مرصوصة كالشموع على الهيكل منعكسة على السقف محملقة فيك بعيون من لهب

ومادام كل شىء فىَّ يحبك فإن كل شىء سيتحول إلى عنبر وعبير وستنحل روحى العاصفة إلى بخار يصعد نحوك، ولكى أمزج تقديس العذراء بالهمجية ستنتزع الشهوة: سبعة خناجر من سبع خطيئات وسأجعل قلبك المتوارى هدفًا لى.

وسأصوب إليه سبعة سهام

فى قلبك اللاهث

قلبك الوديع.

الشهيدة

لوحة لأستاذ مجهول

بين زجاجات العطر وفي ثياب مذهبة مفضضة فضفاضة، وبين الأثاث الفاخر والصور والرخام، وفي غرفة دافئة في منزل أخضر حيث الهواء خطر مميت وحيث صفت أصص الزهر تحمل طاقاتها كأنها أكفان لها، وكأنما هي تلفظ النفس الأخير تمددت جثة بغير رأس والدم الحي الحار يقطر منها كسيل دافق على الوسادة التي تمتصها كما يمتص الزرع الظامئ ماء يرويه.

وقد وضعت الرأس بشعرها وجواهرها على مائدة قريبة فاختلطت بالخيالات الشاحبة التي يخلقها الظلام.

إنها قد خلت من الفكر وحملقت منتظرة شاحبة غامضة كالفجر، صادرة من عينيها المتطلعتين لأعلى وعلى السرير تجلي الجسد العاري وقد خلا تماما من الفتنة الطاغية التي حبته إياه الطبيعة. بالساقين جوربان ورديان بقفلين ذهبيين كأنهما تذكار وقد عكس رباط الجورب ضوءا ماسيا كعين خفية مشتعلة. إن منظر هذه الوحدة والصورة المعلقة المثيرة لأقصى ما يمكن من الإثارة ليوحي بحب آثم وسرور آثم ومآدب عجيبة تبودلت فيها القبل الجهنمية وكأنما في ثنايا الستر شياطين اختبأت بها مسرورة ويبدو من جمال كتفيها وخطوط جسمها الواضحة الحادة والقوام الممشوق كأنه ثعبان، يبدو أنها حديثة السن، يا ترى هل

روحها الساخطة وحواسها المزدحمة الملولة، يا ترى هل احتفلت بهذه الرغبات المزدحمة الحائرة.

ويا ترى هل ذلك المنتقم الذى لم يشبع منك فى حياته على ذمة حبه

يا ترى هل روى جسدك الظامئ كما تشتهين

أجيبى أيتها الجثة الآثمة

وأجيبى أيتها الرأس الفظيعة هل أمسك بخصلك السوداء وودعك وهو يقبل الفم البارد ؟

نامى بعيدا عن العالم الساخر عن العالم الدنس

نامى فى هدوء بعيدة عن المتطفلين المتسائلين

نامى وادعة فى قبرك المجهول

إن حبيبك الآن يزرع الأرض وخيالك معه وسيكون أمينا لك كما كنت أمينة له

حتى الموت.

الأختان الطيبتان

الخطيئة والموت فتاتان ممتلئتان صحة وابتسامات

إن فخذيهما العذراوين المكتسيين بالخرق لم يلدا بعد وإن كانتا في حمل دائم

للشاعر السيئ السلوك عدو الأسر ربيب الجحيم في قبور ومنازل داعرة أسرة لم يتطرق إليها الندم ذات يوم

والنعش والسرير كالأختين يقدمان لنا المسرات الفظيعة والحنان البشع وقد أخصب فيها التجديف والكفر

متى يحين يوم دفني

أيتها الخطيئة ذات الذراعين الدنسين

ومتى أيها الموت

يا منافسها في المفاتن

متى تختلط زهورك السوداء مع أعشابها الدنسة.

تحـــول غانيـــة

قالت المرأة ذات الفم الرطب كالشليك وهى تتلوى كثعبان يرقد على جمر بينما تضغط نهديها على حديد مشدها :

إن لى شفة رطبة وإنى لا أستطيع أن أسحق الضمير المعتق وإنى لأجفف جميع الدموع على صدرى الظافر فأجعل العجائز يضحكون كالأطفال لأن الذين يروننى عريانة سافرة يرون فى ما يقوم مقام الشمس والسماء والنجوم، أيها الرجل العاقل : إنى محنكة فى استثارة الشهوات حين أعتصر الرجل بين ذراعى أو حين أدعه - وأنا مسترخية حنونة خجولة - ينهش صدرى بأسنانه على هذا المضجع الذى يموج باللذة الثائرة حتى الدوار والذى تلعنه الملائكة العاجزة الضعيفة وبعد ما امتصت الماعز ممتلئة صديداً فتولانى رعب بارد وأغلقت عينى فلما عدت أفتحهما للضوء لم أر التمثال الحى الممتلئ دما ولكننى عثرت على بقايا هيكل يقعقع كالخيال الذى يخيف الطيور الجارحة أو لافتة معلقة فى طرف قضيب تدفعها هنا وهناك رياح الشتاء .

البركة

عندما أرادت القوة السماوية أن يوجد الشاعر فى هذا العالم الضجر صاحت أمه فى كفر وتجديف :

لماذا لم أحمل فى بطنى وكرا من الحيات بدل هذا الشاعر المنكود الحظ لعنه الله .

على ليلة من ليالى الملذات العابرة حملت فيها بما كان عقابا لى فيما بعد .

ما دمت قد جعلتنى يا رب من بين جميع النساء .

سخرية لزوجى الحزين وما دمت لا أستطيع أن ألقى إلى النار هذا المسخ

كخطاب غرام

فسأجعل كل الكره الذى أغرقتنى به هدفا لأداة نقمتك

يتجه لتشويه هذه الشجرة حتى لا تؤتى ثمرا ما

وتجمع زبد الحقد على شفتيها وفى جهلها بالأقدار الإلهية صارت تعد فى قاع الجحيم . . الحطب اللازم وقودا للأمهات الآثمات ولكن الطفل تكفل به ملاك خفى وأخذ الطفل بعد ذلك يمثل من الضوء ويشعر فى كل ما يتناوله ويشربه بشهد شهى ورحيق مسكر وأخذ يلعب مع الرياح ويتحدث للضباب وينتشى بالتغنى للصليب .

أما الملاك الذى تبعه فى طوافه فبكى حينما رآه مرحا كطائر غريد أما الذين أحبهم فنظروا إليه بخوف.. وكلما أبصروه هادئا بحثوا عما يثير شكواه.

وجربوا معه كل وحشياتهم: فبصقوا فى خمره ووضعوا الرماد فى الطعام الذى يأكله وأخذ المنافقون يلقون مما يصل إلى يده مدعين أنه اعترض طريقهم هم.

أما زوجته فصارت تصيح فى الأماكن العامة: "مادام يعبدنى فسأتبع معه طريق المعبودات القدامى".

فسأتطيب من جديد

وسأكثر من العبير.. اللحم.. والخمر

لأجرب إذا كنت أستطيع أن أنتزع منه القرابين الإلهية.

وإذا ضجرت من هذه النزهات فسأضع على صدره يدى القوية.. وبأظافرى المسننة المحددة سأشق طريقى إلى قلبه.

وسأنزع هذا القلب من صدره كطائر صغير يرتجف ويترنح، ولكى أستطيع أن أشبع وحشى الظامئ فسألقى بالقلب إلى الثرى فى احتقار.

فوجه الشاعر بصره للسماء حيث رأى عرشا منيرا رفع ذراعيه التقيين لأعلى

وإذا بأنوار خاطفة تحجب عنه أحقاد الناس الغاضبين

هتف الشاعر شكرا لك ربى يا من تمنح الألم دواء لأخطائنا وهو الزاد الوحيد الذى يهيئ النفوس القوية للمسرات الإلهية.

رب إني لأعرف أنك استبقيت مكانا للشاعر فى ركن من أقداسك السماوية

* * *

الألم هو المجد الوحيد الذى لا تأكله النار ولا التراب الذى على أن أتزود منه دائما وأبدا

لكى أضفر لنفسى تاجا عبقريا

رب.. إن الجواهر قديمها وحديثها وكل لآلئ البحار لا تقوم مقام هذه الدرة الباهرة لأنها إنما جمعت نورها الزاهر من اقتباس السر الإلهى.. نورا تتضاءل بجانبه الأنوار البشرية جميعها ولا تعود غير مرايا قاتمة.

الفنــاء

حول جثتى أحسست بالشيطان
إنه يسبح حولى كهواء غير محسوس
استنشقه وأحس به يحرق رئتى
ويملؤها بشهوة أبدية مجرمة
وإنه ليعرف حبى للفن
فيتخذ شكل امرأة فاتنة مغرية
وبشتى الطرق والمحاولات يلصق شفتى بأقداح محرمة
وبهذا يبعدنى عن أعين الله
متعبا جاهدا لاهثا
فى صحارى متسعة من الضجر عميقة مهجورة
متفتحة... وثوبا داميا هو ثوب الفناء.

الشـــرفـة

يا أم الذكريات يا سيدة الحبيبات
أنت يا كل مسراتى وأنت يا كل واجباتى
أتذكرين حلاوة القبل
ورقة المأوى وفتنة الأماسى
يا أم الذكريات يا سيدة الحبيبات
الأماسى المضاءة بلهيب الفحم
وأماسى الشرفة مقنعة بأبخرة وردية
ما كان أروع صدرك وما كان أحنى قلبك
كم من أقوال خالدة نطقنا بها
فى الأماسى المضاءة بلهيب الفحم
ما كان أبهج الشموس فى الأماسى الدافئة
وما كان أعمق الأفق وأعنف دقات القلب
وأنا أنحنى عليك يا مليكة المعبودات
كنت أستاف عطر دمك
ما كان أبهج الشموس فى الأماسى الدافئة

تكاثف الليل وأطبق علينا
فحدقت بعيني أبحث عن إنسان عينيك
وشربت أنفاسك يا أيها الدمار اللذيذ
ووسدت أقدامك فى قبضتين أخويتين
وتكاثف الليل وأطبق علينا
وإنى لأعرف كيف استثير جميل الذكريات
لقد عرفت كيفَ أعبد ماضى عند ركبتيك
وهل لى أن أبحث عن الجمال
بعيدا وهو هنا عند جسدك الرائع وقلبك الحلو
إنى لأعرف كيف أستثير جميل الذكريات
هذه المواثيق هذه العطور هذه القبل
ستصعد من هاوية بعيدة القرار
كما تصعد شموس جديدة شابة
بعد أن اغتسلت فى بحار عميقة
أيتها المواثيق أيتها العطور
أيتها القبل التى لا عداد لها . .

نبـــع الـــدم

يخيل لى أحيانا أن دمى يسيل متدفقا
كنبع موقع الأنات ينساب فى همسات
وإنى لأصغى إليه يتحدر فى شكاية طويلة
وعبثا أتحسس نفسى فلا أجد الجرح
عبر المدينة كما فى حقل مغلق
يترامى محوِّلا الطرق إلى جزائر دم
تطفئ ظمأ كل مخلوق
وتضرج الطبيعة بلون أحمر
طالما طلبت من الخمر نوما مخدرا
تهدهد الذعر الذى ينخر فى عظامى
فإذا الخمر تجعل العين أصفى والأذن أدق سمعا
فطلبت من الحب نوما يساعد على النسيان
فلم يكن الحب إلا فراشا من الإبر
صُنِعَ ليسقى من دمى هؤلاء الفتيات القاسيات.

إلى حبيبة مرحة

رأسك وإيماؤك وروحك

جميلة كالريف الجميل

والضحكة التي على وجهك تشبه النسمة الرقيقة في سماء صافية وحتى الشجن الحزين الذى على وجهك تمحوه نضارة تلك الصحة التى تلمع كالضوء القوى واثبة من ذراعيك وكتفيك.. الألوان الصارخة التى تتزينين بها تجعل الشعراء يتخيلونها مواكب زهر.. وهذه الأثواب المرحة رمز لروحك المرحة الضاحكة التى أنا مجنون بها.

إنى أكرهك بقدر ما أحبك.

وكم من مرة فى حديقة بينما أنا أجد سأمى، شعرت بالشمس

تسطع بسخرية على فأحسست أنها تمزق صدرى

وأرى الربيع والخضرة يشعران قلبى بالذلة حتى لقد عاقبت

وقاحة الطبيعة بأن سحقت فى يدى بعض زهراتها

وكم تمنيت ذات ليلة عندما تدق ساعة الشهوات أن أزحف نحو كنزك

حتى أعاقب جسدك المرح

وأصب النقمة على صدرك الذى نال الغفران وأصب فى أحشائك الذاهلة جرحا غائرا

فأحدث جرحا واسعا عميقا

يا للذة التي ترنحني حينما أهوى على هذه الشفاه الجديدة التي هى أجمل وأعذب من شفتيك

فأصب سمي يا أختي.

الإنسان والبحر

أيها الرجل الحر أنت تحب البحر
فالبحر مرآتك تتأمل روحك فيه
وفي تداول صفحاته بلا انتهاء
وليست روحك أقل عمقا من أعماقه
وإنك لتسر بغوصك في أعماق نفسك
وتحتضنها بعينيك وذراعيك
وربما نسي قلبك خفقاته
على صوت تلك الشكاية الجريئة القوية
أنتما الاثنان مظلمان مغرقان في الأسرار
أيها الإنسان ليس هناك من سبر أغوارك
أيها البحر ليس هناك من يعرف كنوزك الخفية
ما أكثر حرصكما على الأسرار
وهكذا تمر قرون وقرون
وأنتما تناضلان بلا شفقة ولا ندم
كم تحبان الفتك والموت
أيها المصارعان الأبديان
أيها الأخوان الحاقدان.

البـــوم

على الشجر الذى اتخذته مأوى
جلست البوم فى صفوف
كآلهة غرباء
تقذف الشرر أعينهم الحمراء
وقد استرسلوا فى التفكير
بدون حراك ينتظرون الساعة القاتمة
عندما تميل الشمس للغروب
وقد دفعتها الظلمات لتحتل مكانها
وإن عملها هذا ليعلم الحكيم:
أنه فى هذه الدنيا يجب أن يتجنب الضجيج أو الحركة
وأن عاشق الظلال العابرة يحمل عقاب نفسه لأنه مغرم بالتغيير.

الشعر

أيها الصوف متجعدا حتى الجيد
أيتها الخصل . . أيتها الرائحة المخدرة
يا للسرور . . إنى أود أن أملأ المخدع الخفى بالذكريات النائمة فى هذا الشعر
فأمد يدى لأبسطه فى الهواء كمنديل . .
آسيا الغافية ، وإفريقيا المحترقة
دنيا بعيدة على وشك النسيان
تستتر فى أعماقك أيتها الغابة المعطرة
وكما تسبح الأرواح على الحان الموسيقى
تسبح روحى فى جو أريجك يا حبيبتى
أمضى إلى هناك حيث الشجر والرجال ممتلئون رحيقا
ينتشون طويلا فى ذلك الجو
أيتها الخصل القوية كونى أنت الأمواج التى تحملنى
إن فيك يا بحر الأبنوس حلما رائعا . .
حلم الشراع والمجداف والنار والصارى
ميناء فخمة تعب منها روض عطر الأريج والنغم واللون .

بينما المراكب تنزلق على الذهب والفضة
وتفتح ذراعيها لتعانق مجد سماء نقية
ترتعش فيها حرارة أبدية مغمورة بالدفء الأبدى
سأدفن رأسى السكرى فى ذلك الأقيانوس الأسود الذى يضمه آخر
وستعثر عليك روحى التى تداعبها الخصل
أيها الخمول الخصب
يا أرجوحة دائمة للبطالة المضمخة بالطيب
شعر أزرق مظلة من الظلمة الممدودة
أنت تعيدين لى اللازورد العظيم المستدير
على ثنايا الخصل الملتوية
بينما تسكرنى سكرا عنيفا تلك الروائح المختلطة
من الكاكاو والعطر والقطران
ستضع يدى فى شعرك الجعد.. الياقوت واللؤلؤ
حتى لا تعودى صماء عن نداءاتى
ألست الواحة التى أحلم بها
والقنينة التى أجرع منها خمر ذكرياتى؟

الرائحة المسكرة

عندما أغمض عينى فى ليلة من ليالى الخريف
أشتم رائحة صدرك الدافئ
وأرى شطآنا سعيدة تمر
مضيئة بأنوار شمس رتيبة
جزيرة وهبتها الطبيعة
شجرات فريدة وأثمارا شهية
ورجال أقوياء مشرقو القدود
ونساء ذوات عيون صافية صريحة
ويقودنى عطرك إلى أجواء ساحرة
فأرى موانئ مملوءة بالشراع والصوارى
ومراكب مثقلة بما حملت على الموج
وهناك عطر التمر هندى الأخضر
يملأ الهواء ويعطر أنفاسى
فيختلط فى روحى مع غناء البحارة.

ســـمـــو

فوق البرك وفوق الوديان
وفوق الجبال والغابات والسحب والبحار
بعد الشمس بعد الأثير
بعد حدود الفلك المكوكب
أنت يا روحى تجولين بخفة
كالسباح الماهر مترنحا فوق الأمواج
وإنك لتمخرين فى أعماقها العظيمة
بلذة مذكرة قوية
طيرى عن هذا العفن المريض
تطهرى فى الآفاق العليا
واشربى ذلك الرحيق السماوى
تلك الشعلة الصافية التى تملا الأجواء الشفيفة
وراء الضجر ووراء الأحزان
التى تجثم بثقلها على الوجود الغائم
ما أسعد الذى له جناح قوى

يطير به حيث الضوء والهدوء
ذلك الذى تشبه أفكاره أفكار العصافير
التى تطير كل صباح نحو السماء فى أسراب
ذلك الذى يحلق فوق الحياة ويفهم فى غير عناء
لغة الزهور والأشياء الصامتة.

قطوف

تعقل يا ألمى واهدأ قليلا
كنت تطلب المساء فها هو ذا يهبط
ها هو ذا يلف الوجود فى جو قاتم
يحمل الهدوء لهؤلاء والحزن لهؤلاء
بينما البشر السادرون يزدحمون
تحت سوط اللذات ذلك السوط الذى لا يرحم
فيقطفون الندم فى عيد الذل
يا ألمى أعطنى يدك تعال من هنا
ابتعد وانظر إلى مواكب السنين الميتة
على شرفات السماء فى أثواب بالية قديمة
بينما يصعد الأسف من أعماق اللج
وتنام الشمس المريضة تحت قوسها
ويمتد كفن طويل نحو الشرق
أصغ أصغ يا صديقى إلى خطوات الليل .

أحزان القمر

في هذا المساء يحلم القمر بكسل
كغانية كسولة ترقد على وسائد عدة
ويدها الناعمة تمر في حنان
قبل نومها تتحسس صدرها
وعلى ظهور الثلج البيضاء الرخوة الناعمة
يضمحل في غيبوبة طويلة
ويجيل عينه في رؤى بيضاء
تصعد في اللازورد كزهور تتفتح
وأحيانا في كسله الكبير
يرسل القمر دمعة خفية شاكية
تشبه قطعة متألقة من الماس
فيتلقاها في راحته ذلك الشاعر النقي عدو النوم
ويحفظها في قلبه بعيدا عن عيون الشمس.

الموسيقى

إن الموسيقى تشبه البحر
الذى على أمواجه أصل إلى نجمتى الشاحبة
تحت سقف من الضباب أو فى أثير رحب
فأدفع بشراعى إلى الأمام وتمتلئ رئتاى
كأنهما شراع
أشق به الأمواج
وأمتطى ظهورها المتكاثفة
التى حجبها الليل عنى
فترتجف كل العواطف فى أعماق نفسى
كسفينة تناضل
وتقاسى عصف الرياح
التى تؤرجحها على حافة الهاوية
وأحيانا لدى هدوء عجيب
وانبساط مرآة تعكس يأسى.

جمــال المســاء

تعالى فانظرى تترنح

زهرة على فروعها كمبخرة

ويرقص العطر والنغم فى نسيم المساء

رقصة مشجية مذيبة الضنى والدوار

كل زهرة تتبختر كآنية العطر

وتهتز أوتار القيثارة كقلب ذبيح

رقصة مشجية وضنى مذيب

بينما السماء هادئة جميلة

كمخدع مريح

تهتز أوتار القيثارة كقلب ذبيح

قلب حنون يكره العدم الرحب الأسود

والسماء هادئة جميلة كمخدع مريح

بينما الشمس غارقة فى دمها المحترق

قلب حنون يكره العدم الرحب الأسود

ويلم شتات الذكريات

المضيئة من هنا وهناك

بينما الشمس غارقة فى دمها المحترق

وبينما ذكراك فى نفسى تشع كالمصباح .

العملاقة

كم تمنيت والطبيعة فى قوتها الأولى
أن نخلق كل يوم عمالقة صغارا
وأن أعيش فى كنف عملاقة صغيرة
تغط نشوانة تحت أقدام ملكة
أحب أن أعيش
وكنت أحب أن أراقب
أزهار جسمها وروحها معا
ونموهما فى ذلك الغيث الباهر
وكان يلذ لى أن أسبر غور قلبها
لأعرف الذى يحمل نارا قاتما
ويعكس فى عينها ضبابا رطبا
وكان يلذ لى أن أتتبع خطوط جسمها الرائع
وملتقى ركبتيها الفضيتين
وفى الصيف بينما الشمس تلقى شعاعها على العشب

وقد حل بنا التعب

أدعها تستلقى على العشب

فأرقد فى حماية ظلال ثدييها

كالوادى الناعم فى ظل جبل .

دعوة للسفر

يا طفلتى يا أختى فكرى فى المتعة
التى نجنيها من أن نعيش معا هناك
نحب فى هدوء
نحب و نموت
فى البلاد الشبيهة بك
شمس هينة مبللة
سماء ذات غيوم
ولهذين جمال الفتنة الخفية
التى لأعينك الخائنة
إذ تلمع عبر الدموع
هناك لا يوجد غير النظام والجمال
الترف والهدوء والمتعة
أثاث لامع مجلو بيد السنين
سيزين مخدعنا وزهور نادرة

تخلط رائحتها بالعنبر

السقوف الفخمة

المرايا الصافية

الجلال الشرقى

كل هذا يناجى النفس خفية

ويحدثها بلغتها الأصلية

على هذه القنوات

تنام المراكب ذات النزعة البوهيمية

كل هذا ليحقق أقل أمانيك

لقد نزحت من أقصى البلاد

وهذه الشموس الغاربة

تكسو القنوات والمدينة

كلها بالذهب

والدنيا نائمة

فى نور دافئ رحيم

هناك لا يوجد غير النظام والجمال

الترف والهدوء والمتعة.

من الأعماق

إنى أتوسل إليك أنت الوحيدة التى أحبها
من أعماق الهاوية التى تردَّى فيها قلبى
من ذلك العالم الحزين القاتم
الذى يسبح فيه اثنان : الفزع والكفر
شمس بغير حرارة تحلق ستة أشهر
وستة أشهر يغطى الليل جميع الأرض
إنها لأرض عارية أكثر من القطب
لا حيوان ولا أنهار ولا خضرة ولا أدغال
وليس أقسى فى بشاعته
من برد تلك الشمس الثلجية
وذلك الليل الرهيب الذى يشبه الفوضى الأولى
إنى لأحسد أحقر الهوام
الذين يغطون فى نوم بليد
ولا يشعرون بمر الأيام.

إلــى عـــابرة

الطريق حولى بضجيجه يصم الآذان
فمرت أمامى سيدة ذات يد جميلة
ترفعها لتصلح ثوبها وقرطها
طويلة رشيقة ترتدى السواد فى حزن أنيق
رشيقة نبيلة لها ساقا تمثال
فأخذت أعب بإفراط
من عينيها الصافيتين اللتين فيهما بذور العاصفة
أخذت أعب العذوبة التى تفتن
والنشوة التى تقتل
برق ثم ليل أيها الجمال الهارب
الذى بعثنى فى لحظة
ألاَ أراك مرة أخرى إلا فى الأبد
بعيد عن هنا بعد زمن طويل
ربما لن يكون هذا لأنى لا أدرى إلى أين تهربين
وأنت لا تعلمين لأين أذهب
أنت التى كان يجب أن أحبها والتى كان يجب أن تعرف .

العمـــى

انظرى تأمليهم يا روحى
ما أتعسهم
كتماثيل الأزياء
تثير الضحك الغامض
كأنهم منومون
تنطلق محاجرهم إلى
حيث لا تعلم فى عالمهم المظلم
عيونهم التى انطفأت فيها الشعلة الإلهية
تلوح كأنما ينظرون إلى بعيد
نحو السماء
إنهم لا ينظرون أبدا إلى أسفل ولا تميل إلى هناك
رؤوسهم الثقيلة
وهكذا يقطعون الظلام اللانهائى
الأخ الشقيق للصمت الأبدى
أيتها المدينة: كل هذا بينمـا أنت تضحكين
وتغنين حولنا مندفعة فى سرور عارم

انظري: ها أنا ذا أنطلق أيضا ولكن أكثر منهم
فأندفع أنا بدوري
وفي بلادة أكثر منهم أقول وأسأل:
لماذا ينظرون إلى السماء
كل هؤلاء العمي.

الهـــرة

تعالى يا هرتى الجميلة.. ارقدى
على قلبى الذى يحبك
ابعدى مخالبك ودعينى
أحدق فى عينيك العميقتين
اللتين يختلط فيهما لمعان المعادن
عندما تمر يداى عليك فى رفق
وعلى جسمك اللدن
وترتعش كفاى سروراً
إذ تمران على جسمك المكهرب
أرى حبيبة خيالى
عينها كعينك أيتها الهرة المحبوبة
عميقة باردة ولكن تقطع فى قلبى كسكين
ومن فرعها لقدمها
شىء غامض عطر خفى
يسبح حول جسدها الأسمر...

القــبر

إذا حدث فى يوم ثقيل، جهم
أن مسيحيا أخذته الشفقة عليك
ودلف إلى قبر قديم
ليدفن جسمه البالى
فى ساعة تغمض النجوم العفيفة عيونها
.. عيونها المثقلة
سينسج العنكبوت خيوطه
وتضع الحية صغارها
ولا تسمع طول العام
على رأسك المضنى
إلا عواء الذئاب
والساحرات الكاذبات
وأشلاء العجائز
ومؤامرة لصوص الظلام.

الندم المتأخر

عندما ترقدين يا حسنائي السوداء
في قبر أسود الرخام
وعندما لا يكون لك مخدع
إلا قبو مثقوب في حفرة
وعندما يخنق الحجر صدرك الخائف
وفخذيك بخطوطهما الناعمة الساهية
يمنع قلبك أن يضرب أو يريد
ويمنع قدميك من أية جهة يريدانها
عند ذاك يناديك القبر الشبيه بأحلامي الأبدية
لأن القبر يفهم الشاعر
ويهمس لك في ليالي السهاد الطويلة
أيتها الغانية ماذا يجديك
أنك لم تعرفي ممَّ يبكي الموتى؟
ثم يأكلك الدود أكل الندم

* * *

ذات ليلة عانقت يهودية داعرة
وبتنا كجثتين فى سكون الموت
فتأملت جسمها الذى اشتريته
وقارنته بالجمال البرىء الذى لا يشترى
وذكرت ذلك الجمال القديم
والنظرة الجريئة، والمشية الرشيقة، وتنفست عطر شعرها
تلك الذكرى التى بعثت حبى القديم
وإنى لأتمنى أن أقبل جسدك هذا
من فرعك إلى قدمك
قبلات لا عدد لها
لو أنك ليلة واحدة
أيتها الملكة القاسية
سكبت دمعة واحدة غَشَتْ لمعان عينيك اللاهيتين.

العـــائد

كملاك سيئ القصد

سأعود إليك عندما تنامين

في سكون والليل ينتصف

سأتسرب إليك مع الأشباح

يا فتاتي السوداء

إن كل قبلة ستكون باردة كقبلات القمر العفيفة

سألف حولك كالثعبان

يلتوي في قاع حفرة

وسيطلع الفجر الشاحب

فيريك مضجعي خاليا

باردا حتى مجيء ليل آخر

لن أعود إليك بالحنان المألوف

سأحكمك وأملكك

بقوة الخوف وحده.

حـــديث

سماء خريف وردية اللون
ولكن أفكارى تعصف كأمواج المحيط
وتمتد حتى تترك على الشفاه
الشفاه الكسيرة ذكرى مرة
لماذا تتحسسين صدرى.. عبثا تصنعين
إنما تبحثين عن شيء ممزق
من مخالب امرأة وأسنانها الغاضبة
لقد شبع الوحوش منى فلا تبحثى عن قلبى
إن قلبى قصر وطئته أقدام قتلة يسكرون
ويسفكون ويلغون فى الدماء
ما أروع العطر الذى فى صدرك
أيها الجمال يا حاصد الأرواح
تعال بمقلتيك الناريتين المتوهجتين
واحرق أشلاء الضحية.

العكس

أيها الملاك السعيد... أتعرف الألم والعار والندم والنحيب
والضجر والعذاب والفزع التى تصيب القلب إذا خيم الليل
القلب الذى ينكمش انكماش الورقة المطوية
أيها الملاك السعيد أتعرف الألم؟
أيها الملاك الحنون أتعرف البغضاء؟
اليد المقبوضة سرا والدموع المرة عندما يدق الانتقام الرهيب دقته الجهنمية
البغضاء التى هى قائدنا فى الحياة
أيها الملاك الحنون أتعرف البغضاء
أيها الملاك المانح الصحة
أتعرف الخمر أتعرف الغرفة الطويلة البيضاء والمنفيين الذين يبحثون هناك
عن بصيص من النور، أتعرف القدم المتعثرة؟ والشفاه المتقلصة؟
أيها الملاك المانح الصحة: أتعرف الخمر؟
أيها الملاك الجميل أتعرف هول الهرم؟
أتعرف الغضون؟
وذلك العذاب الفظيع عندما تقرأ الرعب الخفى فى العيون المخلصة

العيون التى طالما تعبت منها عيوننا الظمآنة
أيها الملاك الجميل أتعرف الغضون ؟
أيها الملاك السعيد
الملآن بالحبور والنور
إن داوود كان يتمنى الصحة
من إشعاعات جسدك المسحور
إنى لا أطلب منك شيئا
غير الدعاء
أيها الملاك السعيد
الممتلئ بالحبور والنور.

حنين إلى الفناء

-١-

عندما تجثم السماء المنخفضة علينا كغطاء
على الروح الفريسة لضجر طويل
وقد عانقت كل الدائرة الغائمة فى الأفق
تلقى السماء إليها يوما أحلك من لياليها
عندما تتحول الأرض إلى مخبأ رطب
وقد أخذ الأمل يضرب الجدران بجناحه الخائف
كخفاش يقرع رأسه فى سقف متداعٍ
عندما ينهمر المطر متدفقا فى سيول
كسجن كبير ذى قضبان
يخيل إلىَّ أن عناكب كريهة
تنسج خيوطها فى أعماق فكرى
وفجأة تقرع أجراس مدوية
لتقرع أرواح غريبة لا وطن لها
تصارع وتناضل بعناد

وإذا صنوف طويلة من التوابيت
بلا طبول ولا موسيقى
الأمل المهزوم يبكى، والألم الشنيع المستبد
على هامتى المنكسة يرفع علما أسود

-٢-

عندى ذكريات رجل معمر عمره ألف عام
عندى خزانة مملوءة بقصاصات من الشعر
وقصائد ورسائل غرامية وقضايا وروايات
مطوية فى إيصالات بحسابات تجارية
وهذه الأسرار أقل بكثير مما يحمل فكرى الحزين
عندى هرم كبير
كهف ضخم
فيه أموات أكثر عددا من المقبرة العامة
إنى لمقبرة بعيدة عن ضوء القمر
ويسرى فيها الدود مسرى الندم
ينخر فى عظام أعز الناس عندى
إنى لمخدع قديم ملىء بالزهور الذابلة
ولوحات شاحبة طال عليها القدم

يشتم منها رائحة قنينة بلا غطاء
ما أطول الأيام العرجاء
تحت برد السنين الثلجية
حيث يأخذ الضجر وهو وليد عدم المبالاة
صورة مشوهة من الخلود
منذ اليوم أنت أيتها المادة الحية
لست إلا تمثالا منحوتا حول خوف غامض
راقدة فى صحراء عليها ضباب
لست إلا أبا الهول المجهول فى دنيا جاهلة
نسى فى مكانه من الأرض
وأصبح لا يفتر ثغره إلا للشمس الغاربة.

الجـواهــــر

كانت حبيبتى عارية، ولكنها لبست حليها
لبستها لى، إرضاء لرغبتى
لكى تعيد إلى صوراً من عصور السيادة
وترينى العبدة مزهوة بانتصار مولاها عليها
...
وأخذت الحلى تتراقص
وكان صوتها الساحر يجمع بين صوت المعدن المتألق والجوهر النفيس
وقد ملأتنى أصواتها بالسرور والنشوة
فالأضواء والأصوات والألوان تمتزج فى لحن هادئ
...
وقد استرختْ على المقعد تنتظر قبلات الحب
وأخذت تبتسم مسرورة
تلقاء حنانى، وكان حبى يبدو كبحر هادئ عميق
بينما تتجمع الأمواج المزبدة لوثبة فوق الصخور
وأخذت عيناها كعينىْ نمرة مروضة تحدق فىَّ

وصارت تغير أوضاعها وهى حالمة
فى صراحة ممزوجة برشاقة الحس
لتصحب كل حركة بفتنة نادرة
صرت أتطلع لذراعيها وساقيها وفخذيها
تتثنى تثنى البجعة
ورويدا احتوت عيناى المتألقتان كل جمالها
حتى بطنها ونهديها كروم خمرى
كل هذه المحاسن اقتربت نحوى.. كملاك سيئ
أقلقت روحى وبددت هدوئى وحطمت عقلى الزجاجى
الذى استترت وراءه روحى فى سكون
محاسن غريبة تجمعت فذكرتنى بانثيوب
بفخذيها العريضين
نهديها المراهقين
كم كان خصرها الدقيق يجلو ثقل أعضائها الأخرى
وكانت صبغة الأحمر فى شفتيها على اللون النحاسى رائعة وكان المصباح
قد أخذ يخفت نوره وأقسم أن يموت ولم يعد غير لهب الوقود
وكلما تنفس اللهب نفسه الأخير
عكس لون الدم على ذلك الجسد العنبرى.

الفجر الروحى

عندما يطلع الفجر الأحمر على خطيئة
وبينما يختلج الشرف الغالى اختلاجة الندم
فإن هناك تعويضا غريبا يقوم
إذ يستيقظ ملاك من خلف هذه الوحشية
وتتفتح سماوات روحانية فى لازورد فضى
أمام عينى الرجل الخاطئ المتألم
تتفتح وتتمتع ويكون لها عمق الهاوية
هكذا يا إلهتى يكون الطهر والنقاء
اطلعى على أنقاض المعاصى ودخانها
اطلعى باهرة ساحرة لعينى
لقد غطت أشعة الشمس على أضواء الشموع
فانتصرى دائما
انتصرى.. أيتها الروح العظيمة
أنت كالشمس الخالدة.

شكوى

إن عاشق المومس يستطيع أن يشترى المسرة
ويكتظ بالمفاتن
ولكنى أكفِّر بذراعى عند عنان السماء
أيتها الكواكب المشتعلة فى الفضاء
من أجلك كان هذا الألم
إذ أستعيد ذكرى جلالك
بعينين ألهبتهما وأحرقتهما
كم تمنيت.. وعبثا حاولت بلوغ محيط الفضاء ومركزه
فى وسط اللهيب جناحاى محترقان
إن الجمال يحرق كل مدَّعٍ
ويحرم علىَّ الشهرة التى أبتغيها بعد الموت
أن ينقش اسمى على الهاوية المسماة قبرى.

روح الخمـــر

ذات ليلة نادتنى روح الخمر

من الزجاجة هاتفة : أيها التعس

إن كـان الزجـاج لى سـجنا والختم حـائلا، فـإنى أسـكب أغنيـة الأخـوة والضيـاء...

فى ذلك العمل المضنى فى وهج الشمس وتلك الساعات المتعبة فى حرها

ولكى يستطاع أن تطير روحى إليكم

فقد كافأتكم عليه بالجميل وبالقصد الطيب

كم يجد المتعب من متعة ولذة بينما أنحدر فى جوف جاف كأنى أنتحر

فإن الصدر الحبيب ألذ لى من قبر حار فى خلية خمر

أفكر فى يوم الراحة والثرثرة

وأسمع ألحان أغنيتى

بأكمام مطوية وزنود على المائدة

إنكم تعبدوننى لأنى أشبع البهجة فى الجميع

سأعلم زوجتك البِشْرَ والإيناس

وأصبغ خدىْ ولدك أحمر قانيا

وأبعث القوة فى مصارع الحياة

وأكون الزيت الذى يلين عضلاته ويقويها

هكذا تسقط البذرة حيث أرادها الله

البذرة التى تحمل الرحيق ستجدكم صعيدها

ومن امتزاج الرحيق بالصعيد

يخلق الشاعر وتبدع روحه التى من ميلادها تنمو السماء.

أنشودة حزينة

إني لا أقدرك من أجل فضلك
ولكنى أحبك أن تكونى جميلة وحزينة
فسيزيدك الدمع جمالا
كقناة فى وسط جنة
كعاصفة تجدد شباب الزهور
أحبك بالأكثر عندما يتبدد السرور وعندما يغشى الضباب جمالك
عندما يغرق الخوف قلبك وروحك وعندما يجثم كالغمامة
شبح الماضى المخيف على حاضرك
عندما تنحدر الدموع الحارة كالدم
وعندما تحترق يدى التى تهدهد ألمك الثقيل
كحشرجة متألم محتضر
يا رمق حياتى يا مسرتى الإلهية
يا أغنية تطرب أذنى
إن كل أحزانك ملك لى
وفى أعماق قلبك أضواء
أضواء كنوز هى لآلئ دموعك

ذلك القلب الذى ازدهرت فيه العواطف وذبلت
والذى يستطيع أن يكن حبا بلا جذور
لا يزال مشتعلا
وعند ملتقى نهديك تلمع بقية من كبرياء قوم
اغتالهم جحيم الحب
ولكن حتى تعبر أحلامك عن الذعر الذى أشعر به
وكل حلم مزعج يسير بك لأرض الفزع
حيث السم والسيف
وحيث يلتحم النار والحديد
وحتى لا تعرفى غير الشقاء
ولا تتشبث يداك بغير فروع الرعب
فتتشنج عضلاتك على الدوى
حتى تشعرى بهذا
هيهات أن تعرفى بشاعة الحياة
ليس قبل هذا يا مليكتى
وحتى لو عرفته فى حبى أنا وذعرى والليل البهيم يطوينا معًا
قبل هذا لن تناديني ملكا عليك ولن تقولى: هذا توأم روحى.

ســـوء الحـــظ

سيسفوس . . إنى فى حاجة إلى كل شجاعتك لرفع هذا العبء الثقيل
بالرغم من الإرادة والعزم
فإن الفن طويل والعمر قصير
لا أبتغى ضريحا شهيرا
ولكنى أتمنى قبرا متواضعا
لأن قلبى يضرب كطبل غامض الدوى
كأنه لحن جنائزى يزفنى للموت
كم من جوهرة تنام مكفنة
فى ثنايا ظلال قائمة تحجبها
وتجعلها لا ينظر إليها أحد ولا يحس بها أحد
وكم من زهرة حيية خجولة تقطر عطرها الخفى
وتضيعه فى قفاز الوحدة .

أغنيـــة

إلى أعلى الناس وأجمل الناس

التى تملأ قلبى بالضياء

إلى الملاك إلى المعبود الخالد

سلام الخلود

إنها تنتشر ملء حياتى

كما ينتشر النسيم المملوء بسطح البحر

وتستهدف خلودا فى أعماق روحى التى لا ترتوى أبدا

أيتها الزهرة الأبدية النضارة والعذوبة

يا من لها جو مخدع عزيز

فيه مجمرة خفية تحترق

سرا خلال الليل

كيف .. يا حبى الذى لا يفنى

كيف أعبر حقا

عن قطعة من المسك مستترة

في أعماق كياني

إلى أعلى الناس وأجمل الناس التي هي صحتي وسروري

إلى الملاك إلى المعبود الخالد.. سلام الخلود.

السفينة الجميلة

سأحدثك أيتها الساحرة الجميلة
سأحدثك عن شبابك الغض
سأصف لك جمالك
الذى تلتقى فيه الطفولة بالأنوثة
عندما تمرين فى ثوبك الفضفاض تشبهين سفينة فى عرض البحر
نشرت قلوعها وسارت كسولة متئدة الخطى لطيفة الإيقاع
إن عنقك المستدير وكتفك الجميل يجلو كل منهما رشاقة
رأسك المرحة
هكذا تمرين أمامي هادئة مزهوة
أيتها الطفلة الفخمة
سأحدثك أيتها الساحرة الجميلة
سأحدثك عن شبابك الغض
سأصف لك جمالك
الذى تلتقى فيه الطفولة بالأنوثة
صدرك الناهد الذى يرفع القميص برفق

يشبه خزانة جميلة

كدرتين رائعتين مستديرتين

كدرتين مفضضتين تعكسان الضياء

كساحرتين تقلبان فى قدرهما تعويذة حب

إن هرقل نفسه لا يستطيع أن يقاوم سحر ذراعيك اللامعين المستعدين كثعبان للالتفاف بحلاوة وعناد

حول حبيبك تضمينه إلى قلبك

إن عنقك المستدير وكتفك الجميل، يجلوان رشاقة رأسك المرحة

وهكذا تمرين بهدوء وزهو

أيتها الطفلة الفخمة

نهداك محميان بأطراف موردة ممتلئان بالمسرات الخفية

حيث يجتمع كل العطر والرحيق الذى يذهب القلب والعقل معا

عندما تمرين أمامى بثوبك الفضفاض تشبهين سفينة فى عرض البحر نشرت قلوعها

وسارت كسولة متئدة الخطى لطيفة الإيقاع

يا للساقين الجميلين اللذين يطلان من تحت الثوب

كم يعذبان الرغبة التى يجهلانها.

الســـم

تستطيع الخمر أن تزين بالترف

أى خمارة علتْ أم سفلت

وتبنى قوسا مذهبا.. أحمر الصبغة

كوهج الشمس عند الغروب

ويمكن لآكل الأفيون أن يهيم

لأبعد ما تستطيع الحدود

ويمكنه أن يسبر أغوار الأبد

ويبكى على الوجود الفارغ

أو يشبع روحه بمسرات ذبلت وصوّحتْ

وأين هذا من "المخدر" ؟

الذى يقطر من عينيك

عينيك اللتين هما مرآتا شقائى

بحيرتين خضراوين تحوم حولهما أحلامى

لترتوى من مائهما المالح

وأين هذا من الطاغوت؟

الذى يصحب أنفاسك

ويجلب النسيان تحت أمواج الدوار

ويبدد رشدى حتى أصير على شفا الموت.

المشعل الحى

عيناك الساحرتان المسيئتان تقودانى وقد أضاءهما ملاك حكيم، توأمان أنا توأمهما الثالث

يعصمان من كل شوك وأذى، ويقودان خطاى فى طريق الجمال يقودان عبدهما الخاضع لأن روحى كلها تطبع ذلك المشعل الحى، أيتها العينان إن جمالكما ونوركما أقدس من شموع مقدسة تحترق نهارا وتلقى لهبها صوفيا تزيده الشمس اتقاداً ولا تطمسه

أغنيتك هى الفجر وعيناك نداء البعث

سيرا أمامى

إن استيقاظ روحى هو نشيدكما أيها الكوكبان اللذان لا شمس تطفئ نورهما.

إلى فتاة من مالا بار

قدماك جميلتان كيديك
وفخذاك بحجمهما يثيران الحسد في نفس كل بيضاء جميلة
إن جسدك في عين الفنان المتألم جميل ناعم
وعيناك مصنوعتان من المخمل
وسوادهما أعمق من لونك
لقد كان عملك في بلادك الحارة الخضراء
أن تشعلي الغليون لمولاك
وتملأي الجرار بالماء والعطر
وتطردي البعوض عن الفراش
وعندما يطلع الصباح وتغني الأشجار
تذهبين إلى السوق فتبتاعي الموز والأناناس
ثم تدورين هنا وهناك طول يومك بقدميك العاريتين
بينما تغنين أغاني قديمة منسية
وعندما يهبط المساء بعباءته القرمزية تستلقين على الحصير
وتسبحين في أحلام عامرة بالطيور

أحلام رقيقة مزهرة شبيهة بك

أيتها الطفلة السعيدة لماذا تريدين أن ترى فرنسا بلادنا المزدحمة التى ترزح تحت العذاب؟

لماذا تريدين أن ترتمى فى أحضان البحارة وتودعين إلى الأبد
أشجار التمر هندى؟
هناك تصيرين نصف عارية
ترتجفين تحت البرد والمطر
وتنعين حريتك الذاهبة
سوف تبكين حين تسجنين جسدك
سوف تنتزعين عشاءك من مخالبنا
وتبيعين عطر محاسنك لنا
وأنت تتبعين بنظراتك الساهمة فى الضباب القذر
أشباحا باهتة من أشجار الكاكاو البعيدة.

المعذب نفسه

إلى ا . ج . ف

سأضربك بلا غضب
وبلا كره كالحطاب
كموسى وهو يضرب الصخر
وسأستدر من جفنيك الدموع
لأروى صحرائى بماء العذاب
وستسبح رغبتى المملوءة أملا
على دموعك المالحة
كسفينة فى عرض البحر
وفى قلبى الذى ارتوى
سيدوى نشيجك
كطبل يصاحب ضربات قلبى
ألست اللحن الخاطئ فى السيمفونية الإلهية؟
والسبب فى ذلك هى السخرية
تهزنى وتعضنى بأنيابها

إن فى صورتى لصرخة فظيعة

هى كل دمى

هى سمى الأسود

إنى المرآة البشعة

إنى أنا الجرح والسكين

إنى أنا الصفعة والخد

أنا الأعضاء والمبضع

أنا الضحية والجلاد

أنا خفاش قلبى

ولا أستطيع أن أبتسم

إنى لمنسى أبدى

تسخر بى الآلهة أبدا .

سؤال بالليل

استمع لدقة منتصف الليل إنها تسأل سؤالا ساحرا

وليس رنينها غير انتقاد وعتاب، كيف تُمضى أوقاتنا الهاربة، هذا يوم جمعة قاتم حزين – ثلاثة عشر – رقم نحس.. وها نحن

أولاء هزأنا بكل دين

لقد كفرنا بالمسيح

روح الله وكلمته

وقد جلسنا لمائدة عملاق

متطفلين عليه.. وقلدنا طغيانه الشيطانى

فجرحنا أصدقاءنا

وتملقنا الذين يكرهوننا

وقد عذبنا الضعفاء

وسخرنا بالعزل

ومجدنا الأغبياء بوجوه عليها بلاهة السرور

أيتها المادة لقد عبدناك

وقدسناك تقديسا

وأنت أيها الفساد لقد باركناك طويلا

وأخيرا لنغرق هذياننا فى لجة السرور

نحن الشعراء كهنة القيثارة الذين يسرهم أن يسكبوا خمر الأسى والظلام

شربنا بلا ظمأ وأكلنا بلا جوع

أطفئ المصباح

ودعنا نختبئ وراء ستر الليل.

ســــاحـرة

شعشع السندس ملء عينيك وشاع الشحوب الرائع فى أديم خديك أجل فعندما تطلعت إليه انداحت حدقتاك بصورة غريبة فطوق نحرك بذراعيه المترفقتين فى حنان بالغ أورثك الحنين إلى الدموع... وما هى إلا فورة من نشوة فياضة حتى عمر مخدعك بجو مشع من ضوئه ذلك الضوء الخالد الذى هتف من سبحات تفكيره قائلا.. ألا فلترتسم عليك قبلتى إلى الأبد.. وليكن لك مثل فتنتى وجمالى ولتحبى كل ما أحب وكل ما يحبنى من ماء وسحاب وليل وسكون من البحر الزبرجدى المترامى من الماء المنطلق السيال المتعدد الأوضاع والأشكال من المكان الذى لن تطرقيه من العاشق الذى لن تعرفيه من الزهور التى لم تنبتها الطبيعة ومن العطور الفواحة المسكرة ومن القطط المستلقية فى تراخ ذات الأصوات العذبة الحاكية لتنهدات النساء.

أجل ولتكونى فتنة عشاقى وموضع الإجلال من سمارى وندمائى ولتستوى ملكة على عرش من أفئدة الرجال ذوى العيون الخضر الذين تحويهم أحضانى كل ليلة هؤلاء الذين يفتنهم البحر المتنائى الأطراف ذو اللجة المصطخبة الخضراء والمكان الذى لن يغشوه والمرأة التى لن يهتدوا إليها وأزهار الشر المتوقدة كمجامر كاهن مجهول والعطور المثيرة المستبدة بالغرائز والوحوش الضارية التى ترمز شهواتها المشبوبة إلى حماقة هؤلاء المساكين.

والآن . . أيتها الصبية اللعينة العزيزة المشبوبة ذلك ما يدفعني لأن أجثو على قدميك متلمسا فيك صورة الآلهة المروعة ربة الأرباب القاضية ظئر السموم لكل صرعى القدر من بني البشر .

بودلير في رأى بعض النقاد

- ١ -

يقول الأستاذ "بور" فى مقدمة عنه رفعها إلى إكاديمية فرانسيز: ظل فن بودلير غريبًا عن الأدب الأوروبى حتى ذلك الوقت الذى عنى فيه أمثال آرثر سيمونس وجورج مور وغيرهما بنقل آثاره وآثار فيرلين ورامبو إلى الإنجليزية فأثارت الانتباه من حيث التفكير واللغة والموسيقى، كما كانت غرابة أطواره وشذوذه من عوامل الإغراء والفتنة لأحاديث المجلات والأندية الأدبية فى إنجلترا المتفتحة للجديد والتى لم تكن ترى فى بودلير غير تلميذ عظيم لذلك الإنجليزى العجيب "ى كوينسى" المبشر الأعظم بعبادة الأفيون، ولم تكن تتنسم من صفحات ديوانه "أزهار الشر" رائحة الشعر والفن بقدر ما كانت تشم منها رائحة الأفيون تحترق به مجامر أزهاره السوداء.

- ٢ -

ويقول "الكوك": "هكذا الدنيا التى خلقها بودلير، دنيا حالمة بالجمال وروح العزاء المرفه عن العاطفة ما تراوح بها طغيانها بين الحيرة والضيق.. إن تفوق بودلير فى الصور الشعرية قد أغناه عن تلمس شواهد حية على مذهبه العلمى وعما يدخل فى وحدة الفن من الصورة والصوت واللون والرائحة، فمقاييسه عطرية الشذى فطرية اللون وإيقاعه الموسيقى يترجم دائمًا عن أصداء مزاجه الشعرى، أما أسلوبه فقد تحول حتى ليرى واضحًا بسيطًا، رائعًا..".

بين ناجى وبودلير

كانت حياة ناجى الفكرية منطلقة متحررة مشبعة بآراء تقدمية جديدة، وكان فكره يطل على آفاق فسيحة من الثقافات العالمية الحديثة المتميزة بالأصالة والفن والتحرر، ومع ذلك فإن صور هذه الحياة الفكرية تظهر فى كتابته أكثر مما تظهر فى شعره، وكانت البيئة الجامدة المتزمتة تجعل كتابة هذه الآراء المتحررة شبه مستحيلة، وكان ناجى يكتب ويحاسب نفسه على ما يكتب قبل أن يحاسبه الرقيب الحديدى الذى لا ينام ولا تنام معه الرقابة الصارمة العنيفة التى تؤود الفكر بأغلال ثقيلة مرهقة.

ومن ثم وقفت فلسفته عند حب الخير وعبادته وتقديس الجمال أينما كان، متأثراً فى نزوعه إلى حب الخير بديكنز وسواه من الأدباء الذين وقفوا أدبهم على الدعوة إلى المثل العليا والتخفيف من آلام البشرية وأوصابها.

وحياة ناجى الأدبية أكثر انطلاقاً وتحرراً من حياته الفكرية فهو مؤمن بالتجديد داعية إليه، وتكثر خطواته نحو التجديد فى شعره الذى يمتاز بطلاقة فنية نادرة والذى اتسم بروح غنائى فريد.. أما كتابته فقد وقفها على القصة والمقالة والبحث الأدبى والتحليل النفسى والدراسة لشئون المجتمع، وهو فى شعره ونثره يحرص على السلامة والتأنق والجمال حرصه على دقة الفكرة ووضوحها وسلاستها.

وناجى فى الشعر يتجه إلى الشعراء الغربيين المشهورين بتأثرهم فى الخيال والفن والطلاقة، ويستمد من الشعراء المحدثين الطبع والموهبة ويأخذ من معاصريه ترف الفن والخيال والمعانى مع الأصالة والطاقة الشعرية المتميزة والجمال والرقة والعذوبة والظرف.

وشعره الغنائى فى المرأة لا يتجه إلى الجسد والمادة، وإنما يتجه إلى الروح والحقيقة، ومن ثم اكتسب الذيوع والشهرة والخلود فى الشعر المصرى الحديث.

فبين بودلير وناجى فروق كثيرة فى الفن: بودلير جامح ثائر عارم وناجى هادئ فى بساطة ورقة وابتسامة، وبودلير عميق معقد فى رمزية وناجى واضح فى رومانسية بسيطة عذبة، وبودلير لا تكاد تقف فلسفته فى المرأة عند غاية وفلسفة ناجى فى المرأة واضحة معروفة لاخفاء فيها.. وبودلير إن كتب أزهار الشر فإن ناجى لو خير لاختار أن يكتب أزهار الخير أو الجمال.

ومع ذلك فقد قرأ بودلير وأعجب بصوره الفنيــة العميقة الرائعة وترجم قصائده إلى العربية فى أسلوب متحرر طلق جميل عميق وكتب هذه الدراسة الجدية فى العربية عن بودلير وشخصيته وفنه، وقد احتوى عليها هذا الكتاب الذى عنيت به رابطة الأدب الحديث عنايتها بشتى الآثار الأدبية الموهوبة لأدبائنا المعاصرين.

م٠ ع

هذه الدراسة

للكاتب الكبير وديع فلسطين

خيراً تصنع الصفوة من خلصاء إبراهيم ناجى حين تنشر مدونات هذا الكاتب الكبير والشاعر العاطفى والغنائى الفريد، فقد عاجلته المنية دون أن تمهله فتعذر على تراثه أن يرى النور فى حياته وهو تراث عزيز على العربية ضنين أن يتأتى لغير النابهين الموهوبين من كرام الأدباء.

كان ناجى فى حياته كثير التوزع شتيت الاهتمامات، رتب على نفسه التزامات كثاراً تمليها عليه مطالب الحياة ومطالب الجماعة ومطالب الفكر ومطالب العاطفة فنسى نفسه فى غمار هذه المطالب جميعًا حتى إذ أوشك أن يستبين وجوده راح فى غيبوبة الموت مبكراً وصدره لا يزال عامراً بنفثات تتطلع إلى الانطلاق ويداه لا تزالان تتحسسان مبضعه ومجسه وشاعريته تشكو الظلم الذى أحاق بها حين لم يتفرغ لها ونفسه قلقة على ثروة كبيرة من النتاج الأدبى عرضة للضياع إذا افتقرت إلى عناية تقيها وتنشرها.

وقد دانت لإبراهيم ناجى ثقافة موسوعية ناضجة فجعلته بصيراً بالحياة الإنسانية من أى زاوية أتاها، سواء أراد استنباط النفس أو رام استكشاف وظائف الأعضاء أو هام مع الفكر فى مجاهله الفلسفية المترامية أو تاه فى خليط من هذه جميعًا، ولهذا عرفنا ناجى ناقداً من طراز جديد؛ لأنه وقد صار ذا بصر بالإنسانية ونوازعها وحدودها استطاع أن يطلق على كل أمر نظرة شاملة مشارفة تطوى المسائل من شتى مناحيها وتصيب كل وتر حساس فتعزف عليه أشجى الأنغام.

وفى هذه الدراسة لبودلير نرى ناجى محللاً نفسيا يعالج "حالة" من حالات الانحراف المسلكى، لنابغة من نوابغ الشعر والمسرح ضل الحياة أو أضلته فى سن باكرة فانعكس ذلك على صفحة حياته وعلى صفحات كتاباته حتى نفر منه الناس ونفر هو من نفسه وصار شعره يتلصص إلى المنتديات الأدبية لما تميز به من جنوح لا ترتضيه بيئة تنكر الجنس، وتهرب من مجرد ذكره.

وتثير سيرة بودلير سؤالا يعرض للباحثين كثيراً: فهل الخير أسبق إلى الحياة أم الشر وهل النفس فى فطرتها وسذاجتها وطفولتها أمارة بالسوء أم ميالة إلى الحسنى؟

والواقع أن الطفل أى النفس الساذجة البدائية يستوحى فى أعماله وسلوكه نوازعه وهى نوازع مستقاة من "مشيئة الحياة" كما عناها الفلاسفة، فلا يميز الطفل بين خير وشر لأن هذه المعانى لم تستقر فى ذهنه بعد وإن كانت قد استقرت فى أذهان البالغين المسنين الذين يحكمون على تصرفات الطفل فيقولون: إنه جانح ضال أو إنه صحيح سليم.

وإذا أتيح للطفل فى باكر حياته أن يعرف كيف يميز بين الشر والخير فقد تستقيم له موازين الأحكام كلما تقدمت به الأيام، أما إذا افتقر إلى هذه المعرفة نتيجة لإهمال أو لتربية قاصرة فحينئذ تختلط أمامه الموازين فيتصرف كما تسوقه منازعه بغير ضابط وتغدو حياته على اليقين صراعًا دائمًا مع الجماعة وقد يكون صراعًا داميًا.

وأبرز مثلين فى الأدب هما مثلا أوسكار وايلد وشارل بودلير اللذان غرست فيهما بذرتا العقوق للمجتمع منذ حداثتهما فتعذر عليهما أن يعيشا بين قوم يعقلون، وانتهى مصير الأول بين أسوار السجن مطعونًا فى خلقه أما بودلير فكان يبيت على الطوار مخموراً رث الثياب محلولها يفوه بعبارات يمجها الذوق، فإن تلمس صدراً حنونًا التمسه فى إحدى امرأتين إما خليلة زنجية لا يكاد يقربها حتى ينفر منها نفوراً هو فى حد ذاته شعور بالإثم ونزعة إلى الخير، وإما أمه التى افتقدها بعد وفاة أبيه حين تزوجت ذلك الجنرال الفظ.

وشخصية بودلير شخصية "سيكوباتية" لأنه عدو للجماعة عدو للناس عدو لنفسه، ولكن ندمه الكثير دليل على يقظة ضمير، غير أن حيله تقصر عن أن تجد له مخرجاً من البيئة الخلقية والنفسية التى اختارها وآثرها فصار فى حياته منبوذاً مع أن شعره كان

يسبقه إلى المجد، وأصبح الناس لا يكتمون إعجابهم بموهبته الشعرية ولكنهم ينقمون على الشاعر نقمة تجعله لا طريد المجتمع وحده بل طريد الحياة كلها.

ولعل أكثر شعراء العربية المحدثين تأثراً ببودلير هو إلياس أبو شبكة الذى صبغ شعره بصبغة الشهوانية العارمة، وحشاه بأى السخط والنقمة واللعنات وصار ينقم على القدر ويسخط على الحياة فلا يرى مشهداً يروق له إلا مشهد الدماء. ينشد المتعة بين الساقطات ويعيش بين أفاع يسميها "أفاعى الفردوس".. ولكن إلياس أبو شبكة يختلف عن بودلير فى حياته من حيث إنه أحب امرأة واحدة حبا أخذ عليه كل مسالكه، أما بودلير فلم يعرف الحب إلا حب أمه وهو شذوذ ينشأ عليه بعض الصبية إذا لم يفطموا فطمًا اجتماعيا فعرف بعد ذلك كل ضرب من ضروب الشذوذ من سادية ومازوكية ونرجسية واندفع فى هـذا التيار حين بلى بداء الزهـرى ففقد كل أمل فى صلاح أو ارتداد إلى الحياة السوية.

وشخصية كشخصية بودلير أثارت فى نفوس الكثيرين ثورات من السخط وشواظا من اللعنات ولكنها لم تثر فى نفس الطبيب الإنسانى إبراهيم ناجى إلا شعور الرثاء والشفقة على رجل ضل الطريق فى عناد وإصرار لا عن رغبة فى الضلال بل عن عقوق فى التربية. وديوانه "أزهار الشر" لا يخلو من وميض نور يطلق بين الحين والحين كالغريق حين تدفعه بوارق الأمل فوق لجج الماء، كما أن رسائله إلى أمه فياضة بعواطف الخير، وإن تاهت هذه العواطف النبيلة فى خضم البؤس الشقى الذى رزئ به بودلير.

وأحسب أن ناجى قد أحسن وأجاد حين دافع عن بودلير وحين علل بواعث جنوحه ولوثته، فرجال مثل بودلير وأوسكار وايلد وبيرون حقيقيون بالرثاء والشفقة فى التاريخ بعد أن خرجوا من صلب الحياة، ولو وجدوا فى حياتهم رثاء وشفقة لكان شأنهم – على الأرجح – غير الشأن الذى وصمهم به التاريخ.

(٩)

قصائد مترجمة نثرًا

جمع: حسن توفيق(*)

(*) تأخر صدور هذه الطبعة الأولى - ضمن هذا المجلد - من عام ١٩٩٦ إلى عام ٢٠٠١.

حول القصائد التى ترجمها ناجى

بقلم: حسن توفيق

* ترجم شاعر الحب الرقيق والكبير إبراهيم ناجي مجموعة من القصائد لشعراء أوروبيين وجاءت ترجمته لها نقلا عن ثلاث لغات هي: الألمانية - الفرنسية - الإنجليزية.

* هناك قصائد ترجمها ناجي شعراً وهي من حصاده الأدبى خلال المرحلة المبكرة من حياته، وهناك قصائد أخرى ترجمها ناجي نثراً وهي من حصاده الأدبى خلال أخريات سنوات حياته.

* فيما يتعلق بالقصائد التى ترجمها شعراً، فإنها تتمثل فى أربع قصائد، هى قصيدة "البحيرة" للشاعر الفرنسى لامارتين، وقد ترجمها عن الفرنسية ونشرت فى جريدة "السياسة الأسبوعية" - عدد السبت ٤ ديسمبر ١٩٢٦ وقصيدة "جسر التنهدات" للشاعر الإنجليزى توماس مور وقد ترجمها عن الإنجليزية ونشرت فى جريدة "السياسة الأسبوعية" - عدد السبت ١٨ ديسمبر ١٩٢٦ وقصيدة "دعاء الراعى" للشاعر الألمانى هينى، وقد ترجمها عن الألمانية ونشرت فى "السياسة الأسبوعية" - عدد ١٣ سبتمبر ١٩٣٠ وقصيدة "التذكار" للشاعر الفرنسى الفريد دى موسيه ولم أتوصل إلى الجريدة أو المجلة التى نشرت فيها تلك القصيدة إن كانت قد نشرت فى جريدة أو مجلة لكنها ضمن قصائد الديوان الأول لناجى "وراء الغمام".

* أثبت ناجى قصائد "دعاء الراعى" و"التذكار" و"البحيرة" فى ديوانه الأول "وراء الغمام" أما القصيدة الرابعة "جسر التنهدات" فقد قمت بإدراجها ضمن "قصائد مجهولة - مائة قصيدة وقصيدة - راجع "الأعمال الشعرية الكاملة" الصادرة عن المجلس الأعلى للثقافة فى طبعتين، أولاهما سنة ١٩٩٦ والثانية سنة ٢٠١٠ ص٢١٠، ٢١١، ٢١٨، ٦٥٢ وكان من الطبيعى أن تدرج القصائد المترجمة شعراً ضمن مجلد "الأعمال الشعرية الكاملة".

* فيما يتعلق بالقصائد التى ترجمها ناجى نثراً فإنها تتمثل فى:

١- أغنية إلى الريح الغربية - للشاعر الانجليزى برسى بيش شيللى، وقد ترجمها عن الإنجليزية، ونشرت لأول مرة فى مجلة "أبولو" - عدد مارس ١٩٣٣ ثم نشرت مرة أخرى فى مجلة "الحديث" الحلبية - عدد مارس وأبريل عام ١٩٤٥ وفى كتابه "الأدب العربى فى مصر" يذكر أستاذنا د.شوقى ضيف أن ناجى قد "نقل قصيدة شللى أغنية للريح الغربية فى شعر عربى مرسل" - ص ١٥٥ والحقيقة أن ترجمة ناجى للقصيدة ترجمة نثرية.

٢- سنارا - للشاعر الإنجليزى إرنست دايسون وقد ترجمها عن الإنجليزية ونشرت فى مجلة "الحديث" الحلبية - عدد يناير عام ١٩٥٠ والواقع أن ترجمة ناجى لتلك القصيدة ليست كاملة إذ إنه - على ما يبدو لى - قد اختار أن يعيش فى أجوائها كما يحلو له دون التزام بترجمة النص ترجمة كاملة.

٣- سونيتات شكسبير - كتب شكسبير (١٥٤) سونيت ترجم ناجى منها (١٢٥) سونيت وجميعها مخطوطة لدى ابنته السيدة ضوحية ناجى وقد استطعت الحصول على أربع سونيتات فحسب من ترجمة ناجى، إحداها كانت قد نشرت فى مجلة "الكتاب" التى كان يرأس تحريرها عادل الغضبان - عدد مايو ١٩٥٣ والسونيتات الثلاث الأخرى قمت بنقلها من "الفاكس" الذى أرسلته السيدة ضوحية إلى سامح كريم كما أشرت من قبل فى مقدمة "الأعمال النثرية الكاملة".

٤- أزهار الشر لبودلير - ترجم ناجى مجموعة كبيرة من قصائد الشاعر الفرنسى شارل بودلير، وقد صدرت فى كتاب عن رابطة الأدب الحديث عام ١٩٥٤ وهو الكتاب الذى تضمه هذه الأعمال النثرية الكاملة.

* إذا كانت "الأعمال الشعرية الكاملة" قد ضمت القصائد التى ترجمها ناجى شعراً فإن هذه "الأعمال النثرية الكاملة" تضم القصائد التى ترجمها - نثرا - شاعر الحب الرقيق والكبير.

* كانت مفاجأة حلوة لى حين عثرت على قصيدة مجهولة لناجى لكنى لم أشر إليها ولم أتحدث عنها فى مقدمة "الأعمال الشعرية الكاملة" لسبب بسيط يتمثل فى أنها مكتوبة باللغة الإنجليزية وقد رأيت أن أضمها إلى هذه المجموعة التى أسميتها "قصائد مترجمة نثرا" رغم أنها قصيدة موزونة وفق أوزان الشعر الإنجليزى وقد عثرت على هذه القصيدة فى مجلة "أبولو" - ص٧٠٠ - من عدد ديسمبر عام ١٩٣٤ وهو آخر عدد صدر من "أبولو" والقصيدة بعنوان THROUGH THE CROWD ويتصدر نصها مجموعة "قصائد مترجمة نثراً".

نص القصيدة التى كتبها ناجى بالإنجليزية

THROUGH THE CROWD

The sacred oath we vowed
Best of Lovers to be.
Across the battling crowd,
You waved your hand to me!
And I shot thro' the, ass
As my heart ached for you
And my lips for the glass
Of lips as fresh as dew!
And I won you at last
By me not in my arms.
And fly-with all your charms!

Ibrahim Nagy

قصائد مترجمة نثرًا

من سونيتات وليم شكسبير

سونيت (٢)

النص الأصلي

SONNET 2

When forty winter shall besiege the brow
And dig deep trenches in thy beauty's field,
The youth's proud liveryso gazed on now,
Will be a tatter'd weed of small worth held:
Then being ask'd where all thy beauty lies,
Where all the treasure of thy lusty days,
To say within thine own deep-sunken eyes,
Were an all- eating shame and thriftless praise.
How much more praise deserved thy beauty's use.
If thou couldst answer this fair child of mine
Shall sum my count and make my old excuse,
Proving his beauty by succession thine!
This were to be new made when thou art old,
And see thy blood warm when thou feel'st it cold.

سونيت (٢)

ترجمة : إبراهيم ناجى

عندما يحاصر جبينك أربعون شتاء
وتحفر الأخاديد فى حقل جمالك
ويصبح ثوب الشباب الناضر المرموق
خرقة بالية عديمة القيمة
عندما تسأل أين جمالك قد ذهب
وأين كنوز أيامك الشهية ،
فإذا أجبت : فى عينى الغائرتين
فإن فى هذا كل الخجل فضلا عن ثناء عقيم
فما كان أجدرك بالثناء
لو أنك قلت : "فى طفلى هذا"
حسابى القديم وأعذارى جميعا
وبهذا يتجدد حسنك فى مشيبك
وتجرى الحرارة فى دمك عندما تشعر ببرودة الهرم .

سونيت (٢)

ترجمة : بدر توفيق

عندما يحاصر طلعتك أربعون شتاء
فتحفر الغضون العميقة فى حقل جمالك
فإن هيئة شبابك المفعم بالحيوية والتى ننعم الآن فيها النظر
ستغدو كالعباءة الرثة التى تقدر بثمن زهيد

فإذا ما سئلت عن مكمن حسنك بأكمله
وعن كل كنوز أيامك الشيقة
فلتجب من خلال عينيك الغريقتين فى الأعمال
عن الخزى الذى لم يدع شيئا والإطراء الذى لا يجدى

أى حد من الثناء تستحقه ثمرة جمالك
لو أنك استطعت الجواب قائلا "هذا الطفل البديع الذى ينتمى
إلى سيجمع حظى ويكون العزاء والتبرير فى كهولتى" ،
ويكون جماله البرهان على انتسابه إليك

هذا هو ما يجددك مرة أخرى حين يتقدم بك العمر
فتسترد شعورك بحرارة دمك بعدما أحسست به باردا

سـونيـت (٥٨)

النص الأصلى

SONNET 58

That god forbid that made me first your slave,
I should in thought control your times of pleasure,
Or at your hand the account of hours to crave,
Being your vassal. bound to stay your leisure!
O, let me sufferbeing at your beck,
The imprison'd absence of your liberty;
And patience tame to sufferance, bide each check,
Without accusing your of injury.
Be where you list, your charter is so strong
That you yourself may privilege your time
To what you will; to you it doth belong
Yourself to pardon of self-doing crime.
I am to waitthough waiting so be hell,
Not blame your pleasure be it ill or well.

سونيت (٥٨)

ترجمة : إبراهيم ناجى

وليحمنى الله الذى جعلنى عبداً لك
أن أفكر فى غير مسراتك
أو أتطفل على دخائل حركاتك وسكناتك
أو أتلفظ بحرف يجرحك
خلنى أتألم وحدى أنى رهين أمرك
وسجين غيابك وأنت حر طليق
أروض الصبر على أقصى الاحتمال
متحملا كل الملام دون أن أجرحك بظنى
اذهب حيث تشاء لك حريتك
أنت المتصرف فى زمنك فهــو ملكك
افعـل ما تشاء واغفر أخطاءك بنفسـك
وعلىَّ انتظارك ولو كان الانتظار جحيما
ولا ملام على ما تفعل خيرا أو شرا .

سونيت (٥٨)

ترجمة : بدر توفيق

أدعو الله الذى جعلنى لك منذ البداية عبدا
أن يحرم على التفكير فى السيطرة على أوقات نشوتك
أو أن أصبو إلى محاسبتك على كيفية إنفاقك للساعات
فما دمت أسير نعمتك على أن انتظر وقت فراغك

ولا أبقى إذن فى معاناتى طالما بقيت رهن أمرك
سجين الغياب الذى تحياه حرا
الصبر الذى صار أليف المعاناة يحتمل كل كبح
دون أن يدينك لأى جرح

كن حيثما تشاء ؛ فإن صفاتك بالغة القوة
لتكون أنت بنفسك ميزة لعصرك
فالشىء الذى ترغب فيه يصير حقا لك
فتغفر لنفسك الجرائم التى تقترفها

علىَّ أن انتظر رغم أن الانتظار على هذا النحو جحيم
بلا لوم لمسراتك سواء كانت فى الإثم أو فى الفعل الحكيم.

سونيت (٩٢)
النص الأصلى

SONNET 92

But do thy worst to steal thyself away,
For term of life thou art assured mine;
And life no longer than thy love will stay,
For it depends upon that love of thine.
Then need I not to gear the worst of wrongs,
When in the least of them my life hath end
I see a better state to me belongs
Than that which on thy humour doth depend:
Thou canst not vex me with inconstant mind,
Since that my life on thy revolt doth lie.
O what a happy title do I find
Happy to have thy love happy to die!
But what's so blessed-fair that fears no blot?
Thou mayst be false and yet l know it not.

سونيت (٩٢)

ترجمة : إبراهيم ناجى

اصنع ما يحلو لك لتهجرنى
إن حياتى مقرونة بك
لأن حياتى تتوقف على هذا الحب
وكيف أخشى إذا انتهت حياتى أقسى مظالمك
ما دام أهونها قضى على
وإنى لا ألمح فى الموت حالا أهدأ وأحسن
من هذه الحياة التى تتوقف على غضبك أو رضاك
فإنك بعد موتى لن تستطيع أن تؤلمنى بتقلبك
مادامت حياتى تنتهى بمجرد تحولك
ما أوفرها من سعادة
سعادة بحبك وسعادة بالموت فى سبيلك
وسعادة أخرى سعادة المطمئن
لأنك قد تخوننى وأنا إذ ذاك لا أعلم.

سونيت (٩٢)

ترجمة : بدر توفيق

افعل أسوا ما يمكنك لتسرق نفسك بعيدا
فمن المؤكد أنك لى طوال حياتى التى أعيشها
ولن تكون الحياة أطول من زمن بقاء حبك
لأنها تتوقف على ذلك الحب الذى تملكه

ليس هناك ما يخيفنى من أسوأ الأخطاء
ما دامت حياتى ستنتهى لو حدث أهونها
سوف أكون فى حالة أخرى
أفضل من تلك التى تتوقف على مزاجك الخاص

أنت لا تقوى على إرباكى بأفكارك المتقلبة
طالما تتوقف حياتى على ثورتك عليها
يا له من حظ فى السعادة هذا الذى وجدت
سعيد أنا حين أفوز بحبك وسعيد حين ألاقى الموت !

أى شىء له من الجمال والقدسية مالا يدع سبيلا لأى شائبة ؟
ربما تكون خائنا وأنا لا أعرف شيئا عن ذلك حتى الآن .

سـونيت (١١٦)

النص الأصلى

SONNET 116

Let me not to the marriage of true minds
Admit impediments. Love is not love
Which alters when it alteration finds,
Or bends with the remover to remove:
Ono! it is an ever-fixed mark
That looks on tempests and is never shaken;
It is the star to every wandering bark,
Whose worth's unknown although his height be taken.
though rosy lips and cheeks،Love's not time's fool
Within his bending sickle's compass come;
Love alters not with his brief hours and weeks,
But bears it out even to the edge of doom.
If this be error and upon me proved,
I never writ, nor no man ever loved.

سونيت (١١٦)

ترجمة : إبراهيم ناجى

إنى لا أعترف عند اتحاد القلوب
بالعقبات ولا الحوائل ولا أجيزها
إن الحب ليس حبا إذا تغير كلما حان التغيير
أو يخضع سهلا للذى بديل منه
إنه لهدف الهادى لكل سفين
نجم لا تعرف باليقين قيمته ولكن علوه لا يناقش
وليس الحب ألعوبة الزمن وإن يكن خداه وشفتاه
يقعان تحت منجل الزمن
وإنه لا يتبدل لقصر أمده
ولكنه يمتد حتى القيامة
إن أكن مخطئا فيما قلت
فلا أحد كتب ولا أحد فى الوجود أحب.

سونيت (١١٦)

ترجمة: بدر توفيق

لا تتركني في التزاوج بين أفكارنا الصادقة
ادع سبيلا إلى العوائق فالحب لا يكون حبا
إذا تغير عندما تجد المتغيرات سبيلها إليه
أو انحنى خضوعا لما يمحو فيمحى
أواه لا إنه علامة أبدية الثبات
تنظر للعواصف ولا تهتز أبدا
إنه النجم لكل السفن الهائمة
النجم الذى لا يعرف الإنسان قدره رغم معرفة ارتفاعه
ليس الحب ألعوبة الزمن حتى لو كانت شفاهه وخدوده الوردية
واقعة فى قبضة منجله المطبقة
فالحب لا يتغير بساعاته وأسابيعه القصار
لكنه يحفظها فى طواياه إلى حافة الدينونة
فلو كان هذا الأمر خاطئا وكنت أنا برهان هذا الخطأ
فلا أكون قد كتبت شيئا أبدا ولا إنسان أحب أبدا.

قصيدة سنارا

للشاعر أرنست دايسون

النص الأصلى

Cynara

Non sum quails eram bonae sub regno Cynarae!
Last night, ah, yesternight, betwixt her lips and mine
There fell thy shadow, Cynara! Thy breath was shed
Upon my soul between the kisses and the wine;
And I was desolate and sick of an old passion,
Yea, I was desolate and bowed my head:
I have been faithful to thee, Cynara! In my fashion.
All night upon mine heart I felt her warm heart beat,
Night-long within mine arms in love and sleep she lay;
Surely the kisses of her bought red mouth were sweet;
But I was desolate and sick of an old passion,
When I awoke and found the dawn was gray:
I have been faithful to thee, Cynara! In my fashion.
I have forgot much,Cynara! Gone with the wind
Flung roses, roses riotously with the throng,
Dancing, to put the pale, lost lilies out of mind;
But I was desolate and sick of an old passion,

Yea, all the time, because the dance was long:
I have been faithful to thee,Cynara! In my fashion.
I cried for madder music and for stronger wine,
But when the feast is finished and the lamps expire,
Then falls thy shadow,Cynara! The night is thine;
And I am desolate and sick of an old passion,
Yea,hungry for the lips of my desire:
I have been faithful to thee, cynara! In my fashion.

1891, 1896

قصيدة سنارا

ترجمة : إبراهيم ناجى

حين قبلت تلك يا سنارا
وقعت أنفاسك بين شفتى
وقعت أنفاسك بين الخمر والقبلات
معذرة يا سنارا لقد كنت يائسا منك
وقد كنت متعبا ولكنى أخلصت لك على طريقتى
ظللت أشرب وأرقص.. وأرقص وأشرب
حتى انتهى الخمر وانتهى الرقص
فإذا الليل كله لك يا سنارا

قصيدة "أغنية إلى الريح الغربية"

للشاعر برسى بيش شيللى

النص الأصلى

ODE TO THE WEST WIND

I

O WILD West Wind, thou breath of Autumn's being,
Thou, from whose unseen presence the leaves dead
Are Driven, like ghosts from an enchanter fleeing
Yellow, and black, and pale,and hectic red,
Pestilence-stricken multitudes: O thou,
Who chariotest to their dark wintry bed
The winged seeds, where they lie cold and low,
Each like a corpse within its grave, until
Thine azure sister of the spring shall blow
Her clarion o'er the dreaming earth, and fill
(Driving sweet birds like flocks to feed in air)
With living hues and odours plain and hill:
Wild Spirit, which ar moving every-where;
Destroyer and preserver; oh hear!

II

Thou on whose steam, 'mid the steep sky's commotion,
Loose clouds like earth's decaying leaves are shed,
Shook from the tangled boughs of Heaven and Ocean,
Angels of rain and lightning: there are spread
On the blue surface of thine airy sutge,
Like the bright hair uplifted from the head
Of some fierce Macnad, even from the dim verge
Of the horizon to the zenith's height,
The locks of the approaching storm, thou dirge
Of the dying year, to which this closing night
Will be the dome of a vast sepulcher,
Vaulted with all thy congregated might
Of vapours, from whose solid atmosphere
Black rain, and fire, and hail, will bursr: Oh hear!

III

Thou who didst waken from his summer dreams
The blue Mediterranean, where he lay
Lulled by the coil of his crystalline streams,
Beside a pumice isle in Baiae's bay
And saw in sleep old palaces and towers
Quivering within the wave's intenser day,
All overgrown with azure moss and flowers
So sweet, the sense faints picturing them! Thou
For whose path the Atlantc's level powers

Cleave themselves into chasms, while far below
The sea-blooms and the oozy woods which wear
The sapless foliage of the ocean, know
Thy voice,and suddenly grow grey with fear,
And tremble and despoil themselves: Oh hear!

IV

If I were a dead leaf thou mightiest bear;
If I were a swift cloud to fly with thee;
A wave to pant beneath thy power, and share
The impulse of thy strength, only less free
Than thou, O uncontrollable! If even
I were as in my boyhood, and could be
The comrade of thy wanderings over heaven,
As then, when to outstrip the skyey speed
Scarce seemed a vision, I would ne'er have striven
As thus with thee in prayer in my sore need
Oh ! lift me as a wave, a leaf, a cloud!
I fall upon the thorns of life! I bleed!
A heavy weight of hours has chained and bowed
One too like thee: tameless, and swift, and proud

V

Make me thy lyre, even as the forest is:
What if my leaves are falling like its own!
The tumult of thy mighty harmonies

Will take from both a deep autumnal tone,
Sweet though in sadness, Be thou, spirit fierce
My spirit! Be thou me, impetuour on!
Drive my dead thoughts over the universe
Like withered leaves to quicken a new birth;
And, by the incantation of this verse,
Scatter, as from an uncxtinguished hearth
Ashes and sparks, my words among mankind!
Be through my lips to unawakened earth
The trumpet of a prophecy! O wind,
Winter comes, can spring be behind?

قصيدة

"إلى الريح الغربية"

ترجمة : إبراهيم ناجى

يا أيتها الريح الغربية المجنونة، يا نَفَسَ الخريف، أنت يا من تساق الأوراق الميتة أمام كيانها الخفى كأرواح تهرب من ساحر يطاردها: صفراء وسوداء شاحبة ومحمرة ملتهبة: شبه جموع روعت بوباء. أنت يا من تدفعين البذور المجنحة إلى قبورها القائمة الباردة فلا تزال دفينة فيها حتى تجيء أختك غادة الربيع فتنفخ فى نفيرها فتطير الأكمام الجميلة أسرابا أسرابا تغتذى فى الهواء وتملأ السهول والتلال ألوانا وعبقا.

يا أيتها الروح المجنونة طائفة هنا وهناك، أيتها المخربة الحافظة! استمعى! استمعى!

أنت يا من على عبابك بينما تحتدم السماء مضطربة تتناثر السحب كما تتناثر الأوراق على الأرض كأنما انتزعت من أغصان السماء والمحيط وينتشر رسل المطر والبرق على سطح الأذى المائج ويمتد من حواشي الأفق نحو السماء خصل العاصفة المقبلة كشعر مرفوع من رأس ماردة جبارة يا أغنية السنة المنصرمة: أناخ فوقها هذا الليل المطبق كقبر كبير قبته هذه الأبخرة القوية المتجمعة التى من جوها الجامد ينهمر المطر وتندلع النار وينفجر البرد! استمعى!

لو أنى كنت ورقة تحملينها، أو سحابة مسرعة تطير معك، لو كنت موجة ألهث تحت ظلال قوتك وأقاسمك جبروتك - وأنا دونك حرية - أنت يا من لا سلطان لشيء عليها،

أو لو عدت صبيا أصحبك فى طوافك خلال السماء - وإذن كنت لا أدخر حلما حتى أجاريك فى سرعتك العلوية - ما جهدت كما أصنع الآن وصليت أدعوك فى محنتى ارفعينى كموجة أو كورقة أو كسحابة إنى أقع على أشواك الحياة إنى أدمى، إن ثقلا من الساعات كبلنى وقوسنى أنا الشبيه بك فى جنونى وخفتى وكبريائى اتخذينى قيثارتك كما تصنع الغابة وإن تجدى أوراقى تتساقط كما تتساقط أوراقها ؛ فإن ضجيج ألحانك القوية سيأخذ من كلينا لحنا خريفيا عميقا عذبا وإن يكن حزينا .

أيتها الروح العنيفة كونى روحى كونى أنت أنا وادفعى أفكارى الميتة أمامك حول الكون كالأرواح الذابلة لعلها تستعيد حياة جديدة وبتكرار هذا القصيد انشرى لهبا ورمادا من موقد مضطرم انشرى كلماتى بين الناس وكونى على شفتى للدنيا الغافلة نفير نبوة .

أيتها الريح إذا كان الشتاء مقبلا فهل الربيع بعيد ؟

(١٠)

كتب أثرت فى حياتى

..ومقالات أخرى مجهولة(*)

جمع: حسن توفيق

(*) تأخر صدور هذه الطبعة الأولى - ضمن هذا المجلد - من عام ١٩٩٦ إلى عام ٢٠٠١.

كتب أثرت في حياتي

كان هذا في مستهل الصبا، أول ما تفتح عليه إدراكي كان مكتبة أبي.. مكتبة كبيرة منظمة قرأ أبي كتبها جميعًا وعلق على هوامشها.. وكان أبي قارئًا يعرف كيف يقرأ وماذا يقرأ على مهل، فلا يضيع وقته في التوافه.. جلسته المفضلة على كرسي مريح بين أولاده، ويقرأ حينًا ويتحدث حينًا ويكركر في (الشيشة) فإذا حان الليل أصغيت إليه من غرفتي المجاورة لغرفته وهو يقص على أمي ملخص ما قرأه بالنهار.. وكان صوته هادئًا موسيقيا جميلاً وتصويره ساخراً وذاكرته جبارة، كنت أظل ساهراً حتى اسمع "مفتاح النور" يدار مؤذنًا بالنوم ويسحب الليل الهادئ أنفاسه علينا جميعاً.. سمعت كثيراً من القصص التي كان يقصها والدي على أمي..

سمعت "أوليفرتويست" وسمعت كل قصص شرلوك هولمز، وسمعت أغلب قصص رايدارها جارد وسمعت..

ولكن الذي انطبع في ذهني هو دافيد كوبر فيلد ، لا أعرف ما السر في ذلك، ولكني أعتقد الآن أن قوة هذه القصة في أنها سيرة صادقة لديكنز بالذات، عبر فيها أصدق التعبير عن انفعالاته وشرح فيها الحب العفيف الراقي أو في شرح، وكنت أنا إذ ذاك في بدء محاولاتي للشعر فلم يكن عجيبًا أن ينتعش ديكنز في خيالي بسمو روحه ونقاء قلبه، مع أنه لم يكن شاعراً ولكن الذي كتبه نثراً هو في الحق أرفع وأغلى من شعر ألوف من الشعراء..

وماذا في قصة دافيد كوبر فيلد؟! إنها تذكرني - أو على الأقل تجري في خيالي - مع عودة الروح لتوفيق الحكيم، لا شيء غير الصدق والواقع، قصة غرام قد تنتهي للاشيء ولكنها في الحياة كل شيء..

قصة غرام ديكنز بالفتاة "دورا".. دورا التى كان لا يقول أنها حبيبته، بل كان يسميها وجوده العزيز.. أبدع وصف فى لغة الهوى الرفيع.. لم تكن حبيبته فحسب بل كانت (وجوده) جميعًا.. كونه الملهم، وحبه الصافى..

إنى لا أتحدث الآن عن القصة، ولكن عن أثرها فى حياتى، مرت الأيام، وأراد أبى أن يكافئنى على تفوقى فى المدرسة، فسألنى أن أطلب أى شىء، فقلت (نسخة خاصة لى من دافيد كوبر فيلد).. ففرح بذلك وسرنا معًا فى يوم مطير، وشمسيته تظللنا معًا حتى بلغنا هو وأنا إلى مكتبة ديمر التى كانت بجوار شبرد، وحبست نفسى فى غرفتى أيامًا طويلة ومعى نسختى والقاموس، حتى أتيت عليها قراءة وحفظًا.. وكان مجهودًا جبارًا حقا، ولكنه كان الأساس الذى قامت عليه مقدرتى فى هذه اللغة حتى اليوم؛ ولهذا استطعت أن أنظم الشعر بالإنجليزية قبل العربية فاشتركت فى مسابقة شعرية وكانت جائزتها.. مؤلفات ديكنز وهى فى مكتبتى بالقرب منى.. الآن..

ديوان الخليل

كان خليل مطران صديقًا حميمًا لأبى ولابن عمتى المرحوم عبدالهادى الجندى.. وكانوا جميعًا مغرمين بقضاء الصيف فى ماكس الإسكندرية.. فسألت أبى عن سر غرام مطران بهذا المكان، فأجابنى أن له قصة طويلة عند صخرة الماكس..... ثم قرأ لى قصيدته الخالدة (المساء).... وعندئذ بادرت بطلب (ديوان الخليل) فعلمت منه أنه نفد، وأن النسخة الوحيدة الموجودة هى فى مكتبة المرحوم عبدالهادى (باشا) فأعطانى ابن عمى هذه النسخة واشترط أن أقرأها وأتعلم الشعر الجيد منها.. ولست أعلم إن كنت قد نفذت هذا الشرط! ولكنى أعرف أنى حفظتها من الألف إلى الياء.. ومرت الأيام وزادت صلتى بالخليل وكنت أدعوه يا "عمى".. ولكن الناس ينسون كثيرًا فى مصر فأخذوا لا يذكرونه كثيرًا فى أخريات أيامه فدار الحديث عن هذا النسيان فى وجوده ذات يوم بمنزل صديق لنا.. وكان مطران شاحبًا مريضًا مهمومًا فحاولت أن أسرى عنه وأخذت أنشد شعره من أوله والوقت يمضى والحاضرون فى صمت رائع وإصغاء رهيب.. حتى إذا أنشدت أكثره بكى مطران وقام فقبلنى، وقال: "الآن أموت مسرورًا"!

أغاني شكسبير

لست أدرى، أتحدث عن شكسبير بالذات أم أتحدث عن أغانيه؟ لقد كان الطلبة يكرهون كتبه المقررة علينا، وكانوا يحفظونها كارهين.. أما أنا فقد كنت أحفظ وأجيد تمثيل رواياته، كنت فى امتحان البكالوريا أحفظ "هملت" كلها وأمثلها كأنى على مسرح.. فلما جاء دورى فى الامتحان الشفهى سألنى الممتحن البريطانى كما يسأل الطلبة: ماذا تحفظ، فقلت هملت قال اسمعنى.. فنهضت واقفًا وأخذت ألقى وأمثل.. ونسيت نفسى ونسى الممتحن نفسه ووقته حتى أفاق، فنظر فى ساعته فإذا به قد استمع إلىّ ساعة كاملة بينما الناس فى الخارج يتساءلون عن سر هذا الامتحان الطويل لطالب واحد...

وأخيراً نظر إلىّ وقال: "هل جئت تمتحن فى البكالوريا..! اذهب بارك الله فيك"!.

وبعد ذلك قرأت شكسبير كله.. ثم حاضرت عنه مراراً وأذكر أنى دعيت لمحاضرة كانت فى المنيا منذ عشر سنوات، فلما جاء الميعاد وجدت نفسى قد نسيت ولم أعد شيئًا فحاولت فى القطار أن أكتب شيئًا فغلبنى النوم وسطرت بضع حروف لم أستطع حل رموزها فيما بعد.. فلما جاء ميعاد المحاضرة طلب رئيس النادى منى نسخة مما سأقول فخجلت وقلت له: عندى "بضعة أسطر" فاصفر وجه الرجل وسكت فلما قدمنى إلى جمهور الحاضرين ذكر الحقيقة كما حدثت وأنى نسيت إعداد المحاضرة ولم أجئ إلا ببضعة أسطر..

وكان الجمهور حشداً كبيراً والمتلهفون على سماع المحاضرة كثيرين، وبخاصة لأن الدعاية لى سبقتنى، فأما أنا فكنت فى حيرة، ماذا أقول، وكيف أعتذر وأخيراً زعمت للمستمعين: أنى لم أكتب عن شكسبير عمداً لا سهواً لأنه صديق لى.. صديق حميم عاشرته فى كتبه وعرفت كل كلمة فيها فلا يصح أن أتحدث عنه من ورقة وأخذت أتحدث.. ثم أتحدث مرتجلا.. بغير توقف والرئيس الإنجليزى ينظر إلى فى ذهول حتى إذا فرغت كان التصفيق عاليًا ووثب صاحب الدعوة إلى المسرح وأخذ يقبلنى ويثنى على "المصرى الذى يعرف شكسبير كل هذه المعرفة"!.

ومرت الأيام وتقدمت بى السن،واعترتنى أمراض وأزمات فأخذت أتداوى بقراءة أغانى شكسبير.. وهذه الأغانى لا يعرفها إلا القليلون لعمقها وصعوبتها.

كانت تسليتى أن اقرأ وأترجم، ولم أكد أفرغ منها حتى برئت من مرضى جسماً ونفساً وعدت إلى شبابى ولازلت محتفظاً به وبأغانى صديقى شكسبير!..

أناتول فرانس

قرأت له قصة لا أنساها، وقد لا يذكرها الناس إذا ذكروا "تاييس" و"ثورة الملائكة" و"الآلهة عطاش" وكتبه الخالدة الأخرى..

ولكنى أعد القصة التى قرأتها أخلد وأبقى وأجدر بقراءة المثقفين وعشاق الأدب والخلق الرفيع.

هذه القصة هى قصة "الحطب" وهى قصة الرجل الطيب الذى ينفق كل ماله على الطيبات ثم يلقى جزاءه الطيب من حيث لا يدرى.

قصة أستاذ شغوف بالعلم منقطع إليه، محسن إلى آخر حدود الإحسان عطوف إلى درجة "العبط" كان الشتاء بارداً قارصاً والأستاذ يقرأ، كان يحضر رسالة هامة تحتاج إلى مراجع عديدة فإذا بخادمته تقول:

إن امرأة البواب فى الوضع وهى فقيرة وتكاد تموت من البرد، فقال للخادمة خذى إليها "الحطب"الذى عندى.

ومرت الأيام والأستاذ ماض فى تحضير رسالته حتى احتاج إلى كتاب هام فلما عرج على المكتبات يبحث عنه التف حوله النصابون يستغلون سذاجته وأقاموا مزاداً صوريا فأخذ المسكين "يزايد" على الكتاب حتى "تلفظ" بآخر ما عنده من رصيد فإذا بالذى يزايد يدفع أكثر من ذلك ويأخذ الكتاب.. وعندئذ أغمى على الأستاذ وأخذوه إلى البيت محموماً وطال مرضه ودخل فى نقاهة بطيئة حتى حدث ذات يوم أن استأذن فى الدخول عليه غلام جميل الصورة يحمل خطاباً وقطعة مصقولة من الخشب على شكل أسطوانة.

إن الذى أرسل هذا الخطاب "امـرأة البـواب" التى كـانت تلد فى أعلى البـيت، رضى الله عنها فتزوجت أخـيرًا من رجل غنى، وهى التى أرسلت من يشترى الكتاب فى المزاد وها هو الكتاب داخل "الحطبة" التى أرسلها إليها الأستاذ ذات يوم!.

قصة التلميذ

تعلمت الفرنسية عمدًا لكى أقرأ قصة "التلميذ" لبورجيه الكاتب الفرنسى الأشهر.. ملخص الموضـوع أنى كنت أعرف الإنجليزية فقط لأن القسم العلمى فى التعليم الثانوى.. لا يعلم الفرنسية.. ولكن ما حيلتى وأنا "مضطر" للتفاهم بالفرنسية مع أعـز مخلوقة فى الوجود" وهى لا تعرف غير الفرنسية.. وهى لا تحب غير بورجيه، وتعتقد أن قصة "التلميذ" قصة خالدة.. وتتمنى لو قرأناها معا بالفرنسية!.

أمنيـة عـزيزة ولكن مـا السـبيل إلى ذلك؟ على أن أتعلم بسـرعة واقـرأها مـعـهـا بسرعة وإلا فات الوقت!.

لست أعـرف فى تاريخ "الضـرورات" أغـرب من هذه الحكاية.. قلت لنفسى أتعلم كما يتعلم الطفل، أحفظ الكلمات، ثم أتعلم ربطها ثم أتكلم، كلمات أولاً ثم جملاً.. وهذا هو الذى حدث.. ففى الشـهر الأول أخذت أحـفظ كلمـات فـرنسيـة.. وأتعلم نطقـهـا من قاموس خاص بالنطق، ثلاثين كلمة كل يوم، بعد هذا كان محصولى ألف كلمة احفظها حفظًا تاما..

وفى الشـهـر الثـانى أخذت أقـرأ (أجـرومـيـة) اللغة واربط الكلمـات التى أعـرفـهـا بعضها ببعض، وفى الشهر الثالث أخذت أحاول تطبيق هذا على قصة التلميذ لبورجيه وهى لا تكاد تصدق..!

هذه هى الكتب التى أثرت فى حياتى فمنها ما علمنى الأدب، ومنها ما علمنى الخلق العالى، ومنها ما علمنى اللغة، وأخيرًا منها ما علمنى سمو الحب وسمو آفاقه.

السير وولتر سكوت

إن الذى يعنينا من حياة السير وولتر سكوت شيئان: الأول أثر الدرس المنظم فى العقل الموهوب، والثانى البطولة الأدبية الممتازة، والإنتاج الهائل الذى أنتجه وولتر سكوت ولم يكن له نظير غير أنتونى ترللوب، وشتان بين الاثنين فى العمق والعبقرية!.

ولد وولتر سكوت فى أغسطس سنة ١٧٧١م. من عائلة عريقة فى المجد، يمتد نسبها إلى أمراء إسكوتلاندة وأبطالها، وكان أبوه محاميا وأمه ابنة طبيب كبير.

وقد أصيب وولتر بالعرج فى سن الطفولة ولازمه العرج طول حياته، وفى هذا شبه بينه وبين بيرون، وقد قضى جزءًا كبيرًا من طفولته فى قصر جده، وفى هذا القصر المحاط بجلال الطبيعة وأروع صورها تشربت نفس الطفل بما ظهر بعد ذلك فى الأديب الخالد!.

دخل مدرسة إدنبرة العالية، فتميز بين أقرانه بميله المفرط إلى الأدب والشعر وقراءته الواسعة فى غير الدروس، وغرامه بالتاريخ وبخاصة بتاريخ إسكوتلاندة وآثارها، ومهارته فى بحث الأوراق القديمة الخاصة بتلك الآثار، ومما يذكر له على سبيل المثل أنه فى الخامسة عشرة حضر الشاعر بيرنز إلى إدنبرة واحتفى به أعلام الأدباء فيها، فأعجب الشاعر بيرنز ببيتين من الشعر قرأهما تحت صورة ولم يدر مصدرهما فى ذلك الجمع من الأدباء والأعلام غير سكوت.

وفى جامعة إدنبرة درس المحاماة وتخرج محاميًا، واشتغل فى مكتب أبيه ولكن ميله إلى الأدب كان أقوى من ميله إلى المحاماة، وما كان أشد فرحه عندما عين فى سنة ١٧٩٩م عمدة لبلدة سلكر كثير وأعطى مرتب ٣٠٠ جنيه فى العام، فتم له بذلك ما يريد من الفراغ ومن الانكباب على الأدب والشعر. ولم يكن درسه للأدب والشعر والتاريخ درس لهو أو استمتاع شأن غيره من الشباب ولكنه كان درسًا منظمًا عميقًا جافا

وكان بحثًا مستفيضًا قويا، وكان كلما آنس بابًا للاستزادة طرقه، فإنه أعجب بالأدب الألماني فدرسه وترجم أغـاني بورجر وما لبث أن تزوج بسـيدة غنية، وجمع أغـانيه في سنة ١٨٠٢م ثم طبعها.

وسكن بعد ذلك بلدة اشستيل على نهر التويد، ومرت حياته إذ ذاك على وتيرة واحدة: يستيقظ من الساعة الخامسة صباحا، ويوقد ناره بيده ثم يخرج ليرى خيله وكلابه، ثم يعود فيكتب حتى الفطور، ويعاود الكتابة بعد الفطور، ثم يمضى إلى تأدية أعماله اليومية حوالى الظهر.

وفى سنة ١٨٠٥م. كتب قصيدة "السيد الأخير" فرفعته إلى الصف الأول من شعراء الإنكليز وأتبعها بأخريات فى نفس العظمة والجلال، كمارديون، وسيدة البحيرة، وقد صادف كارتلى، وبنى فيها قصراً كقصور ألف ليلة ولية، على جانب النهر.

وكان قد كتب قصة وافرلى منذ سنين، ولكنه أطلع صديقًا عليها فلم يرض عنها ولم ينصحه بالاستمرار فيها فتركها جانبًا وأخذ ينشر أعمال غيره كدريدن وسويفت، ثم خطر له أخيراً أن يعاود وافرلى، وكان قد اشترك فى عمل مطبعى تجارى هائل كلفه مالاً طائلاً، ولم يكن سكوت بكل ثروته وإنتاجه الوافر كفؤًا لذلك الإسراف وكان مدير الشركة صديقًا له دالة عليه، فكان يذهب إلى الرجل الطيب فيأخذ قسطاً بعد قسط فيعطيه ولكنه فرغ صبره ذات يوم وصاح بصاحبه: "ناشدتك الله إلا ما عاملتنى كإنسان لا كبقرة حلوب!" وكانت حالة الشركة تمضى من سيئ إلى أسوأ وتكدست فيها الكتب التى لا تباع، فأخذ سكوت يكتب قصة وافرلى، وكان يكتبها بدون أن يضع اسمه عليها فلقيت نجاحًا لا نظير له وقام العالم يتساءل عن "العظيم المجهول"! والمدهش أنه كان يبدأ القصة وينتهى منها فى أربعة أسابيع خلاف ما كان يحرره من مقالات وقصص صغيرة وأشعار، والمدهش أيضًا أنه اتخذ الحيطة الكاملة حتى لا يعرف أنه مؤلف وافرلى، وكان القصر مفتوحًا للضيوف والأصدقاء والنادر معهم. هو نفسه العظيم المجهول الذى ينتج ذلك الإنتاج الضخم المنقطع النظير.

وتم المجد والشهرة له، وكان يشعر أنه عثر على منجم ذهب فاندفع فى البذخ يبنى ويزين ويشترى ومدير الشركة يكتم عنه الإفلاس المحدق به والكارثة المقبلة،

وأخيراً وقعت الواقعة وعلم سكوت ذات يوم أنه لم يفلس فقط بل أن عليه ديناً يبلغ ١١٧,٠٠٠ جنيه! وهنا البطولة الممتازة والشهامة الخارقة فإنه أبى أن يعطف عليه دائنوه، ولكنه طلب مهلة فقط وأخذ يؤلف ويكتب ليسدد ذلك الدين العظيم وحده بلا مساعد، ولكن ذلك الجهد الجبار كان فوق ما تحتمل الصحة وما تقوم به العافية فأخذت أعراض الضعف والوهن تبدو عليه ولم يكن يبالى ويقول إنه لن يمتنع عن العمل حتى يموت!.

وأخيراً دك الجبل، فقد أصابته نوبة شلل فى غرفته وهو يكتب، فعولج منها ولكنه لم يعد يوماً ما وولتر سكوت القديم، نعم كتب وألف كثيراً بعد إصابته بالشلل ولكنها أعمال عليها أثر السقم والانحلال.

وسافر إلى إيطاليا وغيرها يستشفى وعاد معافى قليلاً فاستأنف أعماله ولكنه ما كاد يمسك القلم حتى هوى من يده فبكى بكاء مرا .

وأخيراً عاودته نوبة أخرى فمات بين أهله وذويه وكلابه.

مات وقد ترك تراثاً هائلاً خالداً وبكته إسكوتلاندة التى مجدها وفتن الناس بحسنها وعظيم آثارها وبطولة أبنائها، وبكاه العالم الذى قرأ وافرلى بين الإعجاب والدهشة.

وماذا يجرؤ منتقدوه أن يقولوا؟ قالوا هو غير فنان، وأنه رجل تاريخ يقص قصة اعتيادية يجيد حبكها، أين هو من جين أوستن التى تكتب فتبدع فى الوصف الدقيق والتحليل العجيب؟!

وإن ردنا على ناقديه هو أنه كان يخلق لك المدينة العظيمة بناسها وشوارعها وقصورها وأسواقها وينزلك للطواف فيها: فأمامك المدينة التى تضج ضجيجاً وتزدحم بمختلف الأشياء، فإذا لم ترقك وأنت عند بابها تسمع ضجة الزحام فليس الذنب ذنب سكوت ولا المدينة ولكن ذنبك أنت لأنك لم تتغلغل فى أحشائها لتعثر على الجميل الممتع والبديع الساحر!

تحية وإجلالا لوولتر سكوت وشعره الدافق الجميل ورواياته القوية.. وأدبه الخالد...

ديوان عتيق

نحن فى هذا العصر شديد والتطلع لما ينتجه الشباب، شعراً أو غير شعر ونستدل بذلك الإنتاج على المستقبل لأننا نوقن أن النهضة المقبلة تقوم على أكتاف الشباب وحده ونحن فى النظر إلى مجهود الشباب فريقان: فريق يقسو عليه ويوده كاملاً ولا يسمح بنقص ولا ضعف، فإذا أنس فيه هنة ولو صغيرة هدمه هدماً وأعمل فيه معوله بلا شفقة، والفريق الآخر أوسع رحمة وأكثر تقديراً للظروف والبيئة وما إلى ذلك، ونحن من الفريق الأخير: لا نسرع إلى الهدم ولا نحبه ولا ندعو إليه ولكن نبحث فى الرماد الخابى ولو عن قبس وفى الليل الحالك ولو عن شعاع، فإذا ظفرنا بما يبشرنا ولو بعض البشرى فرحنا به وشجعناه وأظهرناه للناس، نحن نتوخى المحاسن ونغوص على الدرر ولو فى أعماق اللجة، ننشر النبوغ الدفين فى هذا البلد وما أكثر المغمور المنسى منه!.

ولذلك حين ظهر ديوان عتيق أفرغنا له وقتاً ودرسناه قصيدة قصيدة وقصدنا أن نستبين أموراً عدة: **أولاً** أثر القديم فى هذا الشعر الجديد **وثانياً** مجهود الشاعر العصرى فى التجديد، مداه وعمقه **وثالثاً** إحاطته بالحياة وفهمه لها **ورابعاً** أثر المحاكاة والتقليد، وهل للشاعر نزعة استقلالية وطابع خاص؟

كنت أراعى فى تقديرى له ظروفه الخاصة، فهو ما زال فى عهد الدراسة ثم إنه لا يزال غض السن غض التجربة وإن كان النبوغ لا يقاس بسن ولا زمن فإن كيتس تألق نجمه وهو فى سن عتيق، وشكسبير كتب دراماته الخالدة فى عمر فوق ذلك بقليل! ولكن يجب أن نتذكر أننا فى مصر وأن مدارسنا ما تزال تسقينا الأدب الغث البالى السخيف، تنقشه فى عقولنا وتطبعه فى صفحات خواطرنا ونحن فى عهد يؤثر فيه كل التأثير ذلك الذى يسقوننا إياه!

ومن منا ينسى مواضيع الإنشاء السخيفة التى كنا نكتبها ولم نكن نعنى فيها بغير اللفظ الجميل المرصوف وأما المعنى والدراسة العميقة والبحث الدقيق فلم نكن نعرفها ولا أنظارنا توجه إليها.

أضف إلى ذلك الاطلاع المحصور الضيق فى عهد الدراسة، ولا أدرى هل الشاعر عتيق قرأ كثيراً من الشعر الغربى، فإن الاقتصار على دراسة الأدب العربى وحده لا تكفى لإتقان الشعر ولا لتجديده وإن كان الشاعر الموهوب غير محتاج لشىء فإن هومير لم يكن يعرف غير لغة قومه حين كتب الإلياذة وشكسبير لم يكن يعرف غير الإنجليزية.!

الجيد فى شعر عتيق أنه يستلهم إحساسه ويلقى العنان لتصوراته، يرسلها محلقة كما تحلق الطيور أسراباً شادية أو نائحة تستقبل الصبح أم تودع الشمس الغاربة، هى على كل حال جموع من الطير تضرب بأجنحتها فى عرض الفضاء!.

وقد يؤخذ عليه أنه كثير التشاؤم غاضب على الدنيا ساخط على الحب، يرى قتاماً فوق قتام، وهذه النزعة الباكية نزعة السخط والتمرد والثورة تراها فى الشعر الحديث كله، فهل الشباب اليوم لا يجد فى الحياة شيئًا جميلاً؟ أين النور والحسن والصبا والسماء والبحر؟ أين السحر المتغلغل فى كل شىء، لو نصحت للشاعر عتيق لنصحت له بقراءة شعر روبرت بروك فإنه كان فى مثل عمره ولكنه كان يحب الحياة يحبها حبا مستفيضاً، وكان وهو فى وسط القتال فى الدردنيل يدعو الله أنه إذا قدر عليه الموت فلا يبخل عليه بعد الموت بركن فى الآخرة وجعبة يحمل فيها ما كان يعزه فى الحياة من وجه ولون وزهر وسماء فيخلو خلوته ليستعرض ما فى الجعبة مما كان يحبه فيقبله ويشمه ويقبله وينظر إلى كل ذلك نظرة الأم الحانية على طفلها المعبود.

وأحسن ما فى ديوان عتيق الرحمة والصفح: إنه يغضب ويسخط ويثور ثم يغفر ويبسط لأحبابه قلبًا نقيا فياضاً بالعطف والحب والرضى.

على أن القصيدة التى تفردت بالحسن هى القصيدة التالية: فإن فيها تجديداً ونزعة استقلالية، وروحاً غربية، فى لفظ عربى صاف:

عهد جديد

وكالأمل المحبوب وجهك حينما

تطالعني منه العيون النواعس

هو الصبح ! لولا أن بالصبح حاجة

إلى شاعر تهفو إليه العرائسُ !

أحب فيسمو بي العفاف إلى الذرى

ويرفعني أني على الحسن حارسُ !

أظل به أشدو وما كنت شادياً

ولكنني من ذلك النور قابسُ !

والآن ما أثر المحاكاة فى شعر عتيق؟

اقرأ مثلا قصيدة "خواطر" (صفحة ١٣٤) تجد طيف العقاد يطالعك من ورائها.

أنا لا أذم العقاد ولا أطعن فى شعره ولكنى أقول للشاعر عتيق: دع العقاد جانباً فإن له طابعه الخاص وحاذر أن تقلد العقاد أو غيره فإن هذا ما يسمى بالإنجليزية MAUNERISN وأذكر أن الشباب فى عهد ما كانوا يحلقون رؤوسهم عند حلاق لطفى بك السيد ويطلقون سوالفهم كما كان يطلقها وعند ذلك كانوا يزعمون أنهم جميعًا أصبحوا لطفى السيد أدبًا وفلسفة!

يا صديقى الشاعر! أطلق العنان لسجيتك واستمر فى استلهام نفسك، واعمل كما يقول جيتة: من الداخل إلى الخارج، إنَّا نرى نجمك فى سماء المستقبل! وأخيراً تحية إعجاب وتشجيع.

الراهب المتمرد لصالح جودت

قرأت هذه القصيدة الرائعة لصديقى الشاعر الممتاز صالح جودت..

وصالح جودت هو أحد الشعراء المجددين الجريئين الذين لا يألون فى سبيل الحرية الفكرية بأى عقبة ولا حائل، وهو لذلك ماض إلى الأمام دائمًا مضطرد التقدم وعقله الخصب ونبوغه الوافر كفيلان بأن يضمنًا له سبقًا وتجلية فى الميدان الذى اختاره لإبداء مواهبه الكبيرة.

سيجد المحافظون فى قصيدة "الراهب المتمرد" لونًا جديداً من التفكير وخطوة لم يألفوها فى مواجهة المعضلات التى خشى الناس أن يواجهوها.

وإنى لواثق أنه سيجد كثيراً ممن يخالفون وما أشبه فى ذلك بالشاعر شللى، لقد كان فى صباه لا يبالى أن يبدى أفكاره ويصرح بعقيدته وقد استهدف فى ذلك لغضب كثير من أعز أصدقائه، ولكن الأدب الانجليزى يعده من مفاخره اليوم وربما كان الأدب الإنجليزى سيذكر له أبداً تلك الجراءة وذلك الفكر المتحرر الطليق، فنحن نرحب بصالح جودت وشعر صالح جودت، ونرجو أن يكون لنا عصبة من أدباء الشباب تذكرنا بشللى وكيتس وتلك الطاقة الرائعة التى بقى عبقها الطيب ناضراً حيا على الزمن.

أغانى أبى شادى

اليوم تمت "أغانى أبى شادى"، وكنت أنتظر اليوم الذى تتم فيه لأحييها بكلمة، إذ لها أثر فى نفسى لن أنساه.

كان أبو شادى ينظم هذه الأغانى الحلوة، فكلما اكتملت واحدة، وضعها فى ظرف وأرسلها إلىَّ فتصلنى مع بريد الصباح، فأنا مدين لها بكل صبح جميل مغرد مشرق أتفاءل فيه بالخير، وكيف لا أتفاءل بالطير الشادى يقرع بمنقاره الرقيق نافذتى فيرسل تحية ثم يتبعها بأغرودة ثم يمضى تاركًا وراءه خيطًا من الأمل والبشر والتفاؤل يمتد ما امتد النهار!..

فيا أدباء الشباب! يا أعلام الطليعة! ويا أيتها الأسر التى يجب أن تسمع الأغنية الراقية الطاهرة! ويا أيها المغنون الذين ظلوا على ترديد السخيف البالى! هذه الأغانى فيها سحر وفيها عذوبة، فيها تجديد وفيها بعث وحياة.

فإليكم "أغانى أبى شادى" لا أحييها بأكثر من هاته الكلمة من أعماق القلب...

كيف نظمت الشعر؟

نظمتـه صغـيراً جـدا، كـان ذلك في العـاشـرة وكـان لأبي اليد الأولى وكانت مكتبتنا عامرة.

وأبي يقـرأ وبعد أن يقرأ يتلو على أمي خلاصة ما قرأ وأنا في هـدوء الليـل أصغي له وهو يقرقر بالشيشة التي لا يزال عبقها في أنفي إلى اليوم.

قـرأ لأمي أليفرتوست وداويد كوبرفيلـد، وقـرأ أكثر مؤلفـات كونان دويـل وريدر هاجرد.

أما أنا فقد نقش في ذهني خيالان لا يبرحان: أوليفرتوست وكوبرفيلد.

ولما أخذت الشهادة الابتدائية اقترح عليَّ الجائزة فقلت "كوبرفيلد" وكان الوقت شتاء والمطر ينهمر فخرجنا تحت مظلته حتى بلغنا مكتبة ديمر في شارع كامل فاشتراه لي - طبعة كولنز.

ومن العجيب أني بدأت في قراءته والقاموس بجانبي حتى انتهيت منه في ثلاثة أشهر، ولعل هذا الكتاب - وإن يكن نثراً - قد خلق مني شاعراً، وإذ أخذت أبحث عن "دورا" مقلداً كوبرفيلد.

وكانت دورا هذه صبية تجلس بجانبي في الدرس في بيتنا فقلت فيها أول قصيدة وكانت غزلا أصف به دموعها فعثر عليها والدي في كراسها وأعجـب بالقصيدة، غير أنه نصحني أن لا أستغل الشعر في إفساد أخلاق البنات! ونصحني أن أكتب مؤقتاً - في الفخر والمدح - أما دورا فقد اختفت بعد قليل فأخذت أبحث عن دورا أخرى!.

وكانت "دورا" فى هاته المرة "استرالية".

أجل ! كانت تكاتبنى من استراليا!

وأنا أكتب إليها من صخرة المكس!

وأنظم الشعر من فوق هاته الصخرة

وأستعرض البواخر الآتية الاسترالية

وهذه هى الصخرة التى أوحت لمطران قصيدته "المساء"!.

وكانت "دورا تحسبنى رجلا وكنت أحسبها صبية، فلما تبادلنا الصور تبين لها أنى طفل وتبين لى أنها فى سن أمى..

غير أنها ذات فضل علىّ.

فقد كتبت الشعر بالإنجليزية، وأخذت فيه جائزة مؤلفات دكنز!..

* * *

بعد ذلك صار الشعر سجية! أكتبه أين شئت وحيث شئت بل يهب إلىّ ويقتضينى اقتضاء الغريم، والغريم أحيانًا يطلب التسديد عاجلاً وأحيانًا يمهل.. وهذا تمامًا ما يحدث لى!.

أجد شيئا هابطًا أحسه إحساسًا حقيقيا لفظة أو مطلعًا أو بيتًا بحاله يحتل مكانه بالرغم منى، فإذا اقتضانى الدين حالا أحدث عندى رجة ورعبًا كما يحدث للمدين الذى يحاصر، وإذا أمهلنى أحس ذلك وأحس أنه عائد!.

هذا هو الشعر عندى. هذه جذوره فى الماضى..

والآن نعالج فى كلمة موجزة الفرق بين الشعر العربى والشعر الغربى.

هناك الشعر وهناك الشاعر وهناك القراء والناقدون وهناك الزمان والمكان! يجب أن نتكلم عن كل هاته العوامل، ومجرد التكلم عنها يحدد الفروق بين الشعر العربى والغربى.

أولا ما هو الشعر؟

فى الأدب العربى الذى تعلمانه الشعر: هو الكلام الموزون المقفى، وفى الأدب الغربى الشعر هو التعبير الصادق عن الشعور الجميل

ففى الأدب العربى هو كلام موزون! أى كلام موسيقى وهذا كل شىء

فأما الأدب الغربى فهو تعبير وصدق وشعور وجمال!

هذا باختصار هو الفرق بين المدرستين.

ولعل فى ذلك الإيجاز عرض لموضوع طويل، فقد بقى الشعر العربى كلامًا موسيقيا.

ولذلك بقيت مدرسته لا تتغير وإن تنوعت الألحان.

أما فى الأدب الغربى فيلاحظ أن هناك تعبيراً **أولاً**: والتعبير أصل الفنون جميعًا.

ومحاولة التعبير تقتضى وضوح الفكرة وتقتضى الإقناع وتقتضى أن يكون التعبير مقبولاً وأن يكون جميلاً.

ويأتى بعد التعبير الصدق والصدق هو الوسيلة الوحيدة للإقناع، ولا يمكن تضليل الناس ولا تضليل التاريخ، فالصدق يظهر بالرغم من كل شىء، والكذب ستطمسه الأجيال.

فإذا قال الشاعر الغربى لممدوحه أنت عظيم وأنت كريم وأنت شجاع ثم يتضح على الأجيال أن هذا العظيم الكريم الشجاع كان صعلوكًا، وإذا مدح المتنبى كافوراً، ثم اتضح أن كافور كان خصيا..

فإن كل هذه الأضاليل لا تنفع الشعر ولا تنفع الشاعر ولا الذى قيل فيه، ولها معنى هائل! معناها أن الشعر كان مقيداً بركاب الملوك ورحاب العظماء، كان عبداً، كان ذليلا وأصله كأصل الجمال كأصل الحياة، وأصل الفن الحرية المطلقة.

تسألون، وهل لم يكن الشعر الغربى مقيداً فى ركاب الملوك؟ أجل كان! فإن مواقف شكسبير كانت للملوك وعن الملوك وفى بلاط الملوك، ولكنه بالرغم من ذلك كان يميز الإنسان فى ذلك الزحام، كان يحلله ويكتب عنه ويصفه.

ثم إن الأدب الغربى أسرع بالتحرر عندما تناولت الديمقراطية السياسة والأدب والفنون، أما الشعر العربى فلم يتحرر إلا هذه الأيام، أى بعد الأدب الغربى بأربعة أجيال ثم إنه الآن يحاول، أما الشعر الغربى فقد تحرر وبالغ فى التحرر أحياناً.

تسألون وهل لم يقم فى الشعر الغربى عظماء ولا مفكرون يحاولون التحرر!

أجيب. أجل هناك ابن الرومى وهناك أبو نواس وهناك المتنبى ولكن ابن الرومى كان أجنبيا وأبو نواس حاول أن يجدد فأغرقته موجة الرجعية والمتنبى لم يتحرر من عبوديته لبلاط سيف الدولة وإن يكن الحب الصادق أساس تلك العبودية وإن يكن ثار على الذلة التى لقيها فى ذلك البلاط ولكنه مع الأسف انتقل من العبودية فى بلاط سيف الدولة إلى عبودية أخرى فى بلاط كافور.

وإنى لأتخيل شاعرية فحلة كشاعرية المتنبى تنصرف إلى الملوك، إلى وصف الدماء، فأين الإنسانية فى الشعر وأين آلام القلب وانفعالات الروح؟

يا أسفاً للمتنبى وغيره يسجلان انفعالات وحروب سيف الدولة مع محاولة أن يظهروا هذه العصور فى إطار مجيد إلهى!..

وأين الإنسان؟ وأين ضعفه؟ وأين زلاته؟ وأين الصدق فى تصوير تلك الانفعالات وتلك العصور!

ومع الأسف يقضون العمر فى تصوير غيرهم وأين هم؟ إنك لتقرأ البحترى فلا تستبين شيئاً فيه عن نفسه، إن البحترى لشاعر تام الشاعرية ولكنه أضاعها.

إنه لا يقــل عن وردســورث، إنه لا يقــل عن دى مـوســيـه! فـقـد وصف "الإيوان" فأجاد كما وصف وردسورث الطبيعة فأحسن! وتكلم فيه عن علوه فأجاد ولكنه عمر حبها بالكلام الفـارغ؟

وضع إحساساته بما صب عليها من المحسنات اللفظية!

اقرءوا أمثلة من شعره الجميل..

ألا تجدون أن هذا الشعر الرائع كان يجب أن ينتج خيراً من ذلك؟

وتعالوا نتكلم عن شوقى، شوقى العبقرى لم يتخلص إلى حقيقة الشعر إلا فى آخر العمر، لم يكن ينتج سوى رواية أو روايتين وبضع قصائد..

من مجنون ليلى وكيلوباترة، إلى بضع أندلسيات

اقرءوا أمثلة من شعره الأخير!..

هذه هى الفروق الواضحة بين الشعرين العربى والغربى.

هل المدنية تتقدم إلى الأمام
أم تعود إلى البربرية؟

ما هو تعريف المدنية؟.. إن التعريف الذى اصطلح عليه عن المدنية أنها "تسخير قوى الطبيعة لخدمة الإنسان".

وتسخير الطبيعة يكون باستخدام العلم الذى هو ثمرة من ثمرات العقل، فلننظر فى أمرنا اليوم، إن الشىء مقلوب الوضع، فحقيقة قد وثب العالم وثباته الرائعة، فطرنا فى السحب، وغصنا لأعماق المحيط، واخترعنا الراديو وغير الراديو، ولكنا طرنا فى السحب لنصب الموت والدمار، واخترعنا الراديو لنستغله فى الدعايات والتأثير على الأفكار، فصار الوضع الصحيح أن "العلم هو الذى استخدمنا لإفناء الطبيعة" إذن فلا وجود للمدنية مادام التعريف لا ينطبق على الواقع، وقد ذكرنى هذا بمناقشة جرت بين البروفسور جود وأحد فلاسفة الهنود، كان جود يمتدح المدنية الحاضرة فأجاب الفيلسوف الهندى: حقا لقد طرتم فى الهواء وغصتم فى أعماق الماء ولكنكم بعد لم تعرفوا كيف تمشون على الأرض.

أجل إننا لا نعرف كيف نمشى على الأرض، إننا لا نزال نحبو، إن عمر المخلوقات من أول الوجود يقاس بملايين السنين وعمر الإنسان ببضعة آلاف وعمر المدنية كما اصطلح عليها لا يزيد عن ثلاثة آلاف سنة، ولقد أدى علم الحفريات أجل الخدمات فى السنوات الأخيرة فى إلقاء ضوء جديد على تطور الإنسان فقد ثبت أن الإنسانية خرجت من عصر الجليد إلى العصر الحجرى الأول فالحجرى الثانى، عصر المعادن، ومن ألطف ما قرأته عن الحرب الماضية أن النزاع كله كان على مناجم الحديد فى اللورين، إذن فنحن لا نزال فى عصر المعادن أى لم نخرج من البربرية بعد.

ولقد أدت أبحاث فرويد وغيره عن العقل، إلى أن عقل الإنسان الأول كان كعقل الطفل سواء بسواء، أى لم يكن غير صور خيالية تثيرها عاطفة ولم يكن يربطها منطق ولا تعليل، وأثبت كذلك أن الطفل تمر بعقله غريزة القتال كدور من الأدوار من التاسعة إلى الثانية عشرة، وتاريخ الإنسانية هو تكرار الدور الذى يمر به الطفل فى النمو حتى النضوج، وحيث كنا فى هذا العصر فى أعنف أدوار الحروب والقتال فالإنسانية إذن فى عمر طفل بين التاسعة والثانية عشرة، فكيف نسمى عهدنا عهد مدنية ونحن لا نزال فى طفولة التاريخ؟

ثم إن الأغلبية من القطيع الإنسانى يعيشون بعقل الإنسان الأول من حيث الصور البسيطة والعاطفة، وقد أجريت تجارب عن الذكاء فى أمريكا فوجد أن متوسط الذكاء للبالغ هو ذكاء طفل فى الرابعة عشرة من العمر، وهذا فى أمريكا فما بالكم فى البلاد الأخرى؟

فكيف تسمون هذا العهد عهد مدنية وهذا متوسط ذكائنا فى أرقى البلاد.

ومن الصواب أن أفصل قليلا تطور العقل الإنسانى، مادام العقل هو الذى أدى إلى ما نسميه المدنية:

إن للعقل الإنسانى أربع مراحل تاريخية: عقل الحيوان وعقل الطفل وعقل الهمجى وعقل المتحضر.

أما الحيوانية فثابتة ولا يمكن إنكارها فالشبه بيننا وبين الحيوان فى كثير من الأشياء مما لا يمكن إنكاره، فحسبنا دليلا الشهوة الحيوانية، والغضب، والبطش، والصياح، وغير ذلك، وأما عقلية الطفل، فإن كل إنسان منا طفل فى بعض تصرفاته مهما تمت رجولته ونضجه، وسأتكلم الآن عن أثر عقلية الطفل فى تأخر المدنية، أما عقل الهمجى فحسبكم دليلا الحروب وويلاتها والدمار والفتك والتخريب، أما العقل المتحضر فهذا هو الذى أنكره وسأشرح لكم كيف أنكره، إنى أنكره على ٩٩٪ من الإنسانية وأنسبه إلى حفنة من المختارين لا يزيدون عن ١٪.

ومن الطريف أن هذه العقول الأربعة تنكشف فى أحوال غير عادية كالمرض والسكر، أما السكر فهو يكشفها على حقيقتها كشفا عجيباً، فان الإنسان العادى بلا كأس هادئ متزن فإذا أخذ يشرب الكأس الأول أخذ يثرثر ويتكلم كلاماً سطحيا ويهذر كالأطفال، وبعد الكأس الثانى يصير همجيا وفى الكئوس المتعاقبة ينقلب حيواناً هائجاً.

ونحن فى أحوال الغضب والخوف والضجر يتمزق عنا القناع الواهى الذى نسميه بالعقل المتحضر ونبدو على حقيقتنا، ومما يعيدنا كذلك إلى فطرتنا الأولى، دوافع من الدين أو الحب أو الحرب.

وإذا راقبنا أنفسنا جيداً وجدنا أن رفقاء الماضى - الطفل والهمجى والحيوان - يلازموننا أبداً، ويطلون برأسهم دائماً ولا يمكن مطلقاً التخلص من هذا التراث القديم.

الآن ننظر كيف وصلنا إلى ما نسميه العقل المتحضر، وهل هو حقيقة عقل متميز، هل حقيقة تقدم العقل الإنسانى؟ وهل نحن نعيش بعقول أرقى من أسلافنا، ولماذا ارتقى الإنسان وحده إذا كان حقا قد ارتقى؟.

إنى الآن سأتكلم من وجهة علمية بحتة انتهى إليها وفرغ من بحثها علماء السيكولوجية التحليلية والمقارنة وهذا موضوع غاية فى الطرافة.

قلت إننا لا نستطيع التخلص من تراثنا الحيوانى Animal heritage ولا من تراثنا الطفلى، فالطفل كثير الاستطلاع والحيوان كذلك وكلاهما يعلم نفسه بالتجربة، بالخطأ والصواب Trial essor، وتمتاز القردة العليا بأنها تتعرى وتتلامس فيكتشفون عن غير عمد، ولا تلبث أن تصير اكتشافاتهم معالم فردية ثابتة فى نفوسهم يعودون إليها، وهذه الغريزة الهامة - غريزة حب الاستطلاع - فى طبيعة الإنسان هى التى أدت إلى كل الاكتشافات الخطيرة، ولكن هناك فرق كبير بين الحيوان والطفل والقرد فى ناحية والإنسان فى ناحية أخرى، فإن حب الاستطلاع فى الناحية الأولى فردى غير تعاونى وغير متكدس ولا متنقل، ستقولون ولكن القرد مقلد، فكيف لا يتعلم بالتقليد؟ أجل إنه

يقلد وقد يأكل كما نأكل ويلبس القبعة والطربوش – ولكن هذه تظل لديه تجارب فردية غير مترابطة أما نحن فنلتقط وننتقي ونربط الصور ببعضها، أعني أننا نركب من مشاهداتنا – بالنظر أو التجربة أو التقليد – نماذج نابغة تنتقل منا لغيرنا، ولكن هاته الميزة ميزة الاختيار والنقل لا تتاح للجميع فإن أكثر الناس يعيشون على هامش الحياة مقلدين كما تقلد القرود بغير فهم وبغير قدرة على الابتكار.

ومن الخطأ أن نعتقد لحظة أن أطفالا من أرقى الأسر ثقافة وعلماً يمكن أن يولدوا متحضرين، فإنك إذا أسلمت هؤلاء لقرود تعلمهم لعانوا ما عانته الإنسانية من قبل، وهذا يثبت ما أريد إثباته وهو أن جنس الإنسان ليس عنده "ميل فطرى للتقدم" وإنما طبيعته أن يشق طريقه بأية حال وأن يعيد الأدوار السابقة كالأسطوانة.

ويقول البروفسور جذبج إن الأغلبية من الناس قانعون راضون يجبرون على التفكير وعلى التبديل ولذلك اعتبر التاريخ "تغييرا" على يد نخبة مختارة يزيد حب الاستطلاع عندهم عن غيرهم وقد تمردوا على العمى الشائع فى الأجيال.

وليست هاته النخبة غير "تغير بيولوجى" يتميز عن التغير البيولوجى المعروف بين الأنوا ع بأنه قادر على الانتقال والتأثير.

وإنى أنقل إلى حضراتكم بالحرف قول روبنسن فى وصف "القطيع الإنسانى": متنازلٌ، متأثر "بالروتين"، جبان، مضاد للتجديد، وليس تقدمه المزعوم غير سطحى جزئى وحديث جدا.

ويقول ألدوس هكسلى إن الزمن كنهر جار ولكن تنتقل على أمواجه الأشياء السطحية التافهة ويغرق للقاع كل ما هو ذو قيمة وثمين.

هذا هو العقل الإنسانى وهذا مدى ما وصل إليه أو بالأصح ما وثب إليه، ومن الثابت أن التطور – إن كان يصح أن يسمى تطوراً – فقد كان تطوراً فى العقل وبالتالى فى العلم.

فلننظر الآن فى الناحية الأخرى من القطيع، أعنى ناحية الخلق.

لقد شبه هافيلوك أليس، الجنس البشرى بجيش كبير - قوامه الأكبر ذلك القطيع المتشابه المتئد السائر متساندًا - وفى الطليعة قواده وفى المؤخرة خدمه.

أما ذلك القطيع فتحكمه أبدًا غريزة القطيع، وهذه الغريزة حكمته من أول الأمر، وكلما حاول أن يشذ عنها عاد إليها، وما النضال العالمى على اختلاف أحواله غير صدى لما نال تلك الغريزة من شد وجذب ونصر وعدوان.

خلق الناس متشابهين متساوين يعيشون من خيرات الأرض لا فرق بين هذا وذاك، يعيشون بعقول أطفال أو عقول حيوانات أو عقول همج ولكنهم على كل حال يسيطر عليهم من العوامل ما لم يتغير بتاتًا على الزمن وما أدى إلى وقوف المدنية من ناحية الخلق جامدة جمود الصنم.

أول العوامل هو أن ذلك القطيع تحكمه غريزة حب المشابهة ويرفض كل ما خرج عن صور القطيع أو أحكامه وبالتالى يرفض أن يتميز فرد عن باقى أفراد القطيع، ولكنه مع هذا الرفض ذليل لا يلبث أن ينقاد فيبدأ انقياد أفراده لكل ما هو مسن أو قديم أو عجوز وينقلب ذلك الانقياد احترامًا فتقديسًا فتأليهًا يزيدها توثقًا ما ينطبع فى العقل البدائى من الخيالات والخرافات والأشباح، فإذا فقد العجوز ولم يكن هناك وثن تطلع القطيع إلى ما يمثل "العجوز" أو "الوثن" فلا يلبث أحد أفراده أن يضع يده على أعنة الأمور، وينقاد له ذلك السرب حانقًا فى نفسه، ولكن مكرهًا بطبيعته مقيدًا بتقاليده.

وهذا القطيع الآدمى شاعر بعجزه وضعفه ولذلك يتعاون ويمشى فى جموع لعله بذلك يصيب بعض الاطمئنان، وهو كذلك يكره أن يتميز غيره عنه، ولذلك يرضى بالسيد الأعلى، لعلمه أنه سيحميه ممن تفوق عليه، وينتصف له منه، غير أن هـذا التميز ما لبث أن حدث.

فقد أخذ القوى المتفوق يدخر ما غنمه بالصيد والقنص فكان هذا فجر "المال" فاحتكم الضعيف إلى السيد.

فأخذ السيد المال وقال إنه ملكى.

فانتقل النزاع إلى تصرف هذا السيد، ما صفته وما مقدار سلطته، فجاءت تعاليم بلاتو وأرسطو محددة لتلك السلطة، موضحة لتلك المعضلات، ولا شك أن قراء تاريخ الفلسفة يذكرون "المدينة الدولة" وإنها صورة من صور الحكم النيابي في تقرير سلطة الفرد وحقه في إبداء رأيه، ثم صرنا إلى العصور الوسطى فعدنا إلى البربرية في أتم صورها، صرنا إلى القطيع الذى لا يجادل ولا يناقش بل يؤمن بالقدر والشياطين، وأشباح الخطيئة ويتوقع عذاب السماوات.

ثم عاد القطيع إلى الاحتجاج وقامت الثورة الفرنسية وقام روسو وجاء العقد الاجتماعى، ومعناه تفسير ذلك الصك الذى أمضى على الأجيال بين الفرد وبين المسيطر عليه المتحكم فى أموره.. ما صفته وما حدوده؟ الفرد هو الذى اختاره والذى سلمه قياده فله الحق أن يقول له ما هذا الذى صنعت ولماذا؟

وهذا ما نسميه بالديمقراطية، وما معناها فى الواقع غير احتجاج أفراد القطيع على المسيطرين مالا أو عقلا أو جاهاً، ونداء بالرجوع إلى الحكم القديم، وفعلا قد وجد ذلك النداء صدى بعيداً نجده فى أمريكا فى أكمله، حيث لا رتب ولا ألقاب وحيث يبدو القوم فى صورة المتساوين.

ومن العجائب أن صدى ذلك النداء أدى إلى قيام الدكتاتوريات؟ إن هذا غير واضح لكثيرين ولكنه من غرائب المتناقضات، لقد تميز على أثر الحرب الماضية قوم أذكياء ملكوا فى أيمانهم مال العالم وتجارته، وكذلك تفوقوا فى عالم الاختراع والعلم، كروتشلد وبرجسون وأينشتين وفرويد، ها هم قد خرجوا على المألوف، أولئك الأذكياء.

ها هم قد ملكوا أعنة الأمور بعقولهم فلنخرج إليهم بسلاح ضد سلاح العقول، ومن الذى يتصدى لهم؟ فرد عادى بلا ثقافة ولا دراية؟

إن هؤلاء الأذكياء المقتدرين، لماذا يرجع إليهم؟

لأنهم خرجوا على المألوف من تقاليد القطيع القديم؟

وكيف يحاربهم بضد سلاحهم وهو تنشئة جيل من الأجسام، تنشئة جيل لا يدين بالعقل بل بالسلاح.

وليس هذا فقط بل يقول هو وفلاسفته ليس هناك ما يسمى الفرد، إن المبدأ القويم هو فناء الفرد فى الدولة أى أن الفرد لا وجود له ولا رأى إنما الرأى رأى السرب بحاله والحياة حياة ذلك السرب مجتمعاً لا متفرقة أفراده، والذى ينادى بذلك الرأى ويقود الأفراد إليه ما صنعته؟ نحن ندعوه دكتاتوراً وما هو إلا صورة من ذلك الوثن القديم ذلك الرمز المسيطر فى البربرية الأولى.

فإلام انتهينا؟ انتهينا إلى ما ابتدأنا منه.

ارتددنا إلى الغرائز الأولى فى صورها الغشيمة، لم نستطع أن نتخلص من العقلية البدائية ولم نستطـع أن نغير شيئاً من التراث الخلقى، وها نحن نرتد إلى غرائز القطيع.

ومهما التفتنا نجد انهياراً فى النظم، سياسية واقتصادية، وانحلالا فى الأخلاق، وإذا اعترفنا فإنما نعترف بحقيقة واحدة تلك هى انتصار العلم، ولكن يجب أن نعترف أيضاً أن العلم علم أطفالا ولم يهذب همجاً.

ونعترف أيضا أن العلم جاء على يد بضعة أفراد ممتازين، منحت ثمرات عقولهم لبشرية لا تزال فى طفولة التاريخ.

ومن هؤلاء الأفراد قوم يدعون التفوق ولكنهم يجربون على الطريقة البدائية القديمة، فهم يجربون تبديل النظم لعل ذلك يجدى وشهر الحروب بالجملة كوسيلة لرد التوازن العالمى، وهم مع الأسف على جهل تام بطبيعة التاريخ وبفلسفة الحروب، فلقد كتب مولتك القائد المعروف خطاباً لأحد أصدقائه يقول إن الحرب وسيلة نافعة كلما استغرق العالم فى الماديات، فأجابه صديقه: وهل الحروب المتتابعة أبقت فى العالم على شىء يسمى الماديات؟.

هؤلاء السادة ليخلطون فلسفة الكفاح بفلسفة الحرب، فالكفاح والتنافس هو سر التطور وهو سر قيام الحضارات، قامت حيث دفعت الدوافع الطبيعية – كنوبان الجليد – الناس من مختلف الأصقاع، أي التجاور في بقعة صالحة.

وعندما قال دارون ببقاء الأقوى، لم يقل ببقاء الأفتك، ولذا قال ببقاء الأنفع.

فإذا كنتم تسمون أسباب الرفاهيــة كالراديــو والسينما أدلة على الحضارة، فماذا تسمون التعطل والضنك الاجتماعي الشامل، وماذا تسمون الحرب الحاضرة؟!

الغريزة الجنسية

للدكتور شيللر كتاب عن مستقبل الإنسان، وهو كتاب صغير ولكنه عبارة عن بحث قيم عميق يدعو إلى التأمل فى مصائر الإنسانية وفى النذر التى تسير إليها الحوادث الجسام التى ادلهمت بها الآفاق فى السنوات الأخيرة، ولقد رد الدكتور شيللر ما يراه من اضمحلال المدنية إلى عوامل جنسية، رد الأسباب إلى الجهل بالثقافة الجنسية، وقد يكون من الطريف أن أوجز فى بضعة أسطر كيف وصل إلى هاته النتيجة.

بدأ شيللر المسألة بهذا السؤال: ما مبلغ التطور الذى بلغته الإنسانية؟ وفى أى النواحى يمكن أن نقول إنها تقدمت؟ إن الغرائز التى تحكمت فى القطيع الأول هى بعينها التى تتحكم فى القطيع الأخير، والتغير الوحيد الذى حدث هو أن هذه الغريزة صبغت بطلاء جديد، وتلك لبست قناعًا غير من معالمها، وهذه الأخرى كسوناها ثيابًا غريبة ودعوناها باسم آخر. وهكذا..

مثال ذلك أن سيد القبيلة الأولى كان يتزوج من عدة نساء، فعندما يكبر أبناؤه يطمعون فى هاته النساء فيقصيهم السيد عن القبيلة فيقاتلونه طمعًا فى الحصول على النساء والسيادة.

فالآن تتنكر غريزة الجنس وما تدعو إليه من الحرب والقتال إلى صورة أخرى قد تبدو للناظر السطحى مختلفة عن تلك الصورة القتالة بشأن مسألة اقتصادية.

ومثال آخر، هناك غريزة الهرب عندما يحيق الخطر بإنسان، كأن يلجأ إلى الفرار، أما الآن فالخطر لم يعد بدنيا محضًا، ولذلك لم يعد الفرار جريًا بمعنى كلمة الجرى بمعنى أنك تشاهد العامل المكدود والعرق يتصبب منه فتقول: ما أشجعه، وما هذه

الشجاعة إلا خوف مقنع، خوف من الغد وخوف من تصاريف القدر، فهى هى ذلك الهروب القديم وإنما اكتست الصورة بلباس غريب.

الخلاصة أن الغرائز لم تتبدل وإنما نحن ادعينا جهلا أنها تغيرت، أو نحن قد ألفنا أن نقول إن المتحضر الآن هو الهمجى منذ آلاف السنين.

مع أن هاته الأقنعة الوهمية تذوب وتتلاشى فى أحوال الغضب والحب والحرب والمرض فيصير الإنسان وحشاً أو حيواناً أو همجيا أو طفلا.. ومع ذلك لا نزال نخادع أنفسنا، وأن هذا الغباء الاجتماعى وهذا الخوف من مواجهة الحقائق هما اللذان وقفا بالخلق الإنسانى حيث هو لا يريم ولا يحول.

والواقع أنه لم يتطور غير العقل، وهل حقيقة حدث ذلك؟ وكيف هذا؟

ما الفرق بين الإنسان والحيوان؟ ولماذا تطور الإنسان وتخلف الحيوان فى الطريق ولماذا لم تتيسر للقردة العليا مدنية كمدنية الإنسان؟ الجواب هو أن الإنسان لا يزال يهتدى فى حياته بمسألة التجربة وما يعقبها من خطأ أو صواب وهذا بعينه ما يهتدى به الحيوان، غير أنه يحتفظ بما اهتدى إليه كمعالم يستبقيها لنفسه والإنسان ينقلها لغيره بواسطة الكلام والكتابة فتتكدس المعلومات وتصير مراجع وبها يهتدى الناس وعلى آثارها يبنون ويجددون.

وعلى مر الأجيال حدث تطور خطير، ذلك أن الإيمان بالعقل صار مطلقاً بل صار من الواجب أن يؤمن كل فرد بقوة عقله الخاصة، وصار عليه أن لا يقبل كل شىء كحقيقة مسلمة بل صار عليه أن يتناول حتى تراث الأجيال من علم ومعرفة بحذر وحصر، ومن بدء ذلك التاريخ أخذ العلم وهو وليد العقل يكبر ويزدهر ويثب فى خطوات واسعة.

هذا كان يجرى بينما الغرائز الأولى تتنكر أو تطلى أو تصبغ أوتلبس من الأزياء ما تشاء، وقد وقف بالخلق الإنسانى عند مرحلة بدائية لم تتغير.

فلما كبر العقل ووثب العلم وأخذ الأخير يقهر الطبيعة ويكتشف أغوارها ويظفر بكنوزها تملكه الغرور ووقفا ينظران إلى الغرائز وبخاصة الجنسية منها نظرة الازدراء والاحتقار فاختل التوازن بين القوى الحيوية التى قامت عليها دعائم المجتمع.

هاته هى الحال التى كان عليها العالم فى القرن التاسع عشر عصر الغرور العلمى على أصح تعبير وعصر الحياء الكاذب بكل معنى الكلمة.

وعندما وثب العلم أسرع فى إعداد العالم بالسلاح وجهزه بمعدات الفتك والدمار فطاحت الحرب بالشباب وذهبت بالأيدى العاملة.

وماذا بقى؟.

يقول شيللر بقى للعالم أو سيبقى طبقتان، الطبقة العليا طبقة المترفين المنعمين والطبقة السفلى وقد ذهب خيرها وبقى منها العجزة والضعاف والنساء، والطبقة الأولى قد أفسدها الترف وذهب بمنفعتها النعيم، أما الطبقة السفلى فهى كاللبن الذى ذهبت قشدته ورمى أحسنه، ومن الواضح أن الطبقة السفلى هى التى تكون الأغلبية وتتناسل وتكثر فيجىء جيل مريض إثر جيل مريض.

موجز هذا الكلام أن العقل كبر وتطور والعلم فى أثره غير أنهما سلما مخلوقًا لا يزال لغرائزه الأولى التى قيدها ومنعها من السير فى الطريق الصحيح أجيال من الحياء الكاذب والتقاليد التى اتخذت حرمة القداسة، فهذا الميزان المختل هو أول ما يجب أن يعنى به المصلحون الاجتماعيون، ولا سبيل إلى ذلك إلا بإعطاء علم النفس موضعه الصحيح، فهو الذى يعنى ببحث الغرائز وهو الذى يعنى بتهذيبها وهو الذى يعرف كيف يخلق منها قوى نافعة تمشى مع قوى العلم جنبًا لجنب وتشد أزرها.

فعلم النفس هو علم المستقبل.

هو العلم الذى سيعيد الاستقرار والهدوء، وبخاصة ما كان خاصا منه بالغريزة الجنسية، فهاته الغريزة هى التى تلصق كل الغرائز الأخرى، فهى إما تستمد منها أو تغذيها:

ومن أهم مسائل الثقافة الجنسية ما يسمى باليوجنية أو تحسين النسل، وقد رأينا ما انتهى وسينتهى إليه العالم من الاحتشاد بالعجزة والضعاف والمشوهين، هذا ما انتهى إليه شيللر فى كتابه القيم وموجزه كلمتان: علم النفس واليوجنية. قلت إن القرن التاسع عشر كان عصر الغرور العلمي وعصر الحياء الكاذب، كان مرضى النفس يعاملون كمجرمين، كانوا فى المجامع غرباء أو متغيبين حتى غصت بهم المستشفيات والسجون وكثرت حوادث الانتحار.

كانت هناك شبه مؤامرة واسعة أعضاؤها المعلمون والأطباء وأرباب الصحف وأقطاب الديانات، أجل كان هناك صمت مخيم رهيب فصله أروع تفصيل الكاتب المرحوم استفان زفيج فى كتابه عن فرويد، قال: إن هاته المؤامرة كانت تدور حول ذلك الغول الجاثم فى الدم والذى دعوه غول الجنس ويجب قتله! يجب أن يمحى ذكره من الوجود، وكل من يشكو من آثاره يجب أن يزجر أو يؤمر بالسكوت.

وقد زعموا أنهم بإهمال ذلك الغول يدعونه يموت إهمالا أو جوعًا.

ولكنه لم يمت بل أثبت أنه هو المحور الذى تدور حوله الحياة جميعاً.

وحتى "شاركوا" الطبيب العظيم الذى كان يعالج النساء المصابات بالهستيريا فى: Lasalle de la salpetriere De Paris فى باريس، عرف مصداق قول أبقراط من قديم أن الهستريا ناشئة من قلقلة تناسلية، فأبقراط لم يعد الصواب إلا قليلا وإن الأسرار التى تجننهن كانت كلها جنسية، وكن يكتمنها ولا يبحن بها.

ولكن شاركوا العظيم كان يهمس بالأسرار همسًا لتلاميذه وخاصته، وكان من بينهم فرويد وبروير وجانيه.

غير أن مريدى شاركوا كانوا أجرأ منه وإن كان منهم من تصدى له وخرج عليه، ولا شك أن أعظمهم جرأة وأبعدهم أثرًا هو فرويد وسيظل اسم الثقافة الجنسية مقترنًا باسم فرويد إلى الأبد.

غير أن اسم فرويد مع الأسف كاسم كل عبقرى قد اقترن بما لم يقصد إليه وشوهت تعاليمه وأسىء فهمه.

ولابد من الكلام عن مذهب فرويد قبل الكلام عن الثقافة الجنسية.

ولست اليوم بسبيل التفصيل وإنما سأوجز فى بضع كلمات ما أداه فرويد لعلم النفس وللعالم، ولكنى سأسبق هذا الإيجاز بشرح الرجة التى أحدثتها مبادئ فرويد، فمن سوء الحظ أنها اقترنت بالرجة التى أحدثتها الحرب العالمية فاقترنت قلقلة الأعصاب الموروثة من قيود القرن التاسع عشر إلى رجة الحرب إلى الزلزال الذى أحدثه فرويد بدويه البعيد..

فأدت تلك العوامل إلى تطرف فى النظر إلى مسألة الجنس وإلى شىء من الإباحية غريب.

وحيث إن الأدباء هم الذين يطلقون العنان لخيالهم فيسبقون الزمن فى التبشير بكل ما هو جديد فقد سرت موجة من الأدب التناسلى رفع علمها لورنس وجويس وجيد وغيرهم.

وأهمهم لورنس ومدرسته، فهو ينسب كل التقلقل الاجتماعى والأخلاقى إلى كبت جنسى فيدعو إلى إطلاق حاسة الغريزة إطلاقاً تاما.

وهو كاتب عبقرى وشاعر من طراز فخم وشعره كنثره حافل بالمسألة الجنسية، فهو حيناً يمدحها وحيناً يلعنها، وإنى أذكر لكم شيئاً منه على سبيل التفكه:

عندما جاءت إلىَّ فى الظلام
لمع البرق فكشف إلىَّ وجهها
فوجدت عليه ذلة الجنس وعبوديته
فبعد ما قبلتها
لعنت الجنس ولعنت دمى
وصحت بها أن تنصرف قبل أن يلمع البرق ثانياً

ولقد تأثرت به حقبة من العمر وكتبت شطراً من الجنس أذكره أيضًا على سبيل المثال:

أين منى مجلس أنت به
فتنة تمت سناء وسنا
وأنا قلب وحب ودم
وفراش حائر منك دنا
ومن الشوق رسول بيننا
ونديم قدم الكأس لنا
وسقانا فانتفضنا لحظة
لغبارٍ آدمى مسنا
قد عرفنا صولة الجسم التى
تحكم الحى وتطغى فى دماه
وسمعنا صرخة فى رعدها
سوط جلاد وتعذيب إله
أمرتنا فعصينا أمرها
وأبينا الذل أن يغشى الجباه
حكم الطاغى فكنا فى العصاه
وطُردنا خلف أسوار الحياه

* * *

ولقد تناولت المرحومة الكاتبة الشهيرة "فرجينيا وولف" هذا النوع من الأدب فدعته "أدب البرج المـائل" تعنى أن الأديب المقلقل الأعصاب لا يكتب أدبًا "متريحًا" وإنما يكتبه من فوق برج مائل.

فهو على ذلك منفلت النظرة، صاخب مقلقل كصاحبه

إن فرويد جاء للعالم بثلاثة أشياء:

(١) العقل الباطن.

(٢) أهمـية العـوامل المتـصارعة فـى العقل البـاطن، ورد تلك العـوامل إلى نضـال داخلى أكثره جنسى.

(٣) أهمية عهد الطفولة فى الحياة: حاضرها ومستقبلها وماضيها.

الأنسب أن أبدأ بالأخير، أى أهمية عهد الطفولة فى الحياة.

إن من يريد أن ينشئ جيلا جديداً يجب عليه أن يبدأ بالأطفال، يراقبهم فى البيوت وفى المدارس وفى كل مكان، إننا لا نستطيع تهذيب الرجال وإن كنا نستطيع أن نقوم كثيراً من الاعوجاج بواسطة التأثير والإيحاء، وفرض القوانين الرادعة والأمثلة النافعة فلننظر الآن إلى الطفل: لا يهمنى الآن من سيكولوجية الطفل غير شيئين الغرائز وتأثيرها وتطويرها، ثم نمو هاته الغرائز وكيف يتكون منها ما يسمى الشخصية.

يولد الطفـل بمجموعة غرائز قسمـها العلمـاء المحـدثون إلى ثلاث عشـرة، وأوجزها بعضهم فى قسمين كبيرين.

وهاته الغرائز مشتركة فى الجميع وهذا تفصيلها: الراحة الجسدية، طلب الأمان، الفرار، تملق القوى، حب الظهور، حب السيطرة، البحث عن الجنس الآخر، حب التطلع والتقصى، الرجوع إلى زمان الذكريات والأمكنة المـألوفة.

أمـا الإيجـاز فيضم كل هـذا تحت بابين: المحـافظة على الذات والمحـافظة على النسل، أو تارة أخرى الأنانية والغيرية، أو بعبارة أخرى الحياة والحب، أو بعبارة أخرى النـوع والجنـس.

وبعضهم يوجز القسمين إلى اثنين: غريزة الحياة وغريزة الفناء أوالهدم.

فلنكتف من هذا بأحسنه وهو التقسيم إلى غريزة الذات وغريزة الحب.

والواقع أنه لا يمكن فصل الواحدة عن الأخرى فإن الإنسان لايستطيع أن يتناسل ما لم يحصل على الطعام، ولقد وقع لى كتاب عن الضعف التناسلى لطبيب فرنسى فلم يذكر في العلاج شيئًا من العقاقير بل أوجزه فى ثلاثة أشياء: الطعام الجيد،والصحة العقلية، والرياضة، وفصل أنواعًا من "الرجيم" ووضع برنامجًا للحياة الصحيحة.

كلمة الغريزة كلمة مبهمة أسيء استعمالها وفهمها، فما بالكم إذا اقترنت بالمعنى الجنسى؟ وقد عرف معنى الغريزة وفصلها الفلاسفة قديمًا قبل أن يتناولها العلم بالتفصيل، فقال أفلاطون إن أى عمل يبدأ بالرغبة فالدافع فالتفكير فالحركة، والرغبة هى المنبه الداخلى الخارجى والدافع هو الغريزة، والتفكير والحركة هما القوى المنطلقة من ذلك الدافع.

وقد زاد أفلاطون على ذلك شرحًا عجيبًا إذ قال إن أكثر الدوافع معلقة بين الخاصرتين، أى تناسلية، ومم يستمد هذا الدافع قوته؟

هنا يأتى فرويد فيقول إن فى العقل ما يشبه الدينامو ويسميه الليبدو، لقد أطلقوا عليه تسمية عربية خاطئة فدعوه مركز الشهوة والواقع أنه قوة حيوية وهو الذى يمون الدوافع بالطاقة اللازمة.

لم يتكلم فرويد عن الشهوة وإنما تكلم عن الحب ورسم له خطا واضح المعالم يبدأ من حب الذات إلى حب الأم إلى حب المجتمع إلى حب الجنس المشابه إلى حب الجنس الآخر، وأى اختلال أو بتر أو تشويه فى ذلك الخط يحدث كل الأمراض العصبية الناشئة فيما بعد.

وكذلك قال إن كل خطأ فى نمو ذلك الحب وتطوره الطبيعى وكل تناول غشيم مفسد مؤد إلى الشذوذ الجنسى، ولقد زعم كثير من الناس خطأ أن فرويد يقول بوجود الشهوة فى الطفل منذ ولادته.

إن فرويد قسم جسم الطفل إلى مناطق جنسية أهمها الفم والشرج، وقال إن هاتين فتحتين بابين فقط لما يحدث فى البلوغ عندما تنشط الغدد الداخلية الصماء وتتفتح زهرة الجنس، وقال إن تهيج هاته المناطق باللمس وغيره يترك فيها أثراً لا يمحى فيما بعد، ومن هنا ضرر التقبيل وترك الأطفال للخدم والمربيات.

غير أن ركمان وجليى وغيرهما نبها إلى غريزة الفناء أو الهدم عند الطفل.

ونبها كذلك إلى خاصية تصحبها وهى الإحساس بالذنب، ونبها كذلك إلى خاصية هامة فى الطفولة وهى سمة الخيال وكثرة الهواجس والتصورات.

ويقول ركمان إن الحب لا ضير فيه وإنما الضرر كل الضرر من الغرائز الهدامة واستهتارها أو استدامتها، وليس التربية ولا المدنية كما كان فى الاعتقاد كبحًا للحب وإنما هى كبح لغرائز الهدم وتضييق لمجال التصورات والوساوس وصرف لما يصحب ذلك من الإحساسات بالندم والذنب.

وقد أكد هؤلاء العلماء أن الإحساسات الجنسية الأولى منصبة على الطفل ذاته ويعقب ذلك دور هدوء حتى البلوغ، فإذا جاء البلوغ وتفتح الجنس يجب أن لا يكون قد بقى فى الذاكرة منها غير أثر بعيد، ويجب أن تكون خادمة للدور الجنسى الصحيح ومكملة له لا مسيطرة عليه ولا متنصلة عنه، والشذوذ الجنسى بأى أنواعه متعلق بالطفولة وهو على ثلاثة أنوا ع: شذوذ حقيقى وموانع ونوع متصل ببتر خط الحب الذى ذكرته وناشئ عنه.

أما الشذوذ الحقيقى فنوعان: السادية والماسكوية، فالسادية هى الميل إلى العنف والتعذيب والقسوة والماسكوية وهى الميل إلى الخنوع والذلة وقبول التعذيب، فإذا كانت التربية فى الطفولة خاطئة بحيث تنمى غرائز الهدم أو كانت البيئة حافلة بالصورة العنيفة الهدامة صار الطفل ساديا فيما بعد.

ولعله من الصراحة أن أقول إن أغلب الرجال الذين يضربون نساءهم من الطبقة السفلى نشأوا لفقرهم مكدسين فى غرفة أو غرفتين، فيترجم الطفل العمل الجنسى إذا

رآه على أنه صراع وعنف وليس لديه فى عقله الصغير معنى غير ذلك، وحتى العادة السرية ما هى إلا تهييج باللمس قد حذرت منه قبلا ومخرج لغرائز هدامة ثائرة، وهاته الغرائز الهدامة مصحوبة دائمًا بالإحساس بالندم والذنب وهذا أسوا عواقبها، وقد ينتقل الشعور بقبح الفعلة إلى ذات الشخص الذى يمارسها فيعيش "قرفانًا" من نفسه!.

أما الموانع وكثيرًا ما تكون السبب فى الضعف التناسلى، فمنشؤها كذلك الطفولة وفى إحساسات بالعجز وعدم القدرة، متنوعة الأشكال، ومنشؤها الندم والخوف فيصفان الحياة فيما بعد بالعجز والقعود.

أما إذا تطرقت التربية فى هدم غريزة الكفاح وعلمت الطاعة المطلقة والانقياد التام والذلة العمياء فإنها تؤدى إلى الماسوكية وهى حب العذاب أو قبوله.

أما النوع الأخير وهو الخاص ببتر خط الحب، فإما يقطعه فى أوله أو يقطعه عند مرحلة من المراحل كمرحلة حب الوالدين مثلا، فإذا كان البتر عند المرحلة الأولى نشأ ما يسمى النرجسية وهى أن يحب الإنسان ذاته أو ما يشبه ذاته أو ما يذكره بماضيه أو بصورته، وأما إذا حدث البتر بعد مرحلة الأم فإن الإنسان لا يحب إلا الذى يعامله بالحنان أو يعطف عليه كأم وهذا هو الحب العذرى.

والزواج يخفق إذا كان الإنسان نرجسيا محضًا أو أنالكثيا محضًا، ولكى ينجح الإنسان يجب أن يكون وسطًا بين هذا وذاك، ومن ذلك يتضح أثر التربية الجنسية الصحيحة فى الحياة..

فـــن الحيـــاة

الحـيـاة فن جـمـيل، لا بل عـدة فنون مندمـجـة مـتـصــلة تكون فنا واحـداً هو فن الحيـاة..

وأكثر الناس لا يعرفون كيف يعيشون، أجل أكثر الناس يتخبطون فى ظلام دامس ولذلك تكون حياتهم شقاء هم السبب فيه.

قـد يعـتـرض البـعض أن من أسـبـاب الشـقـاء مـا لا قـبـل لنا به ولا يد ولا رأى ولكنى أرد بأن أكثر الشقاء - ولا أقول كله - هو من مخيلتنـا ومن اعتيادنا ومن البيئة التى نوجد فيها..

ولكن ما هى الحياة أولا! وما هو الفن ثانياً؟.

الحياة مطابقة لما بين الدنيا الخارجية والدنيا الداخلية،والفن هو المعرفة مضافة إلى الطبيـعة؟ أى المـلاءمـة بين الداخل والخـارج. فـالحـيـاة والفـن من عنصـر واحـد، فالحياة الفن والفن الحياة.

قلت إن الحـيـاة مـلاءمـة بين مـا فى الخـارج والداخل، ويسـمى العـالم الخـارجى (الماكرومكزم) أو العالم الكبير والعالم الداخلى (الميكروكزم) أى العالم الصغير.

فما معنى هذا؟

مـعناه أن انعكاس العـالم الخـارجى على مـرآة أنفـسنا هو الذى يشكل الحـيـاة ويعطيها الصـورة الخـاصـة بكل منا، وكلمـا كانت الصـورة المنعكسة على مرآة أنفسنا مطابقة للأصل كانت الحياة أقرب إلى الفن والكمال.

وكلما كانت الصــورة مشوهة أو مقـلوبة أو مبتــورة كانت الحياة بعـيدة عن الفن والكمال.

إننا نجعل هذه الصورة مجلوة على حقيقتها كحقيقـة السماء فى أعلى بحـيرة فى يوم صيف جميل.

إننا فى الحياة نقـوم بأشياء كثيرة ملخصـها ثـلاثة أشياء: التفكـير والحـب والعمل، والتفكير فن والحب فن والعمل فن.

وقد قسم العلماء التفكير إلى نوعين: التفكير بالجسد والتفكير بالكلمة.

والتـفكير بالجسـد أقـواها وأضـبطها ولكنه محـدود ضـيق الأفـق، فمن ذلك التـفكير تفكـير القطـة التى تثب والملاكم الذى يضرب، فهـذان يفكـران بالعين واليد والقدم.

وهذا يسمى تفكير الغريزة، ويقول أندريه مورو: إن أرقى أنواع التفكير هو الذى ينتقل من العقل إلى الغريزة، يعنى بذلك ينتقل من دور التحليل والمنطق إلى دور التنفيذ السليم لوساطة الغريزة التى تملى على أعضاء الجسم فتقـوم بالعمل وتؤديه مع أحسن حال.

وهناك التفكير بالكلمة وهو أشد أنواع التفكير خطراً وأبعدها مدى، وهو أكثرها إلهاماً، فإن كلمـة واحدة تمثـل عروشاً وتقـلب دولا وتغير نظـاماً، وإن كلمة واحـدة فى ميدان السياسة أو الاقتصاد لتفسر ألف تفسير وتؤول ألف تأويل.

ما هى قواعد التفكير السليم؟

إن التفكير السليم لشىء نعتاده كما نعتاد أى شىء.

فالإنسان حزمة من العوائد كما قال وليم جيمس.

إن التفكير السليم يكون أساسه أمرين:

الأول: الإيمان بالقواعد التي أثبتت الأجيال صحتها واتفقت التقاليد المتوارثة على التسليم لها، تلك أصول ثابتة فى النفس الإنسانية لا سبيل إلى إنكارها ولا الخلاص منها، وعبثًا محاولة التفلت من جذور امتدت فى أعمق أعماق السرائر الإنسانية وبقيت هناك، وإنما الشجرة التى تنمو من تلك الأعماق وتصل إلى النور والشمس هى التى يباح لها أن تحلق وتتساءل وتبحث مثل ذلك الطيار الذى يستكشف وهو بعد جزء من الجيش الذى ينتظر إشارته ليهتدى ثم ينتصر.

والأمر الثاني، الأساس الثاني للتفكير هو أمـــر ديكـــارتى محض، ديكـــارتى أى يوقن بعظمة العقل الإنسانى وإمكانه التحليل والتعليـــل والوصـــول، وهو يبنى قدرته على الشك المستند إلى قواعد ثابتة من القضايا المنطقية التى استلمتها الإنسانية من جيل لجيل.

ويتفرع من الأمرين أمر جدير بالتدبر.

وهو أنه لكى تكون الصورة المملوءة فى نفوسنا سليمة والمرآة غير محرجة يجب أن نستبعد الأوهام والخزعبلات والأباطيل، يجب أن نستبعد الفكرة الزائفة والأقاويل السخيفة والترهات.

هذا أساس التفكير وهو الفن الأول.

أما الفن الثانى فهو الحب، ويتفرع منه الصداقة فهو أبوها وسيدها، إن رأى فرويد أن الدنيا قامت على الحب وعلى الحب وحده وقد تختلف صوره وتتباين أشكاله، فهو حب للوالدين حينًا وللجنس المخالف ما تبقى منه، وهو عند فرويد خط مرسوم كالقطار يسير من محطة إلى أخرى ما بتر منه أو اقتصد أو شوه يغير وجه الحياة بحالها.

ويقول علماء التناسل: إن الشاب والشابة فى سن المراهقة ينشغلان بتصوير المثل الأعلى كل من ناحيته، والأصل فى المثل الأعلى عند الشاب امرأة وعند المرأة الرجل، ولكنه لما كان فى تلك السن، يستحيل تحقيق ذلك المثل فإن المراهق ينصرف إلى تخيل المثل الأعلى على هواه، فحينًا يكون ذلك شعرًا وحينًا يكون موسيقى وحينًا تصويرًا.

وهنا منشأ الفنون الجميلة.

فإذا أراد الله تحقيق حلم من أحلام الشباب وجب أن يعلم كل منهم كيف يحب وكيف يستبقى ذلك.

وإذا علم كيف يستبقى حبيبه علم كيف يستبقى صديقه.

فيجب على الرجل أن يلم أولا بطبيعة الحب وثانياً بطبيعة المرأة، ويجب على المرأة أن تلم أولا بطبيعة الحب وثانياً بطبيعة الرجل، فأكثر الخلاف بينهما ناشئ من قلة الفهم، كل يتهم الآخر بما ليس فيه أويضيف إليه ما ليس عنده.

فالحب ليس عنصراً واحداً بسيطاً بل هو مزيج مركب من الإعجاب والجنس وحب الملك والاعتياد.

فلابد من الإعجاب أولا، لابد من تلك الصدمة التى تعترى الإنسان أولا، وثانياً لابد أن يكون طبيعيا كما أرادت الطبيعة، وثالثاً لابد أن يحب الواحد منهما الآخر حبا يغرى بالانفراد ثم تكشف النفس وتفتح مغاليق القلب فى غير تكليف ولا تصنع، ثم أخيراً لابد أن يعتاد الواحد الآخر، لابد أن يتآلفا باتفاق الميول وتشابه الأهواء، ويقول العلماء إن هذا الاعتياد هو الأسمنت الذى يربط العناصر الأخرى بعضها ببعض.

وطبيعة الرجل فى أساسها أنه مغامر، مفروض فيه القوة والجبروت والقدرة على الحماية، مفروض أنه الجندى المحارب.

وطبيعة المرأة فى أساسها الأمومة وما يتفرع من ذلك من حنان.

وهى التى تهيئ الوسادة المريحة للجندى وتبنى له العش الهادئ الجميل، فمفروض إذن أنها تنال بالبساطة والوداعة والصبر ما دام أساس طبيعتها الحنان، حنان الأمومة، فمهما عصفت وثارت يجب أن يعرف الرجل أنه فى وسط العاصفة كالربان الماهر فى البحر الثائر يصبر على العاصفة ولا يكرهها ويتنكر له البحر ولا يزال يحبه.

ولهذا المقدار من الفهم عند كليهما تبقى المحبة بينهما ثابتة، ويبقى أن يؤكد أساس المحبة والصداقة معًا أن يتجرد الإنسان من الأنانية، يجب أن يعطى لكى يأخذ، فإن أكثر الناس يأخذون ولا يعطون؛ وبذلك يفقدون أحبابهم ويفقدون أصحابهم.

ويؤكد أكثر من ذلك أن أساس المحبة والصداقة أمور صغيرة تقوم عليها الحياة وتقوم عليها الدنيا وتقوم عليها المحبة والصداقة.

فالعظائم لا يقوم بها الرجل الذى يقوم بالأمور الصغيرة فى شكل عظيم، وكيف يقوم بالأمور الصغيرة فى شكل عظيم؟

إننا فى الغالب ننسى المناسبات الصغيرة التى لو انتهزناها لقيدت تلك السلسلة الرفيعة أحبابنا وأصدقاءنا بقيود تبقى مدى الحياة: كلمة صغيرة، هدية تافهة، لحظة تنتهزها للسؤال عنهم، رنة التليفون فى عيد الميلاد، تلك أشياء ينساها أكثرنا وبذلك تفتر الصداقات وتموت المحبات ووقودها تلك الأمور التوافه.

* * *

هذا فن الحب ويبقى فن العمل.

العمل قوام الحياة والدعامة التى تقوم عليها، بل هو الدريئة التى نستتر وراءها لننسى متاعبنا وأشجاننا، فما دمنا نعمل فنحن فى شاغل من عملنا، لا نبالى بسفالات الناس، ولا بأقاويلهم ولابسخافاتهم، ولكن هل مجرد العمل يكفى؟

كلا لابد أن يكون العمل مثمرًا، لابد من الجنى الشهى، لابد من الراحة بعد التعب، والراحة بعد ذلك الجنى الشهى!.

حقيقة أن المواهب تختلف وأن الله ينعم على هذا بالعبقرية ويجعل ذلك فى مستوى العامة.

ولكن حتى العبقرية تموت إذا لم يتعهدها العمل المنظم، ورحم الله شوقى حين قال:

"السيف يزدهى بالصقال!"

فقد كان جيته لا يخجل من ترتيب عمله
وكانت ساعات عمله منظمة وهو العبقرى المشهور
وكان لا يخجل أن يطرد عنه الزائر البغيض
كان يقول للذى يشغله فى جرأة: أرجوك أن تنصرف فإنى مشغول
وفى الأمثال! أثقل الثقلاء من شغل مشغولا!.
ولكننا نتورط ونجامل وبذلك يضيع وقتنا.

ومن أسرار السعادة أن نتبع الأفضل ولا نتبع سبيل المجاملة، وقد قال المرحوم أحمد عبدالوهاب باشا: إن أسرار النجاح أن تقول "لا" حين يجب أن تقولها.

إن هذا التورط ضرب من الفوضى ضرب من قلة الضوابط التى يتعثر بوساطتها الزمن وتتمزق الجهود.

وقد قال أحد عظمائنا: إن آفة الشباب عندنا أنهم يجاملون وسطاً فيه (فرامل) لا يستعملها أهلها!.

قال إديسون العبقرية ٩٩٪عرق.

يعنى أن العبقرية لا تعنى الكسل، بل الجهد الدائم والحيوية المتدفقة.

ولقد يخيل للذى يرى أثر العبقرية فى الفنون أن القصيدة أوالرسم الذى قد يقوم به العبقرى فى ساعة أو بعضها من نتاج العبقرية وحدها وهو واهم، فإن خطا واحداً يرسمه مصور هو جهد سنين، وبيت شاعر قد يلوح بسيطاً ولكن هذه البساطة خلاصة عهود وأزمان من النصب والتعب.

ويشترط فى العمل أن تتخلله الراحة، ولا يهزأن أحد بذلك ولا يتخيلن أحد أن الإنسان فى راحته يقطع الصلة بينه وبين عمله.. كلا العقل الباطن يشتغل دائماً والإنسان فى الراحة يستجم.

هذه هى أسرار الحياة وفنها الرفيع.

الوعى الأدبى

إن الإنسان ليحس بمعنى قولنا "الأدب والحياة والحب" إحساسا عامًا، بل أكاد أقول إحساسًا رياضيا نولد به، فإنه لا أحد يعلمنا أن ٢+٢=٤ وكذلك لا أحد يعلمنا أن الحياة شيء غير مجرد التنفس والأكل والتناسل، وكذلك لا أحد يعلمنا أن الأدب هو ذلك الشيء الغامض الساحر الذى ينتشى منه المتعلم حين يقرأ البيت الشعرى الرائع والعامى حين يطرب للأغنية أو الموال فيصيح "الله" قبل أن يحاول أن يفهم.. وإن الدمعة لتسيل منه كذلك ويكون انحدارها قبل أن يتساءل العقل نفسه لماذا تنحدر، وذلك دليل على أن الإحساس بالأدب شيء لا دخل للعقل أو التفكير فيه بل أكاد أقول إن الأدب - كلون من ألوان الفن - سبق العقل الإنسانى فى مراحل التطور البيولوجى، ثم إن الأدب جاء ضرورة اجتماعية يستعين به الإنسان على فهم هذه المشاكل التى تجد كل حين مع تقدم المدنية والازدياد فى التطور البيولوجى.

وليس من شك فى أن الحاجة إلى الفن كانت فى البداية حاجة ملحة للتعبير، كان الإنسان برغم شعوره بسيادته يحس العزلة، يحس الظمأ، يحس الحاجة إلى التعبير عن تلك العزلة وهذا الظمأ، ولقد عبر عن ذلك بالوسائل التى كانت فى طاقته، عبر بالرقص وبالنحت وبالنقوش، فلما اخترع الإنسان الكلام جعل يعبر باللفظ بدل الإشارة، وذلك هو الأدب فى فجره الأول وفى أبسط صوره هو إذن لون من التعبير الفنى، يستعين فيه المرء بالكلمة وعندما نصل إلى هذه المرحلة نجد أن الأدب لم يعد تعبيراً فحسب بل أصبح جسراً بين الإنسان والوسط تعدى حد التعبير إلى حد الصلة أو بعبارة أخرى تعدى المعنى الضيق إلى معنيين هائلين: الأول بيولوجى وهو صلة الفرد بالمجتمع، والآخر سيكولوجى وهو ضرورة الوصول إلى غاية الغايات من معرفة الناس معرفة عميقة تحيل

سطحياتهم إلى حقائقهم وقبحهم إلى جمال وعيوبهم إلى حسنات، وبهذا نستطيع أن نحب الناس ونندمج فيهم اندماجًا يحبب الحياة إلينا ويخفف أعباءها، فالأدب البيولوجى من هذه الناحية هو الانفعال بين الإنسان والبيئة، أما الجانب السيكولوجى فهو الذى سيشرح لنا ما هو أدب وما هو ليس بأدب، وسيشرح لنا من هو الأديب ومن هو غير الأديب، ومن ثم تتضح رسالة الأديب ولا يعود فيها خفاء ولا غموض، ومن ثم يتضح كيف نطلع على الناس بموضوعات تسليهم وترفه عنهم، وهل وظيفة الأدباء أن ينصبوا أنفسهم وعاظًا ومقومين للأخلاق ودعاة للفضيلة؟ هل تقتضيهم رسالة الأدب أن يقفوا على خشبة المسرح صائحين: أيها الناس تجنبوا المآثم واعتصموا بحبل الاستقامة، أو يعتلوا المنابر قائلين: أيا أهل مصر لقد كثر النفاق وفشا الرياء فتجنبوهما، أويذيعوا فى الراديو كلا من هذا الطراز، لا شك أن هذه النداءات واجبة ولكنها كمجرد نداء يمل ويضجر ولا يثبت فى الأذهان إلا ما يتبقى فى اللحظة التى ألقيت فيها، هذه عظات تتبخر وكل من يستبقيها أو يذكرها، ولكن العظة الخالدة والأثر الباقى والدعاية إنما تكون فى الحركة الفنية فى اللفتة الأدبية فى الصورة الرائعة من الإيماءة البليغة فى الكلمة الواحدة التى تغنى عن كتاب، ولهذا خلدت عظات الكتب المقدسة وحبب إلينا استعادتها والتمثل بآياتها لأنها ليست مجرد كلام بل أن الكلمة الواحدة لتجعلنا نقف حيالها مشدوهين بما تحمل من أسرار وتلميحات وما ينطوى وراءها من خطورة.. ولو كان مجرد كلام مرصوف فى أبلغ أسلوب ما كان له هذا الأثر العميق الذى يشيع فى النفس عند تلاوته، فهل ساءلنا أنفسنا ذات يوم ونحن نستمع للقرآن مثلا عن معنى الأدب الصافى النقى الملهم الذى يجرى من نبع إلهى أزلى؟ إن الإحساس الأول عندما نستمع إلى أدب يستقى معينه من ينابيع جبارة أن نحس حركة غير عادية تهز كياننا هزا والثانى أن هاته الحركة تقلقل فى أعماق باطننا صوراً مستكنة لم يكن من السهل لغير هذا الحافز القوى أن يستثيرها والثالث أنها تجعلنا نرى بعين جديدة ما لم نكن نراه من قبل والرابع أننا نرى أشياء جديدة لا يراها من لم يسعد بهذه الهزة الفنية الرائعة والخامس أننا نحس أننا انتقلنا إلى عالم جديد يختلف تماماً عن عالمنا المادى الواقعى الملموس.

هذا هو الأثر السيكولوجي الواضح الذى تثيره لفتـــة فنيـــة رائعة من قلم جبار ومن ريشة ملهم.

ما معنى هذا فى علم النفس؟ معناه تحقيـق أبعد ما تصبو إليه التربية النفسية، ألا وهو تحقيق الغاية من الحياة الصحيحة، وما تلك الغاية إلا أن تكون حياتنا أعمق ودنيانا أشمل وأوسع بالطريقة التى نتبعها فى اقتناص المعرفة، إن أكثرنا حين يلتفت لما حوله ينظر إليه نصف نظرة أو يصافحه مصافحة عاجلة أو يجلس بعض الوقت ثم ينصرف إلى أمور خاصة، ولكن المعرفة السيكولوجية على حقيقتها تحثنا على إصغاء أجمل وعلى اندماج أوفى وعلى نظرة أشمل، ونحن لا نستطيع أن نحسن الإصغاء أو نطيل النظر أو نحتمل ما لا يحتمل إلا إذا تعلمنا أن نحب كل شىء فيها، أن نبحث وراء القبح عن جمال وخلف الخطيئة عن عذر يجعلنا لا نضيق بها ذرعًا وفى تلافيف البخل عن لون لا يبعده كثيراً عن الكرم.

ولكن من ذا الذى يعلمنا حب الحياة، من الذى يثير فينا الحركة والاهتمام والانفعال، من الذى يحثنا على أن تكون جوانبنا متعددة وآفاقنا واسعة، من الذى يضيف إلى عين حقيقته عين خياله وخيالنا، من الذى يغير المادة حتى تصير خيالا ويجمد الخيال حتى يصير مادة ويجعل من أتفه شىء فى الوجود معنى جليلا، ومن الذى لا يستحق أن يلتفت إليه شىء يخلد وتصير له أهمية إنسانية عالمية، إنه الأديب، فرسالة الأديب إذن تجعلنا نحب الحياة ونؤمن بجمال الوجود وبأنه ما من شىء إلا وله قيمة، وأن القبح الظاهر قد يستر جمالا بارعًا وأن فى الشر صوراً قد تكون أروع من الخير.

فإذا استطعنا أن نحب هذه الحياة بخيرها وشرها بمخلوقاتها ضعفيها وقويها حقيرها وكبيرها، إذا استطعنا عن طريق الأدب أن نجلو أسرار هذا الكون وأن نبين أن الله لم يخلق الدنيا عبثًا وأنه أودع باطنها جمالا خفيا وموسيقى خفية فأية رسالة أخلد وأية مهمة أبعد وأروع من رسالة الأديب على حقيقتها، وأى شىء أنفع وأعم من بث هذه المحبة الشاملة وتوثيق عرى الإنسانية المفككة.

ولننظر فى الوسيلة التى يؤدى بها الأدب الرفيع رسالته، أو بعبارة أخرى فلنمعن النظر فى الأعمال الأدبيــة الجليــلة الشأن التى نعتبر أنها بخلودها قد أدت رسالتها ولا تزال تؤديها، لنبحث عن قاسم مشترك أعظم تمــت بوساطته الرسالة أو حسنت تأدية وتبليغاً.

كان أحد مدرسينا الإنكليز يقول: "إن واجبى تعليمكم الأدب لا أن أنقل إليكم معرفة فحسب بل أن أجعلكم تشعرون، لا بل أجعلكم تحسنون ترجمة ما ترونه بأعينكم.. وما تشعرونه بقلوبكم.. ثم يضيف إلى ذلك: اعلموا أن تعريف الحياة الذى يعجبنى هو أن الحياة تماش وا ع مع البيئة".

وقديما قال عوليس: إنى جزء من كل ما لاقيت وإن الروح الكبيرة لتصرخ عندما يجيء هذا التمساح الواعى، ولقد تصرخ نائحة أوضاحكة أومعجبة.. فمن لم يثر فى التماس بالوسط صيحة من هاته الصيحات الثلاث فقد صنعه الأديب بفقدان صيغة الحى الواعى، وأكد أن هذا التماس يجب أن يحدث صرخة وليس مجرد اختلاجة أو شعور أوانفعال.

والأديب الكامل من تتجاوب نفسه بهذه الصيحات الثلاث معًا بنسب متزنة، وإن أعظم الأرواح إحساساً بالألم كانت أعظمها استجابة للضحك عند الحاجة، وأعظم مثل لهذا شكسبير، فقد كان يسخر من الإنسان ويضحك منه قائلا: "رباه ما أسخف البشر" ثم ينقلب إلى تمجيده فى ساعة أخرى: "ما أعجب ما صنع الله، جلال فكر، كمال من الشكل والحركة، شيء إلهى.. ولقد يجيد كاتب عظيم نوعًا واحداً من الاستجابة كما أجاد هاردى مثلا "أدب الدموع" وكما أجاد المتنبى "أدب السخط" على أن استجابة الإعجاب هى أبسط الدلائل على الروعة التى يثيرها الأدب بل هى التحية التى نؤديها للجمال على الرغم منا.. فقد عرف الجمال أحد الفرنسيين بقوله: إنه ذلك الشيء الذى يجعلك تصيح معجباً لحد الجنون.. دون أن تدرى لماذا، فهل يكون تعريف الأدب الرفيع إذن التحام هذه الصيحات معًا، وبذلك يكون لها صدى فى نفوسنا، أو بعبارة أخرى تعمق وعينا، وبذلك نكون أكثر نفاذ بصيرة وعطفاً وتقديراً.

إننـا عندما نلتفت لماضينا بعد أن نكـون قد قـرأنا أدب العبـاقرة وفـهمناه، نجد نظرتنا لأشياء كثيرة قد تغيرت، فـإن الشيء الذي كان يبدو جامداً تافهًا أمامنا قد تبدل معناه ويبدو في زي جديد، إنه كان قاتمًا فصار شفافًا، إننا الآن نجيد ترجمة ما نرى!

والأدب وعي ويقظة وترجمة وجد، وليس فيه لهو رخيص ولامجرد استمتاع ولا تخدير أعصاب بل هو "مهماز" يثير ما تبلد ما لدينا ويوقظ ما نام في أعماق نفوسنا.

إن الذي يطالع قصيدة بروك عن العاشق الكبير، قد لا يطرب لها وهو ناشئ فإذا صار رجلا سيطرب لما يخلع بروك على ملاءة الفراش والملاعق وكسر الخبز من صور رائعة الجمال.. إن هذه الأشياء اليومية التافهة تصير في شعر بروك قطعًا حية هامة لها معناها الذي لا يبلى، إن الحزن في الشخص يبدو شعوراً عاما أو حزنًا إنسانيا مشتركًا، أما الأديب فإن هذه المشاهد تتجزأ أمام عينيه إلى آلاف الأجزاء لكل جزء أهميته الخاصة ومعناه الملازم له، وهذا معنى الوعي الأدبي.

إن الشخص العادي حين يسير في جنازة مثلا سيجد دموعًا مشتركة أما الأديب ذو الوعي الكامل فسيرى كل سائر في هذه الجنازة شيئًا خاصا، بل في كل سائر معنى جديداً للألم، إنه لا يمشي فوق سطوح الأشياء بل خلال معانيها، إن الروح القوية لتلمس باستمرار نتوءات الحياة وحوادثها وإنها لتحس باستمرار وتصيح باستمرار، ولقد تقرأ كتابًا لا يعجبك إنشاؤه أو أسلوبه ولكنك لا تستطيع أن تتركه بدون أن تأتي عليه لآخره لأنك ستشعر باستمرار بهذه الوخزات ينقلها إليك فلا يعد لك راحة ولا هدوء حتى تسمع إليه للنهاية، وقد يكون البطل دميمًا وحقيراً ومغروراً ولكنك سترتجف حين ترى بوضوح كيف تفاعل هذا البطل مع الحياة والأحياء وستقول وأنت معجب: هذه صورة صادقة، أعني بذلك أن التافه البسيط قد اكتسى أهمية حيوية شعرت بها تهمز روحك لأنها لمسات روح الأديب التي أحس بها، تمكنه من استقطار الجمال من ينابيع خفية يستحيل على المواهب العادية أن تهتدي إليها.

الشـاعـر الـكـامـل.. والمـعـجـزة

أقامت لجنة الاحتفال بذكرى الشاعر التونسى أبو القاسم الشابى حفلة خطابية كبرى فى دار نقابة الصحافة المصرية، تكلم فيها كل من الأساتذة الشاعر عزيز أباظة، الدكتور محمد مندور، الدكتور عثمان أمين، الدكتور إبراهيم ناجى، وقد خص الدكتور ناجى "مجلة" الحديث بكلمته عن الشاعر، فوصفه أبرع وصف نفذ فى تصوير شاعريته إلى الأعماق.

* * *

كان الشابى شاعراً كاملا! وأول صفاته أنه أحب حبا عميقًا كاملا.. أحب الجمال وأحب الحياة، وأحب وطنه، وأحب السكون.. وأحب الحرية..

لقد صدق ألبرسون حين قال: إن الشاعر الكامل لا يصح أن ننظر إليه كفرد فى دولة الأدب بل هو بالأصح جزء من الطبيعة - إنه ظاهرة كونية.. إنه شهاب.. إنه برق، إنه عاصفة، إنه دوحة، إنه زهرة، سمه باسم من تشاء من أبناء الطبيعة، ولكن حذار أن تظنه من البشر..

واتفق معه فى هذا الرأى اللورد دنساناى الكاتب الأيرلندى المشهور، حين قال إن الشاعر الكامل كالقصيدة الكاملة، كالزهرة الكاملة تنبت على أى شاطئ وفى أى صحراء وعلى أى جبل.. إنها نفحات واحدة متشابهة فى الجلال والجمال، باقة ناضرة نسقتها يد واحدة، هى يد الله سبحانه..

هومير ظهر فى أثينا، وشكسبير ظهر فى لندن وجيته ظهر فى ألمانيا، وبوشكين ظهر فى روسيا، والتيجانى ظهر فى السودان، والشابى ظهر فى تونس.. زهرات عبقرية لا يعنيك أن تكون قد نبتت فى أول الزمن أو فى آخره. على الجبل الأجرد أو فى السهل الأخضر اليانع.. ألحان علوية لا يعنيك أن تسمعها عزفًا على قيثارة، أو ألفاظًا سحرية على مسرح أو تقرأها سطوراً جبارة فى كتاب، لا يعنيك إلا أنها تثير فى أعماقك صدى خفيا وتهز فى أغوار نفسك أوتاراً غافية وتنقل روحك المكبلة بأغلال الأرض إلى عالم مسحور وكأنما تحملك على أجنحة من نور.

الشعر الحق هو هذه الرجفة، أو الرجة، أو النقلة، وفى لغة أهل العصر، الطيران البعيد المدى.

وليس للشعر الصحيح تعريف أو فى ولا أكمل ولا أبسط.

قرأت أن أناتول فرانس كان يصغى إلى قصيدة يتلوها أحد الشعراء، فلما انتهى قال: لابد أن يكون هذا الشعر جيداً جدا لأنى ارتجفت عند سماعه والفن "ارتجاف" وقال الشاعر الإنجليزى المشهور ميسفيلد إن كان الجسم يتصبب عرقًا فى الحمى والفزع والخوف والانفعال الجارف، فإن للروح نصيبها فى هذا، إن الشعر عرق الروح.

وليس عرق الروح سهلاً، ولا عاديا، فإن السكين الدنيوية أقصر نصلا من أن تصل إلى الروح، فإن هذا شرف لا يناله إلا المختارون.

إن هذا النصل العبقرى يجرح ليهز الوجود بصيحة خالدة من صيحات الألم، ويصيب لتترنح الدنيا بكلمة تبقى بقاء الأبد، وقد يستحيل النصل كفا جبارة تقبض على الروح الحائرة وتصيح بها وهى تتلوى من الألم: انظرى. فإذا بها تفهم وترى وتعى.

هكذا كان شللى وكيتس والشابى والتيجانى، إنهم أرواح دميت فنطقت ومزقت شغافها فباحت واعتصرت أوتارها فباحت!.

لقد كان الشابي شاعراً كاملا أحب الجمال وأحب الحياة وأحب وطنه وأحب الكون.. وأحب الحرية، وكان هذا الحب ممتازاً في شاعر ممتاز ونفس ممتازة.. فهو حب يسمو فوق الألم وفوق الاضطهاد وفوق الحسد، هو حب يتخطى حدود تونس إلى مصر إلى الشام إلى العراق، فلا يلبث أن يكون إنسانيا شاملا وعالميا غير محدود.

كنت أعرف انه – ككل عبقري – سيموت غريباً في وطنه.. وستحتفل بنبوغه أمة قريبة لامته في الثورة على الاستعمار، وعلى الأغلال، وعلى القيود، وما أقرب مصر إلى تونس.. وتونس إلى مصر.. هم يجاهدون ونحن لم نزل نجاهد، هناك الضحايا، وهنا وهناك صيحة الألم وأنة الألم!..

هناك مستعمر لا يزال، وهنا أخوة على القتال..؟

عوامل النجاح فى القرن العشرين

إن للنجاح عوامل مقررة اهتدى إليها من قبل الكتاب الأخلاقيون أمثال أمرسون وسميلز واقبورى وغيرهم، وبنوا ملاحظاتهم القيمة على استعراض الشخصيات الناجحة وتحليلها تحليلا دقيقًا، ولكن البحث من الجهة الأخلاقية البحتة لا يكفى لموضوع عام كهذا، بل يجب أن يبنى على الاستقراء العلمى والاستنباط الذى تدعمه تجارب عملية دقيقة، فإن هذا العصر يتميز بالطابع العلمى، ولذلك اهتم علماء السيكولوجيا الاجتماعية والعملية والتجريبية بدرس موضوع النجاح فحددوا معنى النجاح، وقبل أن يتكلموا عن النجاح حللوا أسباب الفشل، ووجدوا أن أسباب الفشل فى الرجل إنما هى فى الواقع سلسلة تمتد من دور الصبا بين يدى الأم والأب، إلى دور المدرسة بين يدى الأساتذة، إلى دور الرجولة بين يدى الحياة.

والحق أن تقصى أسباب الفشل كتقصى أسباب العلل، وأن الأطباء قبل أن يدرسوا أسباب الصحة درسوا أسباب المرض، وسيتضح فى هذا البحث أن الأخلاقيين والفلاسفة التقوا مع علماء السيكولوجيا فى قواعد مقررة ولكن الطرق العلمية أجدى وأشد إقناعًا لأنها مبنية على التجارب والمشاهدات والإحصائيات، مبنية على التحليل والاستقصاء، مبنية على نظرات عالمية واسعة وأفكار عصرية تتمشى مع القرن الذى تعيش فيه، فإن الحياة تشعبت ومشاكلها اتسعت، وأما العقل الإنسانى والنوازع والميول فباقية كما هى، فمن الواضح أن ذكر النجاح يجب أن يقترن بذكر مشاكل العصر الحاضر ويجب بوجه خاص أن يعنى بالإحاطة بالظروف والبيئة والمشاكل فى أمة بعينها من الأمم، فإن الكلام عن النجاح فى أمة كالأمة الإنجليزية مثلا حيث التربية المنزلية تقوم على أساس متين،

وحيث النظام المدرسى يمشى على قواعد علمية قوية وحيث للأفراد حظ وافر من الاستقلال الشخصى والحرية الفردية والشعور بالواجب يختلف عنه فى أمة كالأمة المصرية.

سأعنى بشرح النقط الآتية:

(١) ما هو النجاح.

(٢) ما هى قواعده المقررة.

(٣) ما هى عوامل النجاح فى القرن العشرين.

(٤) ما هى عوامل النجاح فى الأمة المصرية فى القرن العشرين.

ولن أرمى فى مقالى هذا إلى الخيال ولا إلى الفلسفة، فإنما نحن فى عصرنا هذا فى أشد الحاجة إلى المرشد العملى، إلى الأستاذ الذى يعلم بسرعة وحزم ووضوح، وإلى الطبيب الأصيل الرأى والنظر الذى يحسن التشخيص ويسرع بإعطاء الدواء الحاسم.

(١) ما هو النجاح

النجاح هو بلوغ الغاية، فلكى ينجح المرء يجب أن يحدد مرماه ويعرف إلى أين يمضى، يجب أن يحدد الهدف، ومن الأسف أن أكثر الناس يعيشون كما تريدهم الحياة، صباحهم يشبه مساءهم وأمسهم يشبه يومهم، وشبه غدهم، ولو جلس الإنسان إلى نفسه ليفكر يومًا: لماذا أعيش، وما الفائدة من وجودى لأمكن لأكثرنا أن يضع نصب عينيه شيئًا يمشى إليه وأمرًا يركز فيه جهوده الموزعة المبعثرة، يجب أن تكون الغاية موحدة، فالغايات الكثيرة يغشاها الفشل، والمرء فى هذه الدنيا كالسائح الذى يمضى صوب شاطئ فكلما كثرت الأعباء التى فوق ظهره والقيود التى تغل يديه صعب عليه أن يخف على ظهر الماء، فالفائدة العملية أن نقطع بيد الحزم أكثر الغايات الأخرى التى تعوقنا عن الاستمرار فى الغاية الكبرى أو تتعارض معها.

وما هى الغاية التى يجب أن نضعها نصب أعيننا؟ يجب أن تكون الغاية اجتماعية أى يجب أن نوجه أنفسنا للخير العام، كل فى الطريق الذى يختاره، نعنى بذلك ألا يكون الإنسان أنانيا، فالأنانية من أكبر أسباب الفشل، والغيرية من أهم أسباب النجاح، وإذا استعرضنا سير المصلحين والعباقرة والعظماء وجدناها تتفق فى أن هؤلاء السادة لم يعملوا لأنفسهم وإنما للجنس البشرى، وقد عقد الكاتب الشهير امرسون فصلا عن النجاح فى كتابه "المجتمع والوحدة" فبنى أسباب النجاح على حب الإنسان لغيره حبا صادقًا مبنيا على دقة الشعور والإحساس، أو ما يسميه علماء النفس المشاركة الوجدانية وما يسميه آخرون بالذكاء الاجتماعى، أى يجب أن تكون غايتنا الكبرى موجهة لفائدة الغير أكثر من الفائدة التى نتوخاها لأنفسنا.

(٢) ما هى عوامل النجاح؟

لقد ذكرت قبلا القواعد المقررة، وقد لخصها الثرى الأمريكى الشهير "شواب" ملك الصلب فى عشرة أشياء، وقد فاته شىء هام لم يلتفت إليه لأنه أمريكى، ولو أنه كان إنجليزيا لوضعه فى أول القائمة ألا وهو "الصحة" هاته الأشياء العشرة هى:

(١) الثقة بالنفس والاعتماد عليها.

(٢) العمل لنفس العمل لا للمظهر ولا للادعاء.. مع الدأب والنشاط والصبر والمزاولة والثبات.

(٣) يجب أن تحب عملك حبا صحيحًا، يجب أن يكون حبك له عبادة وانصبابك عليه تاما.

(٤) يجب أن تربى شخصيتك ويجب أن يكون تفكيرك مستقلا.

(٥) يجب أن تكون شجاعًا مقدامًا، وليس معنى الشجاعة أن ترمى نفسك فى التهلكة، بل معناها الجرأة والسرعة وانتهاز الفرصة مع أصالة الرأى والحذر والتفكير الصحيح، ومن أنواع الشجاعة ضبط النفس والإحجام عندما تومئ إلينا الغواية بأصبعها أو تسطع ببريقها الكاذب.

(٦) كن دقيقًا ملما بكل نواحى عملك، وهذا يستلزم الانكباب على الدرس والإحاطة بكل مستحدث نافع.

(٧) فكر اجتماعيا، أى شاطر الغير آلامهم ومتاعبهم فستجدهم يساعدونك وسيزيد نجاحك بمقدار حب الناس لك ومساعدتهم.

(٨) ابذل آخر ما يمكنك من الجهد، وإذا أعطيت عملا فاعمله على أحسن وجه.

(٩) حدد غايتك وانظر جيداً لمرماك.

(١٠) وسع دائرة فكرك وخيالك بأن تروح عن نفسك بمباهج الطبيعة والمناظر الرائعة والفنون.

ونضيف نحن.

(١١) لا تنس صحتك فإنك تحتاج إلى أعصاب قوية لتصل إلى نهاية الطريق.

(١) الثقة بالنفس والاعتماد عليها

الاعتماد على النفس نتيجة للثقة بها، ولا يمكن للإنسان أن ينجح بالاتكال على الغير، ليس معنى هذا أن ينفرد الإنسان بنفسه انفراداً كليا، بل أن تكون استعانته بغيره بمقدار ما يؤدى ذلك إلى نجاح العمل الذى يقوم به بالسهر عليه والدأب فى سبيل إنجاحه، والواقع أن أكثر الناس يتركون غيرهم يفكرون لهم ويدبرون أمورهم، كان نابليون يقول "ليس فى العالم شيء لا أستطيع أن أعمله بيدى، أنا أستطيع عند الضرورة أن أعمل بيدى البارود والعربات التى تحمل البارود" (وإن حياته لمثل أعلى فى ثقته بنفسه والاعتماد عليها وما خذلانه وانتصار أعدائه عليه فى واترلو إلا مثل لنتيجة اتكاله على قائد لم يستطع أن ينجد) دع الحظ جانبًا لا تكن بوقًا لأحد ولا تحاك أحداً، كن أنت نفسك، فكر كما ترى صوابًا، ودبر بإخلاص، لا تبال بالناس ولا بالتقاليد، ولا تخش الخطأ ولا الفشل، المهم أن تثق بنفسك وأن تعتقد أن الله وهبك أسمى ما فى الطبيعة وهو العقل، لا يجزعك برهة اعتقادك، أنت لست عبقريا،

فالمذاهب الجديدة التى حققت كنه العبقرية لم تؤكد أنها موهبة خارقة، فقد قال امرسون فى الفصل الرابع الذى عقده على الاعتماد على النفس (العبقرية أن تثق بفكرك، وأن تعتقد أن ما هو حق وصدق فى قلبك هو حق وصدق للناس جميعًا).

وقال اديسون: "إن العبقرية تسعة وتسعون فى المائة عرق".

وقال (ميكاييل أنجلو) الفنان الإيطالى الشهير، وهو قول يجب أن يلتفت الشباب إليه التفاتًا تامًا: (مات الكردينال أبولينو الذى كنت قد وضعت فيه كل آمالى، وأخذت أفهم أن مواعيد الدنيا باطلة، وأن ثقة الإنسان بنفسه وأن يكون شيئًا نافعًا ذا قيمة خير الطرق وأحسنها).

والحقيقة أن كل إنسان منا يحمل فى نفسه قوى مستترة هائلة تفسدها وتقتلها فى مكانها المحاكاة والاتكال على الغير، والقوى الصغيرة التى نثق بها فنطلقها للوجود سرعان ما تكبر وتقوى بنفسها وبتضافرها مع القوى الأخرى، فلنثق بأنفسنا ولنعتمد عليها.

(٢) العمل: الاجتهاد والثبات والصبر والمزاولة

مهما صفت القرائح ووهبها الله العلو والتفوق فلا غنى لها عن الاجتهاد والصبر والمزاولة، بل إن القرائح اللامعة يعتريها الصدأ إذا لم تقترن بالاجتهاد والثبات والنشاط.

قال فولتير: (الحد الفاصل بين من له قريحة ومن ليس له يكاد لا يرى، وأن الرجال الذين حركوا الدنيا بأسرها لم يكونوا من ذوى المواهب الفائقة بل كانت قواهم العقلية معتدلة، ولكنهم كانوا من أهل الجد والثبات ولم يستعملوا طرقًا خارقة للوصول إلى النجاح، بل استعملوا الوسائل العادية التى هى فى متناول كل مخلوق كالنشاط والتدقيق والمواظبة والصبر، والتاريخ حافل بالأمثلة التى لا تحصى.

(٣) يجب أن تحب عملك حبا صحيحًا وتفنى فيه فناء، فمن رأى الفيلسوف الشهير برجسون أن حب العمل أو الفن والاندماج فيه اندماجًا كليا بكثرة التفكير والتأمل هو

سر عميق من أسرار النجاح، لأن الحب يكشف الحجاب عن البصر. وما هو الحب الحقيقى؟ ليس غير اندماج شخصية فى أخرى وفنائها فيها، ولذلك ترى عين المحب ما لا تراه العيون الأخرى وتكشف فى الآفاق ما يخفى على الآخرين.

وسئل نيوتون (كيف حصلت على اكتشافاتك) قال (بإدمان التأمل) وقال (إنى أضع الموضوع نصب عينى، وما أزال أفكر فيه وأدرسه حتى يبزغ فجره ويصير نوراً كاملا).

والحق أننا لو بحثنا أسباب الفشل فى عصرنا هذا بين الشبان لوجدنا أنهم إما أن يكونوا غير محبين لأعمالهم أو أنهم لا يزاولونها إلا لاكتساب الخبز، ويكون عدم حبهم لأعمالهم لأنهم لم يختاروها بأنفسهم أو يكون اختيارهم إياها لا عن رغبة صحيحة بل عن مظهر من المظاهر عندما كانت الطفولة بنزعاتها تجعلهم ينصبون على الأمور التى تقتضى الظهور والتعبير عما فى النفس ويتكفل بتربيتهم والد يعرف الرغبة الحقيقية ويوجههم إليها أو مدرس يعرف كيف يبين لهم مزايا الأمور العظيمة فيجعلهم يتخيرون الصالح قبل أن يصير انصبابهم غير قابل للتحول، وما أولئك الذين نراهم كل يوم فى وظائف صغيرة يزاولونها أعواماً طويلة بغير تبديل إلا أطفال كبروا وكبرت معهم هواية الطفولة.

(٤) تربية الشخصية

نأتى الآن إلى النقطة العملية الهامة التى تبنى بواسطتها الأمة ويبنى الأفراد.. فالقصد الأول فى التربية هو بناء الشخصية الاستقلالية وأن شخصية الأمة لتتوقف على شخصية الأفراد، وقد ثبت لعلماء السيكولوجيا التطبيقية أن الشخصية القوية شرط أساسى للنجاح فى الحياة وأن المؤهلات العلمية وحدها لا تكفى للنجاح، وتعريف الشخصية هو أنها مجموعة الصفات العقلية والخلقية والجسمية التى تميز شخصاً من غيره، ولا نتكلم عن الشخصية الفطرية فى الذين اختارهم الله كالأنبياء والممتازين امتيازاً خارقاً وإنما نتكلم عن الشخص العادى المواهب وكيف تبنى شخصيته حتى تؤهله للنجاح وحتى تصل إلى مرتبة تعادل مرتبة الممتازين أو تقاربها.

للتربية الشخصية ثلاثة أدوار.

الدور الأول في المنزل:

وهذا الدور أهم الأدوار وأخطرها وعليه المعول، وكثير من ضعف شخصيتنا فى الأكبر منشؤه التربية المنزلية، قلنا إن التربية الصحيحة يجب أن ترمى إلى بناء الشخصية الاستقلالية، وهناك ناحية أخرى تكلم عنها الباحثون فى هذا الباب وهى أن تربية الطفل يجب أن تكون تربية اجتماعية أى يجب أن يعتاد الطفل الصراحة واستقلال الرأى والصدق والجرأة، وبجانب ذلك يجب أن يعتاد الرحمة والعطف والتفكير فى الآخرين، والحق أن فكرة التربية الاجتماعية فكرة رائعة فإنها تتمشى مع أصل الحياة وتتمشى مع أصل الفن وتتمشى مع الطبيعة، فإن من صفات الحياة الأولى التكافل والاندماج وكل مخلوق لا يتسم بهاتين الصفتين مقضى عليه بالفناء أو العزلة التى تشبه الفناء.

ممن يتعلم الطفل التربية الاستقلالية، وعن أى طريق يتلقى التربية الاجتماعية؟ من الأم وعنها، هى إذن الكل فى الكل فى بناء الشخصية وعليها العماد، ولا تنس دور الأب بالطبع فهو القدوة وهو المرشد وهو المعلم.

يولد الطفل ومجموعه العصبى خال سهل والطريق معبد والصحيفة بيضاء وله بضع غرائز غشيمة الغرض منها استمرار الحياة، وليست فى نفسها سيئة ولا صالحة وإنما العبرة بطريقة تحقيق الرغبات هى نتيجة الغرائز والعبرة أيضاً بما ينمو من هاته الغرائز ويطغى على حساب غيره فيصعقه، فإن غريزة حب الذات من أهم الصفات التى يتوقف عليها بقاء النوع، فإذا اتضحت اتضاحاً معقولا صارت غروراً ممقوتًا، وإذا زادت عن ذلك أيضا صارت جبروتًا وطغيانًا كريهًا .. وقس على ذلك سائر الغرائز.

فالغرض من التربية أن نضع الحواجز فى سبيل الرغبات الجامحة بغير أن نقضى عليها، أو على استقلال الفكر وحريته، والشائع مع الأسف فى بيوتنا أن الطفل يزجر وينهى طول يومه وتصدم رغباته صدمات عنيفة بدون أن يرشد عما يعمل أو بدون أن تترك الفرصة له ليفكر، فالنتيجة أن يشب جبانًا رعديداً يخشى من إبداء رأيه وينزوى أمام الغرباء خائفًا من زجر أمه وأبيه. قارن بينه وبين الطفل الإنجليزى الذى يجالسك مجالسة الند للند ويحادثك ويناقشك مناقشة الرجل الكبير.

النتيجة أيضاً أن الطفل كلما سأل سؤالا لم يسمح له بتوجيهه أو لم يجب عليه فتقتل فيه عاطفة التقصى والاستفهام وحب الاستطلاع، والتربية المنزلية أيضاً يجب أن تعنى بتكوين العوائد الصالحة كالنظام والنظافة والصدق والأدب واللطف، فما نحن فى الكبر غير مجموعة من العادات التى اعتدناها فى الصغر، ومن الصعب جدا تغيير هاتيك العادات بعد أن نعتادها وبعد أن تكون احتفرت لها طريقًا فى المخ يزداد غوراً على الأيام.

فالخلاصة أن التربية الاستقلالية والاجتماعية والعادات الصالحة تزرع فى المنزل فى الوسط العائلى.

الدور الثانى – فى المدرسة:

أنقل بالضبط كلمات الدكتور العالم المشهور دورسى فى وظيفة المدرس (أن يعد التلميذ للحياة الخارجية وأن يثير فيه الرغبات الفاضلة العظيمة وأن يعلمه الجرأة وأن يحترم حقوق الآخرين وأن يحبب إليه البحث الدقيق المتواصل).

وبعد، فما هى المدرسة؟ هى انتقال الطفل من دائرة إلى دائرة أوسع، من يد أب إلى عدة آباء، كل يتولى إرشاده فى ناحية اختلاطه برفقائه فى دائرة ماهى فى الواقع غير الاسم مصغر للمجتمع الإنسانى، وفى المدرسة يجب أن يلتفت المربى بوجه خاص إلى التربية الجسدية (فإن الالتفات إلى تهذيب العقل تهذيباً مجرداً له ضرر بالغ، فإن تهذيب العقل يجب أن يقترن بالأدب والحكمة، والالتفات إلى العقل وحده بدون الالتفات إلى الجسد أشد ضرراً وأبلغ، كانت الأمة الإنجليزية من منذ مائتى سنة تقريباً تمشى على ما نسير عليه فى مدارسنا، أى تحشر العقول حشرا بالعلوم على اختلافها، حتى انبرى المربى الشهير الدكتور أرنولد الملقب بالأسود وأبدى ضرر هاته الطريقة وحاربها حتى محاها وصارت حياة التلميذ نصفها فى الدرس ونصفها فى الهواء الطلق بين أيدى الطبيعة وفى صحبة الأستاذ وصار الأفراد الإنجليز اليوم على ما ترى من الصحة والجرأة والصراحة).

فالتربية المدرسية يجب إذن أن ترمى إلى تهذيب العقل وإعداد الطلبة للمغامرة فى الحياة الخارجية لا لتخرج موظفين كل همهم الأمان والحرص على المرتب وكسب الخبز والمظهر الكاذب.

والحقيقة أن الإقبال على الوظائف منشؤه حين ينغرس فى نفوسنا أطفالا فى منازلنا وحين ينغرس فى نفوسنا طلبة فى المدارس، ويجب فى المدرسة أن تلاحظ علاقة الطالب بغيره فى دائرة المدرسة لأنه بناء على ما يكون بين الطلبة فى ذلك المجتمع الصغير ستكون علاقتهم فى المجتمع الكبير.

الدور الثالث - الرجل بعد البيت والمدرسة

الناس هنا صنوف، كل حسب التربية التى تلقاها، صنف يمضى ليجد أى عمل ليكسب منه خبزه، ولكى يتزوج وينجب، فإذا ظفر بالعمل انصرف إليه انصراف الآلة وتمر الأيام عليه وهو لا يتبدل وإنما يرقى من درجة إلى درجة بمرور الزمن فلا حديث لنا عن هذا، وصنف آخر وهو الذى يهمنا له غرض محدد وهدف معين ورغبة صحيحة فى ناحية من النواحى فهو يمضى إليها بعزيمة وإرادة فعلية إن أراد النجاح أن يستمر فى بناء شخصيته ولا يهمل السهر عليها وتنميتها (فليحمل حبا فى العمل لا للظهور ولا للتصنع وليكن عنده شعور قوى بالواجب ولا يترك الميول والعادات تتحكم فيه، ولا يعتمد فى حياته على ما يقرأه من الكتب أو يسمعه من الناس بل على تجربته الشخصية ولا ينسى التفاؤل والبشاشة ورحابة الصدر) كل هذه العوامل تقوى الشخصية العملية وإهمالها يضعفها ويميتها.

هذه مسألة الشخصية، وتربيتها وهى من أهم عوامل النجاح. ننتقل الآن إلى باقى القواعد المقررة للنجاح.

(٥) الشجاعة

قد تكون فى الإقدام كما تكون فى الإحجام، والواقع أن الشجاعة تتوقف على كل شخصية الإنسان، ومن أرقى أنواع الشجاعة ضبط النفس وعدم الاستسلام إلى النزوات والتحكم فى الانفعالات والسيطرة على الغضب والهدوء وقت الخطر وتحمل الآلام جسدية وفكرية، ومن الشجاعة المبادرة إلى انتهاز الفرص وعدم التردد فى اقتناصها قبل أن تفوت.

(٦) الدقة والإلمام بكل نواحى العمل

لا حاجة لأن نقول إنه من الواجب أن تكون ملما تمام الإلمام بكل دقائق عملك، وهذا مأتاه من الدرس والتمحيص والثبات والمزاولة، ولكن علم النفس الاجتماعى يقرر أن الكفاءة التامة ليست هى الكل فى الكل للنجاح، يقول الدكتور دورسى (إن الكفاءة تؤدى إلى ثمانين فى المائة فقط من النجاح أما العشرون فى المائة الباقية فتتوقف على الناحية الإنسانية فى الشخص) يقصد بذلك أنك يجب أن تجيد فهم الناس ومعاملتهم كما تجيد فهم الأشياء التى يوكل إليك القيام بها.

(٧) فكِّر اجتماعيا

قال سكوت: المشاركة الوجدانية هى الحلقة الفضية التى تصل الروح بالروح.

لقد تكلمت سابقًا عن أهمية التفكير الاجتماعى ودعوته المشاركة الوجدانية، وهى أن تحب الغير وتعطف عليه وتشاطره آلامه ومتاعبه، وهذه الدقة فى الإحساس والشعور هى التى تميز فى الواقع رجلا من آخر، فإمرسون يقول: "إننا لسنا عظماء بقدر نفوذنا وسيطرتنا، ولكن بقدر انتسابنا للآخرين، وتكافلنا معهم وقوة اندماجنا فيهم".

وهو قول مبنى على أصدق النظريات البيولوجية، فإن المخلوق قوى لا بقدر سيطرته بل بقدر تفاعله مع الوسط الذى يعيش فيه.

وأعود فأكرر أن الفكرة الاجتماعية تترعرع فى نفوسنا من عهد طفولتنا وتكبر فى المدرسة والجامعة وتصير أساسية للنجاح فيما بعد.

(٨) **ابذل آخر جهد فى مقدورك دائمًا**، واعلم أن الرياح تأتى مع الربان المجتهد والفرصة لا تأتى عفواً، فإذا أتت عفواً فإنما تكون كربح المقامر آلة لخرابه.

كان للدكتور أرنولد يونج تلميذاً نظر إليه التلميذ قائلا: لماذا توبخنى يا سيدى فإنى عملت آخر ما أستطيع، فتأثر الدكتور ولم ينس هذه الجملة لآخر حياته.

(٩) **حدد غايتك وانظر جيداً لمرماك.**

لا يجب أن ينخدع المربى بالرغبة التى يبديها الطفل فى صغره نحو هدف معين، فإن الضرب بالبندقية وركوب الجواد وغير ذلك من المظاهر التى يعبر بها الطفل أو الصبى عن غرائزه ليست بالضرورة هدفه الذى يختاره ويريده فى المستقبل، بل يجب أن تكون غاية المربى أن يفتح عين الصبى على آفاق أخرى قد تكون أجدى وأنفع وتكون ميوله الحقيقة موجهة إليها، فإذا اتضحت تلك الميول ولم يعد فيها جدال ولاخفاء صار حرا أن يمضى فى السبيل الذى يحبه والعمل الذى له رغبة وميل للقيام به.

ما أكثر الناس الذين لا يعرفون غايتهم فى الحياة، هؤلاء هم الذين تتقاذفهم الحياة على أمواجها وأخيراً تلقيهم على رمال شاطئ من الشواطئ.. بينما أولئك الذين لهم غرض يشبهون الربان الذى يسير بسفينته إلى شاطئ محدد ويرسو بها على المدينة التى يريدها، ويجب أن تكون الغاية واضحة كما قلنا، ولكن يجب التدرج حتى نصل إلى الغاية. قال عمر بن عبدالعزيز "إن لى نفساً تواقة لم تزل تتوق إلى الخلافة فلما نلتها تاقت إلى الجنة".

(١٠) **وسع دائرة فكرك وخيالك** بأن تروح عن نفسك بمباهج الطبيعة الرائعة والفنون.

إن تقوية الخيال وتوسيع أفق الذهن فى نواحى الفنون والآداب تفيد الناحية العملية فى الحياة، فإن الرجل الذى يقتصر على دائرة واحدة من العمل الذى لا يخرج

عن أفق ضيق محدود لا يستطيع أن يتقدم، أما الرجل الذى يغذى عقله وروحه وقلبه بالطبيعة والفنون فإنه يجيد فهم الحياة والناس ويستطيع أن يجد لذة كبرى فى عمله، فإن التمتع بالطبيعة والفنون رياضة ذهنية كبرى تعين على التعب والمشقة.

(١١) اهتم بصحتك ولا تنس الرياضة

لقد ذكرت أن نجاح الأمة الإنكليزية قائم على سلامة الأجساد وصحة الدماء والأعصاب وقوة الأعضاء الهامة.

وكيف تنتظر من رجل مريض القلب أو الكبد أو بالنقرس أو ما يشبه ذلك أن يكون جلداً على المشاق صبوراً على العمل والناس مستبشراً متفائلا؟ إن ابتسامتنا وبشاشتنا تتوقفان على صحتنا أكثر من أى شىء آخر، وكيف تنتظر من رجل يكون فريسة للصداع أو النوراستنيا أن يحسن التفكير والرأى؟

والصحة لا تكون غير المحافظة على القوانين الصحية والرياضة، وخير أنواع الرياضة المشى والألعاب السويدية والتنس، فإن ممارسة هذه الألعاب للرجل المنكب على العمل تنقى دمه وتكسبه النشاط والصحة.

وسائل النجاح للرجل فى القرن العشرين

فوق ما ذكرنا من قواعد النجاح نضيف أن عصرنا هذا يتميز بثلاثة أشياء: السرعة والمادية والتكافل.

(١) السرعة: العصر يتميز بالسرعة، فيجب أن يكون العمل موافقًا لروح العصر، أى متميزاً بالسرعة مع الحزم والروية.

(٢) المادية: لا يقوم عمل على غير المال، ولكن لا يجب أن يكون المال هو الغاية الكبرى، وقد قال أحد الكتاب المشهورين إن من السهل جمع المال، فالنظرية المنطقية البسيطة للغنى هى أن تجعل الداخل أكبر من الخارج فيزداد رأس المال باستمرار، وعلى كل حال يجب أن نقتصد لنكون على استعداد للطوارئ ونتقوى بما ندخره للمستقبل.

(٣) التكافل: شرحت ذلك سابقاً، وقلت إن الحياة والفن أساسهما التقدم الإيجابى والتكافل والاندماج، وهذا العصر بالأكثر يتميز بأن العمل الفردى قد فات زمانه وأن العمل الاجتماعى بين فرد وآخر وبين أمة وأخرى قد صار هو الطابع الكبير والسمة الواضحة.

النجاح فى مصر فى القرن العشرين

ما هى أسباب فشل الشباب فى مصر؟

(أ) هجرة أهل الريف إلى القاهرة ليصيروا أفندية وموظفين، إنهم يتركون الزراعة والصناعة ليجلسوا على المكاتب ويقبضوا الأجر فى غير تعب ولا عناء.

(ب) سوء التربية المنزلية، يجب أن يحذف من مقرر تعليم الفتاة كثير مما لا حاجة لها به، ويدرس لها عوضاً عنه نفسية الطفل وكيف يستفاد من ذلك الدرس لتربية الطفل تربية صحيحة.

(ج) سوء التربية المدرسية. وهاته هى العيوب الواضحة.

١- حشو المقرر بما لا يفيد عمليا فيما بعد.

٢- ضعف الصلة بين الطالب ومدرسه، وهذا ما يسمى بالفرنسية La Eapport.

٣- ضعف علاقة الطالب بزميله فى الوسط المدرسى، فإن هذا المجتمع صورة مصغرة لما بعده.

٤- ضآلة القسط الذى يأخذونه من الرياضة.

٥- ينقلون عن الكتب كثيراً، فيجب أن يأخذوا عن الطبيعة أكثر مما يأخذون عن الكتب.

٦- فى الطلبة ضعف وتردد، فيجب أن يعودوا الصراحة والجرأة عن مصر، أى يجب أن تكون مصر وموضوعاتها أبداً نصب أعينهم وفى أذهانهم.

كيف تؤثر الأمراض في الأخلاق؟

يمكن حصر جميع الأمراض مهما تعددت أسبابها وتنوعت ضمن دائرة لا تتعدى أمرين: الأول كائنات حية أو شبه حية تؤذى الجسم بما تحدثه من التوالد داخله أو بما تحدثه من التغيرات البيولوجية المتسببة عن وجودها أو بما تفرزه من السموم.

والأمر الثانى مرض الجسم بفعل السموم، وقد تكون هذه السموم من فعل الجراثيم أو من فعل العقاقير أو من فعل الكحول أو من اختلال عمليات التمثيل فى الجسم.

بهذا التقسيم البسيط يمكن رد جميع الأمراض ضمن دائرة ضيقة، ويبقى خارج هذه الدائرة شيء واحد بالغ الأهمية قد نسميه مرضًا أو لا نسميه، ذلك هو مرض الأعصاب الناشئ عن اضطراب وظيفى لا علاقة له بميكروب ولا بتغيرات باثولوجية.

ويهمنى أن أؤكد أن الجسم وحدة متماسكة لا يمكن فصل الصفة التشريحية منه عن الصفة الفسيولوجية ولا عن الصفة السيكولوجية، ولقد قال المرحوم السير دافيد ويلفى فى إحدى خطبه الشهيرة: إن من أهم اكتشافات الطب الباطنى فى الأيام الأخيرة أهمية نفسية المريض فى العلاج.

تأثير المرض الميكروبى

نعود الآن إلى تقسيمنا الذى بدأنا به، فعن الأمر الأول - المرض بسبب الكائنات الحية أو شبه الحية - نقول إن هذه الكائنات هى الميكروبات واللولبيات (كالزهرى) والطفيليات (كالبلهارسيا) وأقصد بشبه الحية، الأورام التى تنمو وتتوالد ولا ندرى بالضبط

شيئاً عنها إلى الآن كالسرطان والأورام الأخرى الحميدة. أما الأمراض الميكروبية فمنها الحادة ومنها المزمنة، وليس للحادة تأثير خاص فى الأخلاق بل بالعكس يكون الإنسان تحت تأثيرها فى شبه طوفان من الألم والذهول، أما فى الأمراض المزمنة فأهم الأمراض التى تؤثر فى الأخلاق - "السل" وقد ذكر ليوناردوليمز فى كتابه "العلل الصغرى" أنه يشخص السل قبل أن تتميز علاماته، وذلك لأنه يضع قدمه على نفسية المريض قبل أن يضعها على صدره!.. كل المسلولين يتفردون بدقة الإحساس ورقة الشعور وعبادة الجمال، ويتفردون أيضاً بالإشراق والأمل والتفاؤل.

ويتفردون أيضا بالنشاط الجنسي. وقد يعده الواحد منهم دليلا على الصحة والقوة ويزداد به تفاؤلا واستبشاراً وأملا فى الحياة، ويتفردون أيضاً بالحيوية الفائقة والبديهة الحاضرة.

ولهم سحنة خاصة، وهى الوجه الوسيم الشاحب ذو العينين الواسعتين اللامعتين مع أهداب طويلة ساحرة.

انظر إلى كيتس وشيلر وكارتين مانسفيلد ولورنس..

انظر إلى هؤلاء العباقرة لقد لمعوا كالشهب وانطفأوا بسرعة وكانت تلك لمعات السل وتأثير "تكوينه"المنشط العجيب، لقد كان لورنس يعتقد أن أساس كل شىء الحاسة الجنسية، لأنه لم يكن يدرى أن حاسته الجنسية المتيقظة عنده إنما كانت من تأثير السل الذى مات به فيما بعد.

أما اللولبيات فأهمها "الزهرى" والزهرى يبدأ كنتيجة للإهمال والجهل. وينتهى بالنورستانيا والجنون، وقد لا ينتهى بالجنون بل بالعبقرية، لا فى المريض ذاته بل فى نسله.

لا شك فى أن الزهرى من أهم الأمراض صلة بالأخلاق من حيث بدايته ومن حيث منتهاه، أما من حيث بدايته فهو يطوى تحت جناحه إهمال والدين وصبيا عابثاً ورقابة ضائعة ورفاق سوء ونفوساً ملوثة وأماكن لهو قذرة فمرضاً فاستشارة فعلاجاً مبتوراً

مستتراً، أما نهايته فنعرفها نحن الأطباء تماماً فهى الفصل الختامى لرواية يحكى الفصل الأخير منها بعد الأول بعشرين عاماً أعراض غامضة صداع، دوار، صعوبة فى النظر والحركة، اضطراب فى القلب والمفاصل إلى آخر تلك الصورة التى تشير إلى مرض يتناول الجسم بأجمعه، وإذا سئل المريض فهو لا يزال ينكر ونحن نعرف أنه ينكر لأنه الآن قد كبر وصار من المخجل أن يبوح بعبث الماضى. نحلل له الدم والنخاع فنكتشف سره الماضى وننصرف إلى علاجه ولكن بعد ما يكون المرض قد أنشب جذوره فى الأعصاب أو القلب وصار الشفاء منه مستحيلاً.

ولقد عرفت بالتجربة أنه حتى بعد الشفاء تبقى دائماً "عقابيل" الداء القديم، تلك اللذعات الصغيرة المنغصة التى هى بمثابة التكفير الطويل عن خطيئة لحظات!.

وشبيه بالزهرى وإن كان أقل منه خطراً وأثراً – "السيلان".

فهو أيضا شديد الصلة بالأخلاق ومبتداه يطوى تحت جناحه ما انطوى تحت مبتدأ الزهرى، ولكنه فى أيام علاجه القصار يقض مضجع المريض ويجعله سيئ الخلق برماً بالحياة ناشداً للعزلة، نفوراً منطوياً على نفسه، وكثيراً ما أدى به ذلك إلى النورستانيا التى تبقى حتى بعد الشفاء، وأعرف مرضى لا يصدقون أنهم قد شفوا.

أما الطفيليات، فعندنا فى مصر البلهارسيا والإنكلوستوما، وهما تؤثران فى أخلاق الفلاح تأثيراً واضحاً، ونظرة واحدة إلى الفلاح تكفينا لندرك أنه يعيش على الصبر والإيمان لا على الجسم السليم والدم الموفور، إن رأيى الخاص الذى لا أحيد عنه هو أن الفلاح مدين بكل أخلاقه – من الصبر والتسليم والإذعان – للبلهارسيا والإنكلوستوما، من أجلها عاش أجيراً، ويوم نخلصه منهما ونرد إليه الدم القوى السليم نخلق منه سيداً لا يرضى بالدون من الطعام والطين.

أما السرطان فهو فى نظرى شبيه بأمة عاصية متمردة ثائرة داخل أمة كبيرة يسيطر عليها الهدوء والأمان، فإذا عرفنا أى تأثير خلقى تحدثه الفوضى فى النظام والتمرد فى الطاعة والسحب فى الجو الصافى فهذا موجز لحياة المريض بالسرطان، وهذه صورة لأخلاقه، على أنه لا يعيش طويلا وهذا من رحمة الله به.

تأثير المرض الناشئ من السموم

أما السموم فيهمنا أن نذكر منها اثنين:

المخدرات، والكحول، وتتفقان فى أنهما "تجزئان" شخصية المريض، أى تمشى الصفة التشريحية فى طريقها والفسيولوجية كما تحب. والسيكولوجية تسيطر على الجميع سيطرة الجاهل الجامح.

ويختلف السكير عن مدمن المخدر بأنه يمرض دائمًا بالكبد.

ومرضى الكبد لهم طابع خاص يتفردون به فى أخلاقهم، فهم أبدًا صفر الوجوه غائرو العيون ضيقو الصدور، لا يقر لهم قرار، ولا يستطيعون أن يركزوا الرأى على شىء.

تأثير المرض العصبى

يبقى المرض الوظيفى، أى اختلال الأعصاب بغير تغيرات باثولوجية. وأريد أن أذكر من جديد أن الاختلال الوظيفى يؤدى دائمًا إلى التغيرات الباثولوجية فى النهاية، فإن المرض سلسلة من التطور تبدأ بالبسيط وتنتهى بالمعقد.

وعند النقطة التى نحن بصددها الآن قد يحسن أن نعكس الموضوع فنقول "علاقة الأخلاق بالأمراض" ما دمنا قد خرجنا من دائرة المرض الحقيقى إلى الاختلال الوظيفى، وهذا التقصير الوظيفى دائمًا منشؤه أعصاب مريضة منهوكة، والأعصاب المريضة منشؤها أمر هو من الأخلاق فى الصميم.

ما هى الأخلاق؟

راجعت نفسى وراجعت أصحابى فى كلمة "أخلاق" فوجدنا كثيرًا من الغموض حول هذه الكلمة المألوفة، ولعل العلم استفاد من مراجعة المألوف أكثر مما استفاد من مراجعة الخوارق.

أخلاق هذا وشخصية ذاك، سلوك فلان وسجايا فلان، ألفاظ واجبة التحدى علميا ولا يجوز إطلاقها جزافاً.

فطريقتنا الآن فى معالجة موضوع الأخلاق والأمراض أن نحدد الأخلاق ما هى، والأمراض ما هى، ثم نرى أثر كل منهما فى الأخرى، فسيرى القارئ فائدة كبيرة من ذلك التحليل.

لكى نتكلم عن "أخلاق" أى شخص فى الحاضر يجب أن نرجع إلى الماضى. كان ذلك الشخص طفلا ذات يوم - كان ولا يزال - مكوناً من جسم ورغبات، أى من مادة وروح، لندع المادة الآن ولنتكلم عن الرغبات التى تكون روحاً أو ذاتاً أو نفساً أو "إيجو" أو سمها ما شئت.

هى على كل حال مجموعة من الرغبات الأولية مشتركة فى جميع الناس ومتشابهة، وسم هذه الرغبات - الغرائز، أو سمها نتيجة للغرائز ذلك سواء ما دمت تعرف أن هاته الرغبات هى الطفل أولا وهى الرجل أخيراً، هاته الرغبات موروثة وكل رغبة يصحبها انفعال وعددها ثلاث عشرة مذكورة فى كل كتب علم النفس.

وسأعيد ذكرها للفائدة: الراحة الجسمية، الشعور بالطمأنينة، النجاة، استرضاء القادر، حب الظهور، المقاتلة والهجوم، التزاوج، الرعاية والحماية، الغريزة الاجتماعية، التقليد، المطاردة، الارتياد، العودة إلى المألوف.

وهم الحى إشباع هاته الرغبات، فكلما حصل على فائدة رسخ فى نفسه طريق إشباع هاته الرغبة، وصارت عادة اعتادها وصار الطريق اتجاهاً يسلكه للحصول على تلك الفائدة.

هنا يتبين جليا أثر البيئة فى إشباع تلك الرغبات والحصول على الفائدة المرجوة، والبيئة تختلف فهناك الوالدان والأصحاب والمدرسة.

فإشباع الرغبة والحصول على الفائدة (على أية صورة) يتوقفان على تفاعل الحى مع البيئة التى يعيش فيها واستجابتها لرغباته، فكلما استجيبت رغبة وتمت فائدة،

رسم طريق ورسخت عادة، وهكذا حتى تكون مجموعة من تلك الاتجاهات و"السجايا"، وخلاصة هاته المجموعة "أخلاق" الشخص الذى نحن بصدده، وما هى إلا وليدة لقانون الاستمرار فى النمو وتجمع تجربة فوق تجربة واتجاه فوق اتجاه وعادة فوق أخرى، ووليدة المواقف التى مرت عليه والمعاملة التى لقيها من الأهل والأصحاب والمربين.

وما شأن التكوين الوراثى إذن؟ إننا لا نرث الخلق الفردى مطلقاً، أى إننا لا نرث السلوك ولا العاطفة ولكننا نرث تركيباً كيمياويا خاصا يجعل التفاعل نحو ناحية واحدة محتملا ولكنه لا يحدده.

أما العبقرية فلا جدال فى أنها تورث.

ولعل من الفائدة أن أذكر وصفاً رائعاً لخلق العبقرى عثرت عليه فى: امرسون فى كتابه "المقالات" وهو أن "ذات العبقرى" تتميز بشيئين: الأول شدة "تماسك" هاته الذات والثانى أن المغناطيسية متجمعة فى القطب الشمالى بها، وعلى ذلك تطير نحوها الحوادث والأيام والناس لتلتصق بها بينما تكون لا مغناطيسية فى الذات العادية متقلقلة أومنحدرة من مكانها نحو الجنوب! كأنما هى تطلب من العالم "مستندات" تنفى عن نفسها حجة العجز!.

والخلاصة أن الأخلاق هى تلك "الوحدة" المكونة من النزعات الفطرية والمكتسبة من التجارب والبيئة والتعليم. فإذا أعطيتها قيمة "تقديرية" سميتها "الأخلاق" وإذا أعطيتها صورة تجريدية روحية سميتها "الذات" وإذا أعطيتها صورة ملموسة مادية سميتها "الشخصية".

سمة الشخصية السليمة وميزتها التماسك والقوة والمغناطيسية الطبيعية، وقد ذكرنا العوامل التى تتناول "الذات" الإنسانية من أول أمرها، وقلنا إنها ما هى إلا رغبات ثم تجارب ثم عادات وأن البيئة من الوالدين إلى الأهل إلى الرفاق إلى المدرسة لها أثر هائل فى بناء هاته الذات وتكوين هاته "الشخصية".

وأشد أثر تحدثه البيئة هو "صراع" داخلى بين الرغبات، ونضال خفى يصرف الشخص عن تركيز قواه لمواجهة الحياة الخارجية، وإعداد العدة لها نضال ينهك قوته فيما لا يفيد ويضيع حياته فى حرب تفكك بناء شخصيته وتنزل بمغناطيسيته إلى الصفر، هذا النضال الخفى والصراع الدفين دائماً مرجعه لأى أمر فى الطفولة، وله صلة بالماضى حتماً، ومن هنا كانت أهمية "الأخلاق" فى "الأمراض" التى تنتاب أعصاب الشباب وتجعلهم غير صالحين للقيام بمواجهة أعباء الحياة.

وخلاصة هذا المقال أن الجسم والنفس وحدة متماسكة وأن الجسم بكل محتوياته وحدة متماسكة، وأن النفس بكل ما اشتملت عليه من العناصر المختلفة وحدة متماسكة، وأصل المرض أن يحدث فى الجسم ما يقلب هذا التماسك رأساً على عقب، وأصل العطب السيكولوجى حدوث ما يفكك الشخصية ويهد بناءها، ولا يهد بناءها غير نزعات جامحة متضاربة غير مسيرة بعنان ولا محكومة بلجام.

ومن ذلك يتبين جليا تأثير الأمراض فى الأخلاق والأخلاق فى الأمراض.

المرأة فى شعر أبى نواس

فى النسخة التى بين يدى عن أبى نواس يقسم جامع الكتاب غزل أبى نواس إلى قسمين: غزل المؤنث وغزل المذكر، والثانى أقوى من الأول، وكان حقه أن يسبق فى الترتيب وأن يعقب باب الخمريات وأن يكونا معًا فى مقدمة الديوان لأنهما حياة أبى نواس ولب لبابها، وإنك لتراه فى الخمريات يتكلم عن الغلمان، وعندما يتكلم عن الغلمان يتكلم عن الكأس، فما أوثق الصلة عنده بين الكأس والغلام!

على أن هناك صنفًا آخر من الغزل عند أبى نواس ذلك هو الغزل السخيف المتكلف الذى يقع فى أول قصائد المدح، وهذا لا يدخل فى حسابنا ولن نتكلم عنه لأنه مزيف ولا معنى له، ومن المحزن حقا أن ترى آثار "التجديد" فى شعر أبى نواس واضحة ملموسة فى تعابيره وفى طريقته، على أن التقليد جرفه هو أيضًا فاضطر أن يجارى القدماء فى عهده فيخاطب الديار ويتكلم عن النياق والإبل، ويبدأ المدح بالغزل وهو ذلك الرجل "المودرن" بكل معنى الكلمة الذى يقول فى محبوبته: "مطمومة الشعر غلامية.. كأن أعينها أنصاف أجراس".

وقد كنا جماعة نتحدث عن معنى ذلك البيت العجيب فاتفقنا على أن المرء يجب أن يدمن الشراب كأبى نواس حتى يرى ويفهم هاته "الأنصاف أجراس"

الآن نتكلم عن غزل المؤنث عند أبى نواس:

أول ما نلاحظه عن حب المؤنث عند أبى نواس أن حبه سطحى وناقص، ذلك لأنه لم يخلق لحب النساء، فشروط الحب الكامل عند علماء النفس ثلاثة: الأول الإعجاب الكامل

والثاني أن يكون بين ذكر وأنثى، والثالث أن يكون هناك "الإسمنت" الذى يربط الأول بالثانى ذلك هو الاعتياد والتزاور والاختلاط، ويسمي الفرنسيون ذلك Lhabttude أما أن حبه المؤنث سطحى فواضح من أكثر أبياته فى الغزل، فهو لا يعنى مرة بتحليل عاطفة ولا تعميق فى شرح إحساس وإن كان شعره لا يخلو من ومضات رائعة ربما كان سببها اللوعة والكبت، وإني أذكر على سبيل المثال أبياته الشهيرة:

حاملُ الهوى تعبُ يستخفه الطربُ
إن بكى يحق له ليس ما به لعبُ
تضحكين لاهيةً والمحب ينتحبُ
كلما انقضى سبب منك عاد لى سببُ
تعجبين من سقمى صحتى هى العجبُ

وهى أبيات ظريفة وموسيقاها تامة.

وكان أبو نواس يحب أكثر من امرأة واحدة، فهناك جنان وعنان ومسجة (ما أعجب الاسم) ودنانير وغيرهن، وأكثر شعره موجه إلى جنان، وقد كان على ما يرى القارئ لشعره لا يراها إلا نادراً، وكان يتوسل بالرسل والشفعاء إليها، وقد رآها مرة تلطم فى مأتم فقال فيها أبياته الجميلة الآتية:

يا قمراً أبصرت فى مأتم يندب شجوا بين أتراب
يبكى فيذرى الدر من نرجس ويلطم الورد بعناب
لا تبك ميتا حل فى حفرة وابك قتيلا لك بالباب!

نعود إلى تحليل حبه على ضوء العلم الحديث، فنقول إن أول شروط الحب الكامل الإعجاب الكامل – أى أن تكون المحبوبة مثلاً أعلى يخلع عليها الرجل من حلل خياله ما شاء وأبو نواس لم يكن يعجب إلا بما يلمحه من معبودته وهى فى مأتم أو فى طريق فكان يستوقفه منها "الكثيب وغصن البان وعقرب الصدغ".

ولا نعرف عنها من شعره غير ذلك، ولا نعلم إلا أنها أرسلت رسولا إليه بجواب لا يرضيه وإلا أنها تسبه وإلا أنها تتجنى عليه ولا تسمح له حتى بنظرة، والمسكينة لا تملك ذلك فهو يعترف بذلك فى أبياته عند المأتم حيث يقول:

أبرزه المأتم لى كارها　　　رغم بواب وحجاب !

والواقع أن إعجابه بها كان من ناحية جمالها وقوامها وصباحتها فقط ولا نعلم شيئاً غير ذلك وربما كان هو لا يعلم غير ذلك وإلا لو استطاع أن يعلم لأخبرنا ولكان شعره سجلا ظريفاً لامرأة جميلة فاتنة وما كانت تجرى به نفسها من مختلف العواطف ولعله لو كان بينه وبينها صلة أقوى مما نعرف لكان وحيها أبدع، ولسمعنا من ذلك الشاعر الممتاز شعراً لا يقل قوة عن شعره فى الخمر، ومن يدرى ربما صرفته الجارية الجميلة عن غرامه بغيرها.

ينقلنا هذا إلى الشرط الثانى فى الحب وهو أن يكون بين ذكر وأنثى، والغريب أن أبا نواس كان يرى المثل الأعلى فى المرأة أن تكون على شكل غلام! فلننظر مثلاً إلى الأبيات التالية:

مذكرة مؤنثة مهاة

إذا برزت تشبهها الغلاما !

تعاف الماء والعسل المصفى

وتشرب من فتوتها المداما

فالبيت الأول يدل على أن رأيه فى المرأة أن تكون كالغلام!

والثانى يدل على أن رأيه أن تكون المرأة شابة فتية قوية تسكر من خمر الشباب وتنتشى من ريعانه!

الآن نصل إلى الشرط الثالث للحب الكامل وهو الاعتياد والاختلاط، وقد كان ذلك ممتنعاً بالطبع فى العصر الإسلامى وظل ممتنعاً كذلك بعده، ولعل هذا هو السر فى أن الغزل فى الشعر العربى ينقصه دائمًا الروح الحارة واللوعة العميقة التى تنشأ من حب مربوط برباط شديد من الألفة، ولقد كان شعر ابن أبى ربيعة سطحيا فى الغزل كذلك فقد كان يرى النساء حقا ولكن لا يراهن إلا خطفًا، ولم تكن هناك امرأة واحدة ملهمة قوية يحدث بينه وبينها ما يلهمه الشعر العميق المتعدد الحوادث والصور!

هذا فيما يتعلق بحبه عن المرأة، والواقع أن شعره فى المرأة لا يزيد عن عشر ديوانه فهو لم يكن يخصص لها جزءًا كبيراً من حياته وإنما كانت عنده حاجة جنسية كأى رجل آخر، وكان يشعر بها كأى رجل آخر فلا يستطيع أن يشبع رغبته فيطفئ هذه الرغبة بالخمر واللهو، ويكتب فى المرأة شعراً مؤداه أنه محروم منها وأنه معجب بجسمها وجمالها وأنه يراها حسناء كالغلام.

ورأيى أن أبا نواس لا يقل شاعرية عن أى شاعر غربى من الفحول، ولو واتته الظروف والبيئة وألهمته المرأة لقرأنا له ليالى كموسيه ومأتميات كلامارتين، فإنك لتقرأ له بين الوقت والآخر أبياتًا تومض إيماض النجم العالى ولكنها لا تلبث أن تنطفئ فى لجة التقليد وتغطى عليها أمواج القدم!.

خطورة المراهقة فى حياة الشباب

المراهقة هى الحقبة من العمر التى تبدأ بزوال دور الطفولة أى تبدأ بالبلوغ وتنتهى بالنضج.

أما البدء فيمكن تحديده على وجه التقريب وإن اختلف قليلا بحسب الإقليم والبيئة وغير ذلك من العوامل، وأما نهاية المراهقة فيصعب تحديدها ويمكن أن يقال إجمالا إنها قرب الخامسة والعشرين عندما يستكمل الجسد نضجه التشريحى، أى عندما تصير الغضاريف عظاماً، وبذلك يصل النمو الجسدى إلى آخر مراحله.

والمراهقة هى أعقد أدوار الحياة والمشكلة التى لم تحل بعد، فإذا كانت الطفولة قد قتلت درساً وبحثاً وتمحيصاً فلا تزال المراهقة قيد الجدل والمناقشة، وليس ذلك بمستغرب فى مرحلة فى الحياة يتغير الناشئ فيها تغيراً تاما إذ يتبدل جسماً وعقلاً وخلقاً وتأخذ الحاسة الجنسية عنده فى التطلع والاستفهام والإلحاح.

وعلى ذلك يمكن الكلام عن المراهقة من نواح أربع: الجسمية والعقلية والجنسية والخلقية. ويمكن اعتبار النواحى الثلاث الأخيرة متصلة اتصالا وثيقاً، ويحسن الكلام عليها مرة واحدة.

الناحية الجسمية

فى الذكر ينمو الجسم نموا يتناول كل أعضائه وبخاصة أعضاؤه التناسلية وتنشط الغدد الصماء ويميل الصوت إلى الخشونة ولا يختلف عن ذلك النمو إلا الجلد والغدد التى تغذيه ولذلك تكثر "الأكنة" أو "حب الشباب" وبعض المراهقين يكون نموهم

الجسدى سريعاً بحيث يصعب على القلب والأعضاء الأخرى الهامة أن تماشى ذلك النمو السريع، فيصابون بفقر الدم أو خفقان القلب ونوع من الزلال يسمى زلال المراهقة، وفى بعض الأحيان ينمو الجسم نموا سريعاً وتختلف الحالة العقلية فيصاب المراهق بأدواء عصبية وعقلية خاصة بتلك السن، ومعنى كل ذلك أن ننبه المربين والوالدين إلى أن لا يرهقوا أولادهم فى هاته الحقبة من العمر وإن وجب أن يتعهدوهم بالعناية فى المآكل والمشرب وبالرياضة المعتدلة فى الهواء الطلق.

فى الأنثى - بينما يتجه النمو الذكرى نحو القوة يتجه النمو فى الأنثى نحو الأمومة، ويجرى عليها ما يجرى على الذكر من نشاط الغدد الصماء وخاصة الغدد التناسلية ويأخذ دم الحيض فى الظهور.

فى هذا الطور يتطلع المراهق إلى حالته الجديدة ويأخذ فى التساؤل، فإن كان قد تعود فى طفولته اللجوء لوالديه والثقة بهما توجه إليهما سائلا كعادته ومتوقعاً النصح والإرشاد، فعليهما أن يشرحا للفتى هاته الأمور بلا مواربة ويفسرا للفتاة معنى الحيض وما يختص به كل ذلك فى جد واحترام حتى يتعودا أن يحترما بدورهما المسائل الجنسية لا أن ينظرا إليها نظرة قذرة مجرمة.

ويزيد الباحثون فيقولون بل يجب أن يتهيأ الفتى والفتاة قبل البلوغ لما سيحدث لهما على زعم أن الحاسة الجنسية فى ذلك الدور تكون نائمة فلا يكون لذلك الشرح ما قد يكون له من الأثر بعد البلوغ والحاسة الجنسية منتبهة ويمكن الاستعانة بالرسوم فى ذلك التفسير.

ومن أراد الاستزادة من ذلك البيان عليه بكتاب "العائلة" تأليف "سانت أوبين" - الفصل الخاص بالمراهقة - ففيه بيان دقيق وشرح واف لما يجب أن يقال وما يجب أن يتجنب، وقد يلوح ما ذكرنا غريباً على من لا يألفه منا ولكن الآفة الكبرى تنقسم إلى قسمين، الأول الجهل وهو طامة كبرى والثانى العلم المشوه الناقص الذى يتلقاه الناشئ همساً وخلسة عن أفواه تضع له المسائل الجنسية فى قوالب مغرية خسيسة.

الحالة العقلية وما يتبعها

يصير الناشئ أكثر جدا ورزانة ويبدو عليه طابع الحياة والتطلع والمسئولية ويختلف عن الطفل بكون الطفل تعود أن ينقاد أما المراهق فيسأل سؤال الند الذى كون رأياً وعقيدة، وقصده من السؤال أن يناقش ويتحقق ولا يقبل طائعاً ما كان يلقى إليه. والنقطة الثانية أن عقلية الناشئ متقلبة غير مستقرة وينقض غداً ما يقرره اليوم وهو سهل التأثر بالإيحاء وإن كان يبدو على شيء من الصلابة. يظهر غريباً وغير متوقع لدى الوالد الذى ألف من الطفل الطاعة والانقياد.

والنقطة الثالثة، أنه يغلب على هذه العقلية الخيال بل الأصح أن نقول الانفعال المقرون بالخيال ويشرح ذلك "هافيلوك أليس" فى كتابه (رقصة الحياة) فى الفصل الذى عقده على فن التفكير إذ يقول:

إن العاطفة الجنسية تنصب فى المبدأ على "خيال جنسى مثالى" يجمع فيه المراهق كل أحلامه وهواجسه وأمانيه، فهذا الخيال لا يلبث أن يتحول إلى حاسة فنية أساسها عبادة الجمال والكمال هى النواة لما بعدها فى المستقبل من التفوق فى العلوم والآداب والفنون، ويزيد على ذلك "هافيلوك أليس" - ويناصره "كيسرلنج" - أن العلم والفن والفلسفة أساسها ذلك الذوق الفنى الذى يتجمع فى المراهق.

من ذلك يتضح كيف يجب استغلال ذلك الخيال المرهف، وتهذيبه وصقله والتسامى به حتى نخلق ما نشاء من النبوغ والإجادة.

هنا نقف لنتحدث عن المعضلة الكبرى: يقول "فرويد" ومريدوه الكثيرون أمثال "نورمان هير" و"بازيل هود" وغيرهما إن العاطفة الجنسية هى كل شيء وهى التى توجه الحياة وتسيطر عليها وإنها فى أول عهد الطفولة منصرفة إلى نواح مبهمة أو مناطق جنسية كما يسميها "فرويد" منها الفم والشرج ثم تأتى حقبة بيضاء تستمر خالية حتى البلوغ فإذا جاء البلوغ تنبهت الحواس الجنسية الخاصة بأعضاء التناسل تنبهاً قويا

ويختلف هذا التنبه باختلاف البنية والوراثة والوسط والمناخ، فهناك الشخص البارد المزاج، هناك المعتدل وهناك العنيف الجارف فيقول "فرويد" إن هاته الحاسة الجنسية يمكن تحويلها إلى نواح جليلة، ولا يجوز كبتها ولا إخفاؤها ولا الجهل بها، وما الشعر والموسيقى والعبادات إلا أمثلة من ذلك التسامى المنشود.

ويرد المعترضون قائلين: إن هاته العاطفة تبلغ بعض الأحيان حد الجنون، ونحن الأطباء نعرف ونعالج نوعًا من الجنون يدعى جنون المراهقة فيعترف "الفرويديون" بذلك ويسكتون واجمين.

ومن الحوادث الطريفة المشهورة رأى القاضى "لندسى" الأمريكى القائل (بزواج المعاشرة) وهو نوع من الزواج يبكر به على سبيل التجربة ويمنع فيه الحمل بالطرق الحديثة، وقد استقال ذلك القاضى من منصبه بسبب الحملة التى قامت ضده من جراء ذلك الرأى الجرىء الذى اقترحه لحل معضلة المراهقة.

نأتى الآن لرأى "أدلر" فهو ينكر ما للعاطفة الجنسية من الأثر البالغ الذى يؤكده "فرويد" وأما سيكولوجية "أدلر" فتقوم على ثلاثة أعمدة: حب التفوق والقصد ومركب النقص وموجز هذه السيكولوجية أن الطفل يولد بخاصة أولى هى إثبات الذات – وهو نفس رأى نيتشه – ثم بالتدريج يتكون رأيه واتجاهه وقصده فى الحياة وبعد ذلك يشعر بموضع الضعف فيه ويحاول أن يغطيه بالتفوق، وما دام الأمر كذلك يجب أن يربى الطفل على حرية وثقة تساعدانه على التفوق وبلوغ الهدف، فإذا لم يكن قد اعتاد فى طفولته الثقة بوالديه فليس من المحتمل أن يجد فيهما إرشادًا أو معاونة فى حالة المراهقة، ويجب على المعلم والوالد بناء على ذلك أن يكونا صديقين له وهو يتدرج من الطفولة إلى المراهقة إلى الشباب.

فأساس التربية على هذا المبدأ هو الأخوة المرشدة الناصحة التى تأخذ بيد الناشئ فى رفق ولين وحذر وبذلك يصدق القول المشهور "أدب ابنك سبعًا وراقبه سبعًا وآخه سبعًا ثم ألق له الحبل على الغارب".

نأتى الآن للمدرسة الثالثة وهى مدرسة الملكيين فهم يقولون إن كل كلام عن النفس والعاطفة لا معنى له وإننا نستجيب "بأفعال منعكسة" استجابة آلية، وعلى ذلك يمكننا أن نوجه الناشئ كما نشاء فنخلق منه الرياضى أو الفنان أو العالم أو العبقرى، أو ننحدر به إلى المجرم أو اللص إذا شئنا..

ومما قرأت فى لطائف السير "جون ستيوارت ميل" العلامة المشهور كان والده يؤمن بذلك المبدأ قبل المدرسة الملكية، فكان يعلم أبناءه كما يشاء ويحشد فى عقولهم ما يشاء فإذا خرج بابنه "جون" يمشيان ابتغاء الرياضة أخذ يناقشه فى التاريخ والمنطق والفلسفة مناقشة صارمة والصبى لا يزال فى دور المراهقة لم ينضج بعد، على أنه إذا جاز ذلك لعبقرى جبار الذهن مثل "جون ستيوارت ميل" فلا يجوز بحال أن يطبق على العقول والنفسيات العادية.

والخلاصة من ذلك أنه يجب الأخذ بما ارتآه علماء التشريح والفسيولوجيا وعلم النفس الحديث فنأخذ من "فرويد" مبدأ التسامى ومن "أدلر" مبدأ الأخوة وننسى مدرسة الملكيين لأن آراءها غير معقولة، ويجب أن نتعهد هذه الأجسام النامية بالرياضة فى الهواء الطلق ونرحم العقول الآخذة فى النضج فلا نرهقها بحشد العلوم فيها حشداً ولا ننسى الإرشاد الجنسى فنشرح فسيولوجية التناسل وتشريحه ونتكلم عن أخطار العادات السرية والأمراض التناسلية ونخص الفتاة بالكلام عن الأمومة والحمل.

أما نصيحتى كطبيب فإنى أوصى بالغذاء الجيد المكون من اللحوم والبيض واللبن لأن الجسم فى طور النمو بحاجة إلى ما يساعد الأنسجة على البناء، والمواد الزلالية ألزم الأطعمة لذلك.

أما الرياضة فيجب أن تكون باعتدال وفى الهواء الطلق، ولابد من ساعات كافية للنوم لا تقل عن تسع ساعات فى الليلة.

وقد يحتاج الجسم النامى إلى بعض المقويات كالحديد والجير والفوسفور لبناء العظام.

الآن نقطة أخيرة: فى هذا الوقت من العمر يتجه التفكير الجنسى لناحيتين: ناحية حب الجنس المماثل وناحية حب الجنس المخالف، ومن هنا أن نصرف المراهق عن الناحية الأولى ولا يكون ذلك إلا باختلاط الجنسين فى معاهد الدرس. ففى ذلك تخفيف للكبت وتعويد على الألفة المنتظرة وانصراف بالعاطفة الجنسية لمجراها المرتقب.

مقارنة بين علمي الشعر العربي

المعري... والمتنبي

المتنبي أول شاعر قرأته وأحببته وصحبت ديوانه حتى حفظته عن ظهر قلب، وظل طويلا تحت وسادتي، وقد خلت مكتبتي الآن من دواوين الشعر العربي، أخذها أصحابي ولم يعيدوها ولكن بقي لي المتنبي يحيط به شكسبير من ناحية وشوقي من الناحية الأخرى، أحببت في المتنبي قوته ورجولته والألم المنبعث من نفس حساسة معذبة ومما حببه إلي أيضًا أني كنت أفهمه تمامًا بلا حاجة إلى "الشروح" و"التعليقات" إن لم أفهم ألفاظه فهمت معانيه وإن لم أفهم معانيه فهمت أنه كبير الآمال بعيد المرامي وهذا يكفيني منه.

وكنت أكره المعري لسببين:

الأول: أنني كنت صغيرًا حين قرأته فلم أفهم ما يريد أن يقول ولا أحفظ له غير قصيدته المشهورة في الرثاء "غير مجد في ملتي واعتقادي".

والسبب الثاني أن لنا جارًا شغوفًا به، وكان هذا الجار كلما لقيني امتحنني في بيت من أبي العلاء ويبرهن لي أني لا أفهم شيئًا ما دمت لا أفهم أبا العلاء.

وسبب آخر: لقد كنت أومن أن الشعر عاطفة محضة وكنت أعتقد أن حكمة المتنبي ليست "فلسفة" بمعنى الكلمة بل هي حكمة صادرة عن قلبه وألمه وتجاربه، وطالما دافعت عن نظريتي في الشعر وهي أن الشعر عاطفة فقط، واتهمت الذين يدسون الفلسفة في الشعر بأنهم يفسدون الشعر علينا.

ولكن الإنسـان كلما تقدم فى العمر طرأ عليه مـا ليس فى الحسبان. فإن مقالا واحداً قد يغير مجرى التفكير تغييراً تاما وهذا ما حدث لى. جرى تطورى فى المعرفة على السنة المعروفة - قصص وشعـر (عاطفة) - فحكمة - ففلسفة - فتصوف. وبينما أنتقل من كاتب لكاتب أشغف بهذا ثم أتركه لآخر تعلقت حيناً بالعلامة المشهور جون ستيوارت مِيل فقرأت له يوماً مقالا عن "الشعر" علمت به ما لم أكن أعلم.

ومنه أصبحت أنكر ما كنت أومن به سابقًا وهو أن الشعر عاطفة محضة، وهذا المقال الفريد يعثر عليه فى كتاب "مقالات نقدية للقرن التاسع عشر" طبعة أوكسفورد وملخصه أن الشعر عاطفة حقا ولكن يجب أن يكون له "لجام" من الفلسفة ولم ألبث بعد ستيوارت ميل أن تعلقت بالحكيم "رسكن" فقرأت له مقالا عن "نشاز" العاطفة فى الشعر وهو لا يخرج فى معناه عن مقال ميل.

فأخذت أقرأ الفلسفة فبدأت بالسهل وصرت أتدرج حتى وقع لى كتاب من أصعب الكتب وأغلاها قيمة كان هو السبب فى قراءتى لأبى العلاء من جديد، هذا الكتاب هو كتاب "السخرية" للفيلسوف ينكلفتش الروسى. بعد قراءة هذا الكتاب أخذت أعجب من إهمالى "للساخر" أبى العلاء الفيلسوف الشاعر المعتزل الزاهد مبتدع "الرمزية" فى الأدب أجيالا قبل أن ينتبه الشعراء إليها، أخذت ألتفت إلى أبى العلاء فوجدت نظرتى إليه قد تغيرت تماماً وأعتقد أن ذلك ناشئ من نضج الفهم الأدبى على السنين، فالمعرى لا يصح أن يقرأه الناشئ ولا المثقف ثقافة سطحية.

وقد شكا إلىّ صديق من كبار المتأدبين أن أشعار أبى العلاء فى اللزوميات متشابهة وأنها كلها تدور حول نقطة واحدة فنبهته إلى خطأ هذا الزعم وبينت له أنه أعمق بكثير مما يظن الناس، وملتن الشاعر الإنجليزى من هذا الطراز لا يحسن تذوقه إلا المتمكن فى الدرس والثقافة، ووردسورث كذلك لقح شعره بآثار الإطلاع الواسع والثقافة العميقة، ولكن النقاد اليوم ينكرون عليه شاعريته ويقولون إن عاطفته "ضحلة" ولولا علمه الغزير ما قرأه الناس وإن الشاعرية الكاملة يمثلها شلى وحده.

كنت أعتقد خطأ أن فلسفة أبى العلاء هى مجرد تأملات رجل "مدمن" التفكير حتى أحطت بما كتب عنه فصار أبو العلاء فى نظرى "سقراط" ثانيًا يسخر ويعلم ويسخر فصار على رأى بنكلفتش "ضمير الإنسانية" يستيقظ ويوقظ.. يقظة صارمة تثير الشك المفيد، ويدعو الناس إلى إعادة النظر فى أمور الدنيا!.

* * *

بعد هذه المقدمة نقارن بين المتنبى وأبى العلاء، والموازنة بين هذين الشاعرين اللذين أحببت أحدهما صغيراً وشب حبه معى لم يتغير، وأحببت الثانى على "فهم" وكبر.

لا يمكن أن نفهم شيئًا عن المتنبى أو أبى العلاء بغير أن نلم إلمامة بسيطة بعصريهما. العصران متقاربان، المتنبى يسبق المعرى بستين عاماً وكان أبو العلاء من أشد أنصار المتنبى، وقد قلد شعره فى طور من أطوار حياته الأدبية ودافع عنه وتعرض بسبب ذلك إلى الأذى. والقصة التى بينه وبين الشريف الرضى مشهورة، غير أن الفترة التى قضاها المتنبى، فى بلاط "سيف الدولة" كانت عصر أمن نسبى، فسيف الدولة كان رجلا عظيماً وطالما حارب وانتصر دفاعًا عن الإسلام وطالما رد الروم فى غزوات مدها وخلدها المتنبى، ولم يكد سيف الدولة يموت حتى أخذ ذلك الحصن للمتنبى ينهار وكثر الطامعون والمغيرون والأبطال والمدعون للبطولة والفاتحون بالسيف والفاتحون بالحيلة، فعصر أبى العلاء كان عصراً بغيضاً مملوءاً بالانقسامات والدسائس ولا أعنى بذلك أن عصر المتنبى خلا من ذلك، وقد كانت الفتن مشتعلة والأحزاب قائمة ولكن سيف الدولة كان "الرجل" الذى جرى فى خيال المتنبى.

والمتنبى كان جباراً تام الرجولة وأبو العلاء كان كفيف البصر فأقعدته هذه العلة عن السير فى السبيل الذى طرقه المتنبى لبلوغ أمانيه، وإن كانت المرامى البعيدة والأوطار الكبيرة هى عند كليهما وليس ذلك بغريب فى عصر كان الناس فيه فى حاجة إلى "رجل" بل الأصح إلى "رجل عربى" صحيح العروبة يدرأ عن الإسلام الفرس والروم والديلم والفاطميين وغيرهم وغيرهم، أقول "صحيح العروبة" فقد كثر المتعربون

والمستعربون، وصار العرب الحقيقيون يسكنون جزءاً صغيراً منعزلا عن البادية، ومن يقرأ تاريخ تلك الأيام بإمعان يقرا أسماء غريبة يقرأ اسم توشكين وابن سبكتكيت، وغير ذلك.

فانظر إلى أى حد اختلط الحابل بالنابل.

ومن العجيب أن الانحطاط السياسى قام فى ظله ارتفاع أدبى ولكنه أدب فى "المعانى" أى ثقافة وفلسفة من هنا وهناك أما الألفاظ العربية الصحيحة فيظهر أنها أخذت تختفي، ولعل القوم كانوا فى حاجة إلى "مجمع لغوى" أكثر من حاجتنا إليه اليوم.

وقد أحس المتنبى بذلك وأبو العلاء شعر به ويذكر الكاتب "هنرى برلاين" فى كتابه "أبو العلاء السورى" أن المتنبى كان يترك الحواضر إلى البوادى أياماً بحالها لكى "يتصيد" اللفظ العربى الصحيح، ولكن المتنبى كان فناناً قبل كل شىء فإذا طاوعته اللفظة فى شعره وضعها وإن لم تطعه وضع غيرها سواء أجرت على القياس أم لم تجر.

أما أبو العلاء فقد كان من علماء النحو والصرف والعروض، وكانت إحاطته باللغة إحاطة منقطعة النظير وأعتقد أنه "التزم ما لا يلزم" متعمداً أن يحفظ للغة العربية "كلاسيكيتها" فى عصر كثرت فيه الفوضى وضربت أطنابها، وأبو العلاء كان يستطيع أن يكون أى شىء، كان يستطيع أن يقول كما قال المتنبى قولا ثائراً جزلا ويرق رقة أبى العتاهية، فعنده من الخيال ومن "الطاقة" الشعرية ما يدركه لأول وهلة من قرأ "رسالة الغفران" وإن تكن نثراً لا شعراً.

وإنما تعمد أبو العلاء أن يحفظ للغة القرآن جلالها وروعتها وأصولها.

يذكر الذين قرأوا تاريخ عصر أبى العلاء أن صالح ابن مرداس كان من أبطال ذلك العهد، كان شجاعاً فتاكاً قوى المراس فمشى إلى "المعرة" فى بعض جنوده فحاصرها ويظهر أن المعرى كان سيد أهل بلدته بالفكر أو بالنسب – فخرج إليه يشفع

لقومه وقدم له استرحاماً آية فى الرقة جعل ابن مرداس على غلظته يفك الحصار ويعفو.

ويصف ذلك أبو العلاء بقوله:

فيسمع منى سجع الحمام وأسمع منه زئير الأسد

ولماذا نذهب بعيداً.. من يقرأ رسائل أبى العلاء لأصدقائه وأخواله يرى النثر الصافى الرقيق العذب الذى يكتبه أبو العلاء على سجيته لا تعثر فيه ولا تفلسف وإن كانت تغلب عليه "الصنعة" والمحسنات البيانية.

* * *

المقارنة بين أبى العلاء والمتنبى تقتضى النظر فى:

(١) أثر الوراثة

ولد المتنبى فى الكوفة، وقد زعموا أن والده كان يسقى الماء على ظهر جمل، فعلى حسب هذا القول كان وضيع الأصل وهذا قول لا دليل على صحته مطلقاً، ويقينى أن حول ولادة المتنبى سرا أخذه معه المتنبى إلى قبره وكانت تعرفه جدته التى تولت تربيته، وقد أخبرته به وأوصته أن يكتمه فولد كتمانه فى نفس المتنبى مضضاً وتمرداً كان لا شك سبب الثورة الدفينة فى أعماق نفسه، فهو يوقن بنبل أصله ولسبب ما لا يستطيع أن يقول، ولو لم يكن نبيلا ما خرج فى شبابه إلى القبائل يجمعها حوله والعشائر يدعوها إلى التضافر حوله لغرض كبير، ولو كان ابن سوقة ما جلس أحد ممدوحيه العظام بين يديه وقد أجلس أبا الطيب مكانه ولو كان ابن سوقة ما جرت الألفة والمودة بينه وبين سيف الدولة ولما تطلع إلى "خولة" أخت سيف الدولة محبا وطامعاً فى الزواج كما تدل قصيدته الهائلة.

طوى الجزيرة حتى جاءنى خبر فزعت فيه بآمالى إلى الكذب

فهذه قصيدة غير عادية..

كلا إن جمال سمته على ما ذكر الرواة وتلك "الوفرة الجميلة التى تصل إلى أذنيه" لا تدل على ضعة الأصل، وشعره ليس فيه بيت واحد ينم على أصل خسيس، ولعمرى لو كان وضيع الأصل لنم عليه ولو بيت واحد من شعره، فالشعر مرآة لا تكذب أبداً وقد يكذب المرء ما شاء ولكنه لا يستطيع أن يكذب فى شعره.

فأنا أومن بنبل أصل المتنبى إيمانًا تاما، وأوقن أن أعداءه وحساده هم الذين خلقوا هذا "السقاء الكوفانى" خلقاً وجعلوه أبا للمتنبى.

فسر القوة فى شعر المتنبى هو ذلك الكتمان الذى عاناه منذ صباه والذى جعل فى باطن عقله "عقدة" كما يقول علماء النفس.

أما المعرى فقد ولد بمعرة النعمان ونسبه لاخفاء فيه، فهو من أسرة عريقة فى الفضل والعلم – على الأقل من ناحية أمه – ولا شك مطلقاً فى أثر ذلك فى بناء شخصيته أما "العقدة" عند المعرى فهى بلا شك فقدان بصره وهو صغير.

فنحن نرى إذن أن المتنبى يعرف من أين انحدر ولا يستطيع أن يذيع ذلك لسبب لا نعرفه أو يحاول أن يذيعه فيحارب ويصدم، والمعرى يعرف باليقين من أين انحدر ويشعر من صباه بالقوة الموروثة الجارية فى دمه ولكنه يفقد بصره فيحول ذلك دون ما يبتغى من المطامع الواسعة.

(٢) أثر البيئة والحوادث

كلا الرجلين يضيق ذرعًا بمكانه الصغير حيث ولد ونما فيخرج إلى الدنيا الواسعة ليجرب حظه. المتنبى يترك الكوفة ويثير ضجة حوله؛ فيقبض عليه ويسجن ثم يفك سراحه فيعود إليها ثم يملها فيهجرها من جديد وينتقل من هنا لهناك يبحث عن "رجل" فلا يجد فيعود إلى الكوفة ليرى جدته فيمنع لسبب مجهول فينقلب إلى الشام فى طلب ذلك "الرجل" الذى يتمناه فى خياله فيلتقى التنوخيين فى اللاذقية ثم يتصل بغيرهم وغيرهم، وكلما شامَ برقا اتضح له خداعه حتى اتصل ببدر ابن عمار ولكن الوشاة

أفسدوا عليه أحلامه، وها هو ذا ما زال يبحث عن "رجل" يعينه على مآربه البعيدة ويشرح إليه دخيلة نفسه حتى اتصل بسيف الدولة فى حلب ووجد الضالة التى ينشدها من قديم. أما أبو العلاء فخرج من معرة النعمان يطلب العلم والجاه فى بغداد ولكن بغداد وأهلها خيبوا ظنه فانقلب راجعًا إلى المعرة وقد استن لنفسه قانونًا صارمًا أخذ نفسه به إلى يوم وفاته. لم يجد "رهين المحبسين" ضالته فترك البحث وانقلب إلى عزلته يدرس ويفكر ويتأمل، فكلا الرجلين شعر بضيق المكان الذى ولد فيه فخرج إلى الدنيا العريضة يبحث عن مثله الأعلى، أما المتنبى فقد أدى به تجوله إلى سيف الدولة، أما المعرى فلم يجد أحداً فلجأ إلى العزلة واستن لنفسه سنة صارمة "والتزم ما لا يلزم" أما المتنبى فقد اندفع فى غمار السياسة وطمع فى السيطرة والملك ليحقق ما يعرفه عن نبل أصله، أما المعرى فعرف عبث الاشتباك فى تلك الفوضى التى لا حد لها وهو من أجل عاهته المحتومة بالطبع لا يستطيع أن يشترك فى أمور تحتاج للبصر وما هو أبعد من البصر نفاذاً فانصرف إلى ما يصلح له حقا وهو الشعر.

(٣) الانكباب على الدرس والاطلاع والتحقيق

أما المتنبى فدراسته بدأت بالكوفة وتمت ونضجت فى بلاط سيف الدولة حيث توافرت لديه المؤلفات والمراجع، وكان يجد نفسه مضطراً للإتقان والتجويد لكثرة الحساد والأعداء الذين كانوا ينتظرون فرصة للتشهير به، ولكنه لم يجعل شعره سجلا لثقافته الواسعة، ولكن كان شعره سجلا لعواطفه وحوادث أيامه ويمكننا أن ندرس حياة المتنبى من شعره دراسة تامة، أما الموارد التى استقى منها المتنبى فهى الشائعة فى تلك الأيام وأغلبها مترجمات عن اليونانية والفارسية والهندية بين أدب وفلسفة، وأعتقد أن المتنبى كان مضطرا إلى الدرس والتحقيق ليكون كفؤاً بشعره للملوك الذين جعل نفسه ندا لهم لا مادحًا، ومن الواضح أن اشتباكه فى غمار السياسة والخصومات الحزبية لم يترك له وقتًا كافيًا للاستزادة من القراءة والتحصيل وهذا سر الفرق بينه وبين المعرى الذى انقطع للعلم زهاء أربعين سنة، أما المعرى فقد ساعده انقطاعه التام

لتحصيل العلم على بلوغ الغاية التى ضمنت له الخلود، وقد اشتغل بالشعر والنثر والفلسفة واللغة بكل فروعها وألف كتباً كثيرة جدا ضاع أكثرها مع الأسف، فالمتنبى خلد بشعره القوى الثائر الذى هو سجل كامل لنفسه ولزمنه، شعر تدعمه الثقافة والاطلاع الواسع، صادر من القلب توا مبنى على أساس متين من التفكير السليم والعقل الراجح، أما المعرى فرجل دارس Scholar جعل شعره فى أيامه الأخيرة أى فى اللزوميات – سجلا لمعرفته وقاموساً لمعلوماته، وهو مع كل ذلك لم يخل من قصائد – خاصة فى الرثاء – تتجلى فيها العاطفة القوية الرائعة.

(٤) نفسية كل منهما

المتنبى رجل قوى متمرد يطلب "حقا" ويجرى وراء ثأر، طامع فى الملك والمال يبحث عن "مثل أعلى" فيخيب أمله وعندما يعثر على سيف الدولة يجرى من الحوادث ما يخرجه من بلاطه حزيناً كئيباً، وقد ظفر المتنبى بالمال والشهرة ولم يفز بمطامعه السياسية وقد عاش وهو ثائر ومات وهو ثائر، ما أظن الحياة ولا الموت وجدا حيلة فى ذلك القلب القوى العنيف الذى ظل ينبض خلف التراب كما نبض فوق ظهره.

أما أبو العلاء فيمثل أعلى مراتب العقل، ذلك "العقل الهادئ" الذى تكلم عنه كونفوشيوس الصينى فقال إنه لا يتاح إلا لقليلين جدا .. ذلك العقل الذى ملك وحكم وصارت له السيطرة على صاحبه وعلى الحوادث حوله، لا تزعزعه العواصف ولا تؤثر فى تفكيره الأعاصير. عقل أبى العلاء أمره أن يعتزل فاعتزل وأن يزهد فزهد وأن يلزم محبسيه فلزم كل ذلك فى هدوء وقوة وصبر هى من مواهب المختارين الذين أنعم الله عليهم ووهبهم من سره العظيم.

أثر فرويد فى الأدب الحديث

ماذا نقصد بالأدب الأوروبى الحديث؟ وهل يختلف الأدب الأوروبى الحديث عن القديم؟ وما هو الحد الفاصل بين العهدين؟ وماذا نقصد بالأدب على الإطلاق؟

نجيب أولا على هذه الأسئلة ثم نتكلم عن (فرويد) وأثره فى الأدب الحاضر.

الأدب فى العصر الحديث يشمل "القصة" و"السيرة" و"التاريخ" و"الشعر" و"المقال". والقصة أكثر أنواع الأدب ذيوعًا، والسيرة والتاريخ قد احتلا مكانًا ممتازًا بالنسبة للطريقة الجديدة التى اتبعت فى كتابتهما وقد ندر أدب المقال وصار الشعر الجيد قليلا جدا وقد صحب تطور الأدب تطور الفن على مر الأجيال.

الفن فى أصله عبادة، أصله قربان يقدم لمعبود، وقد يكون القربان كلامًا أو لحنًا موسيقيا أو نقشًا أو تمثالا ويشترط فيه شيئان:

الأول: أن يعبر القربان عن خوالج المهدى.

والثانى: أن يكون الجمال طابعه أو إطاره أو الصندوق الذى يقدم فيه ليلق بالمهدى إليه، التعبير عن الإحساس هو الأصل والجمال لازم له أو تابع له، وما دام الفن فى أصله قربانًا لمعبود فقد كان وقفًا على الذين جعلتهم الإنسانية موضعًا للعبادة والتقديس.

فالألحان كانت تغنى فى هياكل العبادة وفى حضرة الملوك وعند أقدام الأبطال. و"هومير" الخالد جعل شعره حاديًا لركب الآلهة، ونقوش "رافائيل" العظيم وتهاويله كانت تمجيداً للكنيسة.

وأكثر القصص كانت تسلية لملك أو ترويحًا عن عظيم أو تمجيداً لبطل؛ لهذا كتبت "ألف ليلة" ووضعت "كليلة ودمنة" وأكثر مسرحيات "شكسبير" عن الملوك وقد مثلها أمام الملكة "إليزابيث" وكان "موليير" يؤلف لتسلية البلاط الفرنسى.

بعبارة أدق كان الفن أرستقراطيا، وقد حاول الفن مع الزمن أن يتحرر من عبودية الأرستقراطية وله فى ذلك طريقتان: الأولى: أن يتملق الشعب فيبذل له ما يحبه غير آبه لشيء آخر كان يغريه بتماثيل النساء الجميلة والصور الزاخرة بالألوان والأضواء والظلال أو القصص الحافلة باللفظ الناصع المجلجل.

والطريقة الثانية: أن يتزلف إلى الشعب بالتقرب إليه بما هو متأصل ثابت فى نفوس الجماهير، كالأخلاق والعفة والدين، ومثال ذلك العصر الفيكتورى فى إنجلترا، فالصور فى ذلك العصر كانت تمثل الخلق والفضيلة، والروايات تخط فى مثل ذلك الشأن والمسرحيات تؤلف لهذا الغرض.

وفى الطريقتين إفساد للفن ونزول به عن سمائه، وفى الواقع إن الأجيال التى مرت على هاته الحال تعتبر أجيال اضمحلال، ولقد مرت على العالم عهود مظلمة حتى أطل فجر النهضة فكان طابعه الظاهر أن ينقل الإنسانية من عبادة الأرستقراطية والتفكير فى السماوات وما بعد السماوات إلى الاهتمام بالذات البشرية، هاته الذات التى تلاشى وجودها فى ركاب الملوك والأبطال والكهنة وكان فنها نقديا لهؤلاء، يجب إذن أن ينصرف إلى التبصر فى أمرها هى، لقد حاولت أن تعبر عما يخالجها من العبادة وقدمت ما شاءت من القرابين، فهل يحق أن تعبر عما يخالجها من الآمال والآلام؟ ألم يحن أن ترسم الصورة آمال فرد ويصور اللحن آلام باك حزين أو فرح قلب متهلل أو يوضح التمثال تعبير قلب بشرى ينبض بمختلف النزعات والميول؟

بهذا يصير الفن ديمقراطيا لا بالتزلف إلى الشعب بعرض الجمال ونماذجه ولا بالتقرب إليه عن طريق الفضيلة والخلق والعفة والدين.

يرتفع الفن ويسمو بشيئين: أولا أن يحافظ على أصوله الأولى وهى أن يكون للتعبير ثم الجمال، وثانيًا أن يكون ديمقراطيا، والشيء الأول مرتبط بالثانى، فإن الفن

الذى يعنى.- فى أية صورة من صــوره - بالتعبـير عن خــوالج الفــرد وميـوله هو فن ديمـقـراطى.

عندمـا نجح النداء بالديمقراطيـة حظى الفن بكثير من النجاح، فـأمـا الموسيقى فبالرغم من كل ما صنع من أجلها لم تزل أرستقراطية، فإن ألحان "بيتهوفن" و"باخ" و"شوبان" يتاح سماعها لكل مخلوق ولكن لا يتمتع بفهمها إلا القليلون.

أما الأدب فقد نجح فى أن يكون ديمقراطيا تمام النجاح حتى صار تعريفه الجديد الصحيح "الأدب هو الجزء الديمقراطى من الفن" فإن أى فرد متوسط الذكاء يستطيع أن يقرأ أية قصة، فإذا لم يرد ذلك فما عليه إلا أن يمشى إلى السينما فيجد أمهات القصص على الشاشة البيضاء.

عندما صار الأدب ديمقراطيا غنى - كما تقصد كلمة الديمقراطية - بالاهتمام بأمر الفرد وتحليل عواطفه وميوله، غير أن هذا التحليل قد اختلفت أنواعه بحسب العهود التى مر بها الأدب والبلاد التى رأت تطوره، لقد بدأ التحليل فلسفيا ولا شك أن روايات "روسو" و"فولتير".. تنادى بتثقيف العقل، فأخذ الأول يشرح القلب والثانى يشرح العقل، ولا يفوتن القارئ كتاب "قاموس الفلسفة" فهو كتاب ثمين، وفى المبدأ كان علم النفس جزءًا من الفلسفة وكان من أبوابها ويقرأ فى كتب الفلسفة من فصولها.

وكان الفلاسفة يعرفــون كثيراً عن النفس و"العقــل الباطن" ولكن "العقل الباطن" لم يكن فى رأيهم إلا مخزنًا تتكدس فيه الذكريات والتجاريب على أنهم كانوا "يرقعون" ما لم يستطيعوا فهمه من حقائق النفس البشرية "ترقيعًا" فلسفيا.

ثم أخذ علم النفس ينفصل عن الفلسفة حتى استقـل بنفسه تمامًا وصارت له مكانته الفريدة.

وعندما استقل بنفسه وتناولته أيدى العلم بالتحقيق والتبويب ظهرت الرواية "السيكولوجية" فى أفق الأدب الحديث، ومن أقطاب المؤلفين فى ذلك "هنرى جيمس" فى إنجلترا و"بروست" و"بورجيه" فى فرنسا، وظلت الرواية "السيكولوجية" تظهر وعلى وجهها قناع الخلق والحياء والخوف، فإن "ديكنز" كان يجمع "دورا وكوبرفيلد" فإذا أوشكا أن يتعانقا ختم الفصل وعلى وجهه حمرة الخجل!

فلما جاء "توماس هاردى" كانت روايته الأولى عليها ذلك الطابع المقنع بالخجل والخوف حتى كتب روايتى "تيس" و"هود الغريب" فثارت عليه ثائرة النقاد، فإن "هاردى" فى رواية "تيس" العظيمة المنقطعة النظير يصف "الذكر" القوى وهو يحمل الأنثيات الرقيقات الجميلات على ذراعيه المفتولتين عبر قناة، ولا يدع "هاردى" فتنة من فتن "الجنس" إلا أبدع فى تفصيلها إبداعًا متناهيًا فى الجرأة والروعة.

"تيس" هى رمز "الجنس" فى الأدب العصرى الحديث، وهذه الرواية فى رأيى الشخصى هى الحد الفاصل بين القديم والحديث، وإنى لأنصح لكل متأدب أن يقرأها ببطء، فقد قرأتها مرارًا وأتمنى أن تتاح لى فى العمر فرصة أخرى لأعيد قراءتها على مهل، فيها الأسلوب وفيها التحليل السيكولوجى وفيها الفلسفة وفيها الجرأة فى التحدث عن الجنس فى عهد لم يكن أحد ليجرؤ فيه حتى على ذكر التقبيل والعناق!

مر القرن التاسع عشر وهو عصر الغرور العلمى فكان يعتبر الكلام عن الجنس جريمة لا تغتفر، كانت هناك مؤامرة واسعة النطاق اشتركت فيها الجامعات والصحف والعلماء والأطباء تعتبر "الجنس" وحشًا كامنًا فى الدم الإنسانى يجب أن يقهر وأنه يمكن قهره بالاحتقار والحرمان، فالمراهقون والشبان الذين حملوا عبء "الجنس" على أكتافهم كانوا يتلفتون حيارى، لمن يشكون ذلك العبء الجبار الذى يثقل كواهلهم المريضة؟ فلا يجدون غير وجوه متجهمة فى مؤامرة عامة.

وكان "شاركو" العظيم يعالج مريضاته "بالهستيريا" بواسطة التنويم فتبوح المريضة بأسرارها الدقيقة "أسرار جنسية – فما تكاد تطرح عن قلبها عبء تلك الأسرار حتى تنال الشفاء".

وكان "شاركو" يهمس بذلك لمريديه وتلاميذه، وفى ذلك العهد كان "فرويد" تلميذًا "لشاركو" وكان يترك "فيينا" ليستمع إلى شاركو فى باريس وقبل ذلك كان "فرويد" مشتغلا بعلم النفس وقد حاول أن يضع له قواعد جديدة فلما عاد إلى "فيينا" كان فى ذهنه ذلك السر الرهيب وهو أن "شاركو" كان ينتزع من مرضاه النساء أسرارًا جنسية هى السبب فى أمراضهن العصبية الهائلة.

ولما وجد أن التنويم لا يجدى فى كثير من الأحوال علم من صديقه "برنهايم" أنه يمكن للإنسان بقليل من الصبر أن ينتزع من مرضاه أسرارهم وأن الإنسان طبع على "المقاومة" وأنه يخفى ويحاول أن يخفى ماضيه ورغباته وميوله فهذه المقاومة حقيقة لا زيف فيها بتاتاً وهى مقاومة عامة.. الإنسان يقاوم الإفشاء ويحارب المعلومات الآتية إليه من خارج نفسه أو من داخلها.

هاته الحقائق الثابتة هى نواة علم النفس الحديث، ومن تذكرها فسر بها ألف حقيقة من حقائق العالم. فالعباقرة غرباء أشقياء لأنهم يأتون بالجديد لعقول فطرت على مقاومة كل جديد، والمصلحون والأنبياء اضطهدوا من أجل ذلك والمجددون فى كل أمة يشردون وينكرون!

قلنا إنه بالتنويم المغناطيسى أو بالإيحاء يمكن انتزاع هاته الأسرار ويمكن الاستدلال عليها كذلك بكثير من الأعمال التى نقوم بها غير متعمدين، أى فى غير وعى وفى الأحلام أيضاً.

وإذن فلا بد من مستقر لها دون "الوعى" لا شك أنه "العقل الباطن" مأوى "غير الوعى" فهو ليس بمخزنه فقط بل هو أساس المقاومة.. هو الذى يحبس هاته الأسرار فى قبره السحيق المظلم.

ولماذا يبقيها؟ هاته الأسرار إما رغبات أو ذكريات ماضية وهاته الرغبات أو الذكريات عادة تكون جنسية، ولهذا لا يسمح العقل الباطن لها بمخرج لأنها تتعارض مع حقائق الدنيا الخارجية ومع ما اصطلح عليه الناس من تقاليد وعوائد، فهى تبقى فى مكانها ولكنها لا تنام ولا تموت ولا يسمح لها بالخروج فيكون هناك نضال فى الظلام، نضال لا يدرى به الشخص الذى يدور فى نفسه هذا النزاع بل هو فى الواقع لا يريد أن يصرح به ولا يريد أن يعرفه وإنما الأثر الواضح له هو:

"الأمراض العصبية المختلفة" ..Neuroses.

والخلاصة أن الجنس هو المسيطر على الإنسان من يوم ميلاده وأن له تطوراً طبيعيا وأدواراً فى الصغر حتى البلوغ يمر بها كل مخلوق طبيعى، وهاته الأدوار هى: أولا - أن يحب الطفل أمه أو أباه جنسيا ثم تعقب ذلك فترة لا شىء فيها ثم يميل المراهق إلى

الجنس المماثل له وبعد ذلك يحب الجنس المخالف له، أى أن الذكر يحب الأنثى وينتهى ذلك بالزواج الذى هو السنة الطبيعية للحياة، فإذا حدث ما يعترض هاته الأدوار فى مجراها الطبيعى أدى ذلك إلى الوقوف عند دور غير طبيعى أو إلى أن يتحول الإنسان إلى حب نفسه وإلى رغبات مكبوتة نتيجة لذلك الشذوذ فى تيار الجنس.

هذا هو "فرويد" ملخصاً وموجزاً غاية الإيجاز: يقول كل علم النفس الحديث الذى خلقه فرويد خلقًا أن الحب هو كل شىء، فمن فقد حب الأم والأب وعطفهما أثر عليه ذلك فيما بعد تأثيراً عجيباً، فهو يبحث عن شىء يقوم مقام ذلك فإذا لم يجد أحب نفسه ودللها وقد يطلب العظمة والمجد لها فيبلغ من ذلك ما يشاء.

ومن وقف حبه عند دور الأم أو الأب لا يريد أن يتعداه إلى الأدوار التى بعده يتكون لديه ما يسمى بمركب "أوديب" وهو الأسطورة الإغريقية الشهيرة عن الملك الذى تزوج أمه.

وفى الدور الثالث، يتحول تيار حبه المصدوم إلى داخل نفسه فينطوى عليها ويدمن النظر فى مختلف نواحيها ليل نهار وما فى تلك النواحى غير رغبات لم تتحقق فكظمتها فأخذت تعمل عملها الخفى فى ظلمات النفس تحاول أن تجد لها مخرجاً عن طريق الجسد بالتشنج أوالصرع أو بسبيل عضو من الأعضاء.. هذه هى الهستريا أو النورستانيا.

فالآن ننظر إلى الأدب فى أى ناحية من نواحيه.

أما القصة الحديثة فهى وصف لهاته الرغبات وتحقيق للصلة الوثيقة بين الماضى والحاضر والمستقبل، وما من رواية حديثة إلا قامت على فكرة سيكولوجية مما ذكرنا.

ثم لماذا نذهب بعيداً؟ لماذا يقبل الناس على السينما هذا الإقبال؟ السر بسيط فإن القوم يشاهدون على الشاشة البيضاء من يحقق لهم أحلامهم ورغباتهم التى يستطيعون تحقيقها فيضع كل متفرج نفسه موضع البطل فتهدأ أعصابه ويخف عنه ما يسمونه "بالضغط الخلقى" **Moral Tension**.

فأما المسرح الحديث فقائم كله الآن على هذا التحليل السيكولوجي الجنسي، وقد انتهى عهد الصياح والضجيج في المسرح وصار في خبر كان. وإنني لأنصح الذين يريدون الاستزادة أن يقرأوا مسرحية "موجام" (الدائرة). فإن أروع ما فيها أن بطلة القصة متزوجة من رجل يبذل لها المال ويضعها في جو سام من الغنى والجاه والترف ولكنها تفضل عليه رجلا عاديا يقول لها: اسمعى إننى رجل فقير خشن وربما نختلف ونختصم بل ونتماسك ألف مرة في اليوم ولكنى سأعطيك شيئاً لم تعرفيه مطلقاً.. هي - ما هو هذا الشيء؟.. هو - "الحب".. هي - أيها الوحش الجميل!! وانصرفت معه عن دار زوجها بلا تردد!

ورافع عَلَم هاته الروايات - بغير منازع - هو "لورانس" و"جويس" فهو أجرأ وقد صودرت روايته "يوليسيس" في إنجلترا.

ومن العجيب أن الكلاسيكيين الحديثين أمثال "مورجان" و"هكسلى" لا يسلمون من تأثير "فرويد".. فإن "مورجان" في روايته "الينبوع" يصف علاقة الأنثى الممتلئة بالأنوثة بالرجل المريض المشلول العائد من الحرب بأسلوب خليق "بلورانس" وحده - فأما "هكسلى" فإنه في مختاراته الأخيرة جمع كثيراً من الشعر الذى يصف العلاقة الجنسية في أسلوب غاية في الإعجاز ونهاية في الجرأة! وفي فرنسا نجد مدرسة "فرويد" لها أروع تأثير وله مريدون يخطئهم الحصر، أما في ألمانيا والنمسا فالتيار أقوى ويكفى أن تقرأ "لتوماس مان" (الموت في البندقية والحزن المبكر) وأن تقرأ "لاستفان زفيج" أى سيرة من السير لترى كيف يحلل الشخصية ويربط ماضيها بحاضرها.

وعلى ذكر السير نقول إن هذا الباب صار كله تحليليا للجنس وأثره في حياة المترجم له، وأغرب مثال لذلك ما قرأته عن "هتلر" وأثر الجنس في حياته الشخصية بقلم "لورانس جولد" في مجلة "التربية البدنية" وهذا موجز لرأيه فيه:

"إن صعود ديكتاتور ألمانيا إلى المجد سببه أن الحب لم يجر في حياته مجراه الطبيعي.. فإنه لم يظفر بحنان الأبوين في صغره فتحول حبه لنفسه.. وصار يطلب لها السمو".

"كانت طفولته شقية لا حب فيها فتجنب فيما بعد حب الناس جميعًا ووجه كل قواه إلى تهذيب نفسه وصقلها والصعود بها إلى أعلى.. وقد أفلح فيما أراد!".

أما التاريخ فالمعروف أن تفسير حوادث التاريخ إما تفسير اقتصادى وإما له مرجع من أزمات فى نفوس أفراد أو هما معًا، وقد كان الأول هو المعترف به والغالب أما فى العصر الحاضر فالتفسير الثاني وهو هاته الأزمات في نفوس الأفراد فهو الأغلب.. وإنى أدعو المستزيدين من هذه البحوث إلى قراءة المؤلفات التاريخية الحديثة من قلم "هيلير بلوك" و"جون جوكان" فقد أصدر كلاهما فى عام واحد مؤلفًا عن "كرومويل" ومتى تقرأهما تعرف جيداً كيف يكتب التاريخ اليوم.

والحق أنه فات الوقت الذى كان التاريخ يقرأ فيه لأنه مجرد حوادث بل لقد صار يقرأ لأنه سلسلة "أزمات" فى نفوس أفراد أدت إلى تلك الانقلابات الهائلة التى يعرفها قراء التاريخ، أما فى الشعر فليقرأ عشاق هذا الفن قصائد "لورانس" فهى "فرويدية" لحمًا ودمًا، خذ مثلا قصيدة (البرق): "العاشق يقبل حبيبته فى الظلام.. فرأى البرق يلمع على وجهها فقال لها: اذهبى: إن البرق كشف لى كل ذلة "الجنس" وعبـوديته.. لقد لعنت حبى ولعنت دمى.. اذهبى قبل أن يعـود البرق فيكشف لى ذلتك وخضوعك مـن جـديد!.

هذا أثر "فرويد" فى الأدب الأوروبى الحديث وخاصة فى "الشواذ" الذين كثروا بعد الحرب بسبب ما أحدثته من صدمة فى النفوس حتى قامت طائفة من الكتاب لا تعنى بغير هؤلاء الشواذ! ومهما يكن من أمر "فرويد" – إذا صدقته وآمنت به أيها القارئ الكريم أو لم تؤمن – فإن أثره ومداه بعيدان، ويكفيه أنه خلق من علم النفس علماً جديداً قامت أصوله على دعائم من المنطق لا تنقض.

الشباب المصرى والمشكلة الجنسية

المشكلة الجنسية فى مصر لها صبغة خاصة، وإنه لمن الصعب على من درس فرويد وفهمه كما درسه أهل الغرب وفهموه أن يطبق ما أخذه عنه على المصريين، وفوق ذلك يجب على الكاتب المصرى أن يواجه هذه المشكلة بحذر كبير لما تنطوى عليه من التعقيدات والخطورة.

يعرف عشاق الأدب المسرحى مسرحية "الدائرة" للكاتب الإنجليزى المشهور سومرست موم أنها من أهم مسرحياته وأكثرها انتشاراً وقد نقلت إلى لغات عدة ومثلت - كما هى - فى أكثر بلاد العالم المتمدين، وهى تقوم على "فكرة" جنسية جريئة، ولقد فكر بعض الأدباء المصريين فى نقلها إلى اللغة العربية أسوة بالأمم الأجنبية فاعترضته هذه الفكرة الجنسية وعلم أنه من المتعذر بل من المستحيل أن يجيز المسرح المصرى إبداء فكرة على هذا النحو من الجرأة والخطورة أمام جمهور غير مستعد - من الناحيتين الثقافية والفكرية - لهضمها فبدا له أن يغير المسرحية بحيث تنتهى إلى ما تواضع عليه المجتمع المصرى من السنن الخلقية ولكنه وجد فى هذا التصرف لونًا من ألوان الاعتداء على حرية الحقيقة وحرية العلم وحرية الفن فعدل وبقيت الرواية لم تترجم.

وخطر لكاتب هذا المقال أن يترجم مسرحية رائعة للكاتب الفرنسى الشهير بورتوريش اسمها "الآلهة الحقيقيون" فقامت فى وجهه عقدة جنسية هى صلب الرواية وأحسن ما فيها لما تستند إليه من الصراحة والجرأة، بيد أنه أدرك استحالة قبولها على المسرح المصرى كالرواية الأولى فعدل أيضًا عن ترجمتها.

وقد ضربت هذين المثلين لأبين استحالة قبول العقول المصرية لنظريات فرويد التى قلبت التيارات الخلقية فى أوروبا رأساً على عقب، ولكن أى العقول أعنى؟ إن الذين يختارون الروايات للمسرح المصرى يمثلون الفئة المثقفة فى مصر بل هم من أبرز علمائها وأشهر رجال الفكر فيها وأكثرهم يدرسون للشباب المصرى فى الجامعة، ولست أشك فى أن كلهم قرأ فرويد كما قرأناه وأكثر وربما آمن بعضهم بما يبشر به فتأثر به ولكنه يتردد طويلا قبل أن يعلن رأيه فيه ويجهر بآرائه عنه، يتردد طويلا قبل أن ينشرها بين الشباب المصرى وقد يهمس بها همساً بين أخص أصدقائه وتلاميذه ولكن ذلك يستحيل أن يخرج عن نطاق تلك الدائرة الضيقة.

ومن المسلم به أن فى مصر نهضة تتناول الحياة من جميع نواحيها، وفى وسعك أن تقول عن هذه النهضة ما شئت: قل إنها بطيئة أو قل إنها غير منظمة ولكنك لا تستطيع أن تمارى فى وجودها، ومن الآيات البينات أنك ترى الشباب ينزع إلى الاستقلال فى الرأى والحرية فى التفكير لا يتقيد بشىء غير ما يوحى به العقل السليم والمنطق المتزن، أى أنه لم يعد "يقاد" و"يلقن" و"يطبع" فى القالب الذى يراد له.

ولقد مضى ذلك العهد – عهد الفكر المقيد والرأى السقيم المحدود – وأصبح الشاب يقرأ مستقلا وصار يناقش جريئاً غير هياب.

إن آية الآيات عندما تبدو بوادر نهضة فى أمة من الأمم أن يتطلع الشباب إلى ذلك الاستقلال الفكرى تطلعاً إن لم يكن فطريا بحتاً فهو غير مصطنع على كل حال، واذكر على سبيل المثال أن لى زميلا مصريا كان يمتحن فى الفلسفة فى جامعة لندن فعندما سأله الممتحن فى مسألة من المسائل أخذ يسرد آراء الكتاب واحداً بعد الآخر فقال له الأستاذ؟ "هذا حسن ولكنك ستعيد الامتحان مرة أخرى فإذا جئتنى المرة الآتية فإنما تجىء لكى تعبر عن رأيك الخاص ولتشرح لى اعتقادك أنت لا اعتقاد آخرين".

ومما لا سبيل إلى الشك فيه أن بوادر هذا الاستقلال الفكرى توجد اليوم فى الشباب المصرى، فالشباب المصرى والشابة المصرية كلاهما قرأ فرويد وكلاهما توفر على دراسة شتى نظرياته فى العقل الباطن وتفسير الأحلام والتحليل النفسى والغريزة الجنسية

لم يقرأه فى الجامعة ولكن فيما يقرآن خارج البرنامج وفيما يقرآن ليوسعا دائرة المدارك التى تأبى فى يومنا هذا أن تظل محصورة ضمن نطاق ضيق صغير.

نستطيع إذن أن نقرر أن أغلب الشباب المصرى فهم فرويد، منهم من قرأه فى لغته ومنهم من قرأه مترجمًا، ومنهم من قرأ ما كتب عنه وعن آرائه ومنهم من قرأه كما هو صرفًا ومنهم من قرأه مخففًا أو مقتضبًا، ولكن منهم من لم يقرأ فرويد وإنما قرأ عن المسألة الجنسية فى روايات جويس ولورنس وكاركو وأشياعهم.

ومنهم من لم يقرأ هذا ولا ذاك وإنما قرأ فرويد "معقمًا" أى قد انتزع منه ما لا يجيز قبوله العرف والتقاليد، سواء أكان هذا أم ذاك ففى وسعنا أن نقول إن المسألة الجنسية قد كشفت عما تحمله فى أطوائها من الأسرار لعدد غير يسير من الشباب المصرى المثقف.

وبمعنى أصح نقول إنها كشفت أكثر أسرارها بمقدار ما يمكن أن يباح فى مصر من هذه الأسرار. ولكن هل القراءة كل شىء؟

كلا: إذ يأتى أولا تلك القراءة فى نفس القارئ ومقدار هضمه إياها ثم كيفية تطبيقها ثم مبلغ إذاعته لها ثم مختلف العوائق التى تعترضه كلما حاول تطبيقها أو إذاعتها، وتختلف تلك العوائق اختلافًا كبيرًا فهناك الأب المتحضر الذى يجيز لولده شيئًا ولا يجيز آخر، وهناك الأب المحافظ الذى لا يسمح حتى بالهمس، وهناك الجمهور الذى يشترى تلك الأسرار خفية ويتهالك عليها قذرة مشوهة وتأبى تقاليده الموروثة أن يقبلها علانية مستندة إلى أساس علمى صحيح.

وقد يسألنا سائل: هل فرويد هو كل المسألة الجنسية، وهل فرويد هو الوحيد الذى يقرأ فى هاته المسألة؟ وثمة سؤال آخر: هل نظريات فرويد مقصورة على المسائل الجنسية؟.. ونجيب عن هذين السؤالين بكلمة واحدة هى: كلا.. فالمسألة الجنسية، وبعبارة أدق العلاقة بين الذكر والأنثى، قد شغلت أذهان البشر من يوم أن وجد الذكر والأنثى والنظر إليها أمر اعتبارى ولا شك فهو يختلف باختلاف البلاد والعصور،

فالشيء الذى اصطلح عليه المصريون قد لا يصطلح عليه الفرنسيون أو الهنود وقد يباح فى زمن ومكان ما لا يباح فى مكان وزمن آخرين.

فالشاب مثلا يرى الشابة فى الصيف وهى تسير على شاطئ البحر تكاد تكون عارية فلا ينكر منها ذلك وقد ينكره منها إذا ما رآها فى شرفة منزلها أو نافذتها فى منامتها كاشفة ذراعيها ونحرها.

ولم يصنع فرويد أكثر من أنه تولى الحياة الجنسية بالتذليل والتحليل على أسس قوامها العلمى الصحيح، فلقد بين تطور الحاسة الجنسية من عهد الطفولة إلى عهد الرجولة، غير أنه توصل إلى رد كل تفاعل الفرد مع غيره ومع البيئة إلى هذه الحاسة وحدها وبالغ فى ذلك مبالغة قد لا نستطيع لها قبولا. ومن شاء أن يستزيد من ذلك فما عليه إلا أن يقرا كتابه "السيكوباتولوجيا" (علم الأمراض النفسية) فى الحياة العامة.

ففضل فرويد والحالة هذه راجع إلى أنه وفق على صهر العاطفة الجنسية فى بوتقة التذليل.. قسم العقل إلى طبقتين عليا وسفلى، العليا تدخلها الشمس والثانية يدخلها بصيص من النور وهى شديدة الشبه بمخزن مكدس بأشياء كثيرة إذا قلبتها وجدت "الغرائز" و"التقاليد" و"الخصائص الموروثة" والميول والانعطافات والإشعاعات النفسية و"النزعات الجنسية" ومن بين هذه الأكداس تنبت شجرة هى شجرة "الذات".

تحاول هذه الشجرة أن ترتفع وتترك هذه العوائق فتهتدى إلى منفذ لها فى السقف تصل منه إلى الطبقة العليا حيث تجد ما هى فى حاجة إليه من شمس ونور، بيد أن النمو غير سهل والارتفاع تعوقه أشياء كثيرة ومرجع ذلك إلى تلك المخلفات وإلى "الرقيب" الذى ينمو مع الشجرة "والرقيب الأعلى" الذى ينمو ليحاسب الرقيب الأول.

كل هذه العوائق وكل هؤلاء الرقباء لا تملك لنفسها بإزائه حرية ولا خلاصاً، وبمقدار ما تلاقى منه وعلى كيفية تفاعلها مع تلك القيود يتوقف بناء شخصيتها، وعلى هذه الشخصية أن تتفاعل مع العالم الخارجى. هذا العالم الذى نطلق عليه اسم البيئة وفى يقيننا أن مشكلة الشباب المصرى إن هى فى واقع الأمر إلا ذلك "الكبت" الذى يلاقيه وتفاعل شخصيته مع البيئة التى درج فيها.

والذى يجب أن نعرفه أولا وقبل كل شىء هو أن هذا الكبت صراع داخلى، أعنى أنه نضال قوى بين تلك القوى المتباينة التى تبيح هذا ولا تبيح ذاك، فهذا الشاب المصرى مثلا يرى تلك الفتاة الحسناء فيثور النضال وتنشب المعركة، ذلك بأن حاسة الجنس تقول له فى وسعك أن توجه رغبتك إلى هذه المرأة، أما الرقيب فيقول له اتئد وتقول البيئة حذار!

نحن فى مصر نتخبط فى دياجير مظلمة لا تخلو من القسوة والتعسف، فها هو ذا شاب متعلم موفور الصحة موفور مطالب الشباب وها هى ذى شابة على جانب عظيم من الفتنة والسحر انصرفت بعد تلقى دروسها إلى منزلها تذهب توا دون أن يتجاوز ارتباطها بهذا الشاب بضع كلمات عابرة، أما هو فعندما يجلس لاستذكار دروسه يلوح خيالها لناظريه وهى بدورها تحت قناع حيائها وتحت سياط الحاسة المسيطرة على الدنيا بأسرها تفكر فى "نصفها الثانى" فيكون ميل الاثنين إلى كبت شنيع وحرمان يزلزل الأعصاب فيستحيل كيان كل منهما إلى مجموعة الأعصاب المحمومة التى تئن تحت نير الكتمان المحتوم.

مشكلة من أعضل مشاكل القرن العشرين هاته التى تحدثنا عنها، مشكلة عصرية فى بلد شرقى غارق إلى عنقه فى تقاليده ولا حل لها فيما نرى إلا خطوة جريئة إلى الأمام، فإن كان ذلك متعذراً فإلى الوراء.. ذلك بأن البقاء فى الحال التى نحن عليها الآن لا يتفق فى شىء مع الاتجاهات العالمية الحديثة.

درس نفسية العامل
هو المعين الأكبر لزيادة الإنتاج

عندما شرعت في إلقاء محاضرة عن هذا الموضوع في كلية التجارة منذ سنتين علمت أن الطلبة والأساتذة دهشوا لأن طبيبًا يريد أن يحاضر في كلية التجارة عن علم النفس في موضوع صناعي. قال بعضهم إن هذه مفارقات لا تحتمل! ولذلك عندما بدأت المحاضرة إذ ذاك قلت للمستمعين: إن الذي لفت الأنظار لعلم النفس في الصناعة هو أمر طبي، أجل أمر طبي بحثه الأطباء ثم تشعب فأسلموه لغيرهم وإن ظل إلى اليوم أمره ومرجعه للأطباء وقد اعتمدت في بحثي على الأطباء قبل غيرهم، وعندما كنت في لندن في سنة ١٩٣٤ حضرت مؤتمراً عالميا كبيراً واشتركت في مناقشات طويلة تدور حول هذا الموضوع وكان لي الحظ أن أتعرف إلى أقطاب الأطباء والعلماء الذين خلقوا هذا العلم خلقاً وجعلوا منه فنا منظماً وأقاموا له معهداً كبيراً، ولست أنسى ما حييت الأستاذ مايرز بلحيته البيضاء الطويلة ووجهه الوقور وهو يدير جلساتنا بحيوية الشباب، ولمناسبة هذه المؤتمرات "الصناعية" أذكر أنني اشتركت في مؤتمر منها عقد بمصر فأعددت حديثاً عن علم النفس الصناعي ولكني حين ألقيته لم أجد النفوس مستعدة – مع الأسف – لقبول أي فكرة عنه فانتظرت حتى ألقيت الحديث في كلية التجارة فأحدثت أحسن الأثر.

عندما قامت الحرب الكبرى انضم إلى كل جيش بطبيعة الأمر وحدات صناعية وميكانيكية وغيرها، أي قوات غير محاربة، وكان المفهوم في معاملة هذه القوات أن المعاملة حسابية آلية أي أن "اثنين زائد اثنين تساوي أربعة" وكذلك أن الوحدة التي

تنتج فى الساعة ٤ مقادير مثلا، وكذلك فى خمس ساعات عشرين مقداراً اتضح أن هذا حساب خاطئ من أساسه ثم اتضح أن الإنسان إنسان لا آلة اتضح أنه يجب أن يحسب حساب التعب، وأخذ العلماء والمفكرون يحسبون حساب العوامل التى تسيطر على هذا الإنسان فى أثناء العمل لا وراء الجيش فقط بل فى المعمل والمصنع.

وانتقلت المسألة من التفكير فى وحدات الجيش إلى التفكير فى إنهاض الصناعة بدرس الإنسان العامل والعوامل التى تؤدى إلى إنهاك قواه وقلة إنتاجه.

ثم أخذ التفكير فى هذا الإنسان يمتد ويتشعب، فما دمنا نرى أنه ليس بآلة فهو إذن له مواهب وله كفايات وله ذكاء فطرى ومكتسب وله اتجاهات ويمكن استغلالها بعد درسها ثم توجيهها إلى حيث تصلح وتحدث أحسن النتائج.

فصار علم النفس الصناعى مقسماً إلى الأبواب الآتية وكل منها كما يرى القارئ باب ضخم جدير بأن يكتب عنه كتاب وافر الصفحات:

(١) أسباب التعب فكرية وجسدية.

(٢) كيف يمكن اتقاء تلك الأسباب.

(٣) درس نفسية العامل فى المصنع أو المعمل وكيف يمكن للرئيس والمرءوس أن يتلاءما بحيث يسير العمل على خير نظام.

(٤) درس حالة المعمل أو المصنع الصحية حيث اتضح بلا جدال أن مسائل التهوية والإضاءة والحرارة والرطوبة تؤثر تأثيراً بالغاً فى قوة العامل ونفسيته.

(٥) كيفية اختيار المهن.

(٦) اختبارات الذكاء ولها علاقة كبيرة باختيار المهنة.

(٧) استغلال علم النفس فى الصناعة لدرس وسائل الإعلان.

وقبل أن أسترسل فى التكلم عن علم النفس الصناعى أريد أن الفت النظر إلى مكان علم النفس اليوم فهو قد تغلغل فى كل شيء، فللأدب سيكولوجية وللفن سيكولوجية وللسياسة سيكولوجية وللسينما سيكولوجية وللشارع سيكولوجية، وقد قرأت أخيراً كتاباً ضخماً بالألمانية عن سيكولوجية الآلات وهذا أغرب كتاب قرأته إلى اليوم.

وأمامى الآن كتاب من الإنجليزية اشترك فى وضعه أطباء من الإنجليز اسمه السيكولوجية والحياة، خلاصته أنه لكى نلم بأى شىء فى الحياة يجب أن نلم بعلم النفس الخاص به، ومن أراد الاستزادة فلديه كتاب السير جون آدمز "السيكولوجية والحياة اليومية".

وما دام علم النفس الصناعى هدفه اليوم إنهاض الصناعة والصناعة تقوم على أكتاف العامل فلنبدأ بهذا.

لكى يقوم العامل بعمله على أحسن وجه يجب أن تتوافر فيه الشروط الآتية:

(١) يجب أن تكون العوامل المسيطرة عليه مشجعة له على حسن القيام بما ينتظر منه.

(٢) أن تكون العوامل الصحية مشجعة له ومعينة على الوصول إلى أحسن النتائج بأيسر الجهود.

(٣) أن يكون العامل مهيأ لما أعد له.

العوامل النفسية

لابد لمن يشيد مصنعًا أو معملا يحشد فيه صناعًا أو عمالا أن يلم بحقيقتين بغيرهما لا يستطيع أن يضمن نجاح أعماله مطلقاً.

الحقيقة الأولى أن هؤلاء الصناع تسيطر عليهم غرائز أولية، غرائز سيطرت على الأجيال حينما يجتمع الناس ويحتشدون، ويؤكد جوستاف لوبون أن هذه الحقيقة تسرى على البرلمان المثقف المتحضر فى أرقى الأمم.

والحقيقة الثانية مشتقة من الأولى وهى أن سيكولوجية الفرد غير سيكولوجية الجماعة، فالواحد قد يقرر أمراً بينه وبين نفسه ويمضى إلى غرضه غير متردد وأما الجماعة فيقررون "منومين" يمشى الرأى بينهم "بالإيحاء" ويسرى سريان "العدوى" ولقد يخرج الواحد منهم بعد أن أقر رأى الجماعة فيخلو إلى نفسه فيلومها ولات حين ملام!

إذن ما هى الغرائز الأولية التى تسيطر على العمال؟ هى هذه:

(أ) حب الملك أو الحيازة إذا جلس العامل إلى آلة وألفها يحسبها على الزمن ملكاً له فإذا أخذت منه وأعطيت لغيره أو إذا انتقل منها لغيرها آلمه ذلك وحز فى نفسه ويتفرع من ذلك أن العمل الذى ينجزه العامل - أى ذلك "المخلوق" الذى "يتكون" وينمو على يديه يعده فى نفسه ملكاً له ويفخر به ويدافع عنه والواقع أن كل غريزة تتفرع من الأخرى وليس بين هذه وتلك حدود ثابتة، فحب الملك يؤدى إلى الخلق والخلق يؤدى إلى "إثبات الذات" وهكذا، فالواقع أن العامل يحب أن يتبين مجهوده وسط المجهود العام، ولعل عصر الآلات قد محا كثيراً من ذلك الأثر وعلى ذلك كان سبباً فى الملال الذى يعترى العامل اليوم.

(ب) حب السلطة والظهور ويمكن استغلال ذلك فى التنافس وإذا تطرفت هاته الغريزة دفعت إلى الأمام.

(حـ) غريزة التحدى أو المقاتلة، وقد تظل هذه الغريزة نائمة معقدة مركبة من مزيج من الغضب والتجنب والنفور وهذا ما نسميه بلغتنا البسيطة "الكره".

ولكنها لابد أن تنفجر ذات يوم ودون أن نفهم لها سبباً إلا إذا حللنا نفسية العامل ودرسنا علاقته برئيسه، فإننا لا شك نجد ماضياً حافلا وهذا الانفجار نتيجة لما تجمع من غرائز مكبوتة مغلوبة مشوهة، وعلى ذكر الرئيس والمرءوس يجب أن يطمئن العامل إلى مستقبله فإن الشعور بالأمان أساس عمله ويجب أن يشعر بما يسميه ماكدوجال "روح الجماعة" وما روح الجماعة إلا وسيلة الفرد لإثبات الذات فى الداخل والخارج.

العوامل الصحية

سوء العوامل الصحية يؤدى إلى التعب وإليك أنواع التعب:

(أ) عقلى أو نفسى أو عصبى وهى متقاربة وقد تكلمنا عنها عند التكلم على نفسية العامل.

(ب) جسدى وهو نوعان: لازم ولا يمكن تداركه لأنه مصاحب لكل عمل، وغير لازم وممكن تداركه وتوفيره ومثاله أن يقتضى العمل حركات لا لزوم لها أو يكون النور ضئيلا فيؤثر فى العينين وهذان بدورهما يؤثران فى الجسم على العموم أو تكون الآلات موضوعة فى مكان بعيد فيقتضى ذلك أن يقوم العامل بين حين وآخر لإحضارها وهكذا، ومن أسبابه أيضاً سوء التهوية وسوء ترتيب العمل، وقد أمكن بطريقة حديثة أن يرسم رسم بيانى يسجل مجهود العامل فى أثناء النهار من مقدار إنتاجه وكيفية ذلك، ويمكن من نظرة واحدة إلى الرسم الموضوع أمام كل عامل أن يعرف هل يؤدى عمله على أحسن حال أم لا، وكذلك أمكن بطريقة حديثة أن تسجل حركات العامل بالفوتوغرافيا لكى يعرف هل يقوم بحركات لا لزوم لها فيضيع كثيراً من وقته وقوته أم لا؟

ولقد اتضح بلا جدال أن كثرة ساعات العمل لا تؤدى إلى كثرة الإنتاج واتضح أيضًا أن فترات الراحة تزيد فى الإنتاج وكذلك وسائل التسلية والترويح عن النفس.

اختيار المهن

"كل ميسر لما خلق له" هذا قول صحيح غاية الصحة وما أعظمها من فوضى تلك التى تعطى قيادة القطار لرجل جبان رعديد وتعطى مهنة المحاماة لعى وتعطى مهنة الطب لغليظ القلب وتعطى العمل اليدوى الذى يحتاج لأقصى المهارة إلى رجل مرتجف الأنامل!

لقد صار اليوم لكل شركة مكتب خاص ملحق بها يمتحن المتقدمين ويختبر صلاحيتهم لما هم قادمون بشأنه، وكل مهنة لها اختبارات خاصة بها وكل فرع من فروع هاته المهنة له اختبارات خاصة به وقد بلغت هاته الاختبارات درجة عجيبة من الدقة فإنهم فى هايبورج مثلا يختبرون سائق القطار لا فى القطار بل أمام آلة تمثل كل ما يجب أن يتوافر فى السائق من حدة البصر وسرعة البديهة وقوة الخاطر.

يبدأ الامتحان قبل أن يكون فى المهنة الخاصة اختباراً للذكاء.

وموضوع الذكاء موضوع ضخم جدا ومن يريد أن يقرأ عنه فعليه بمؤلفات "تين" و"هكسلى" و"ينج".

وإنما يكفى أن نوجز هنا فنقول: إن الذكاء إما فطرى أو مكتسب، أما الفطرى فهو هبة من الله ولا يزيد بالتعليم ولا ينقص وهو شبيه بالعمق وسماه بعضهم الذكاء العمودى ويمكن اكتشافه باختبارات خاصة قبل البلوغ ومرجع هذه الاختبارات بينية ولها كتب خاصة بها ويجرونها اليوم فى معهد التربية بمصر، وللذكاء "معمل" خاص أى وحدة خاصة كوحدة الحرارة والنور "Coefficient" وأما الذكاء المكتسب فهو أفقى سطحى اجتماعى نتيجة للتعليم والتجارب والبيئة وعوامل مشابهة لها ولا يمكن أن يقارب الذكاء الفطرى ولا أن يحل محله..

ويمكن اكتشاف الذكاء النظرى فى سن باكر، وتوضع له درجات وعلى حسب هذه الدرجات يوجه الأشخاص للمهن وعندما تتعين المهنــة تجرى الاختبارات الخاصة بها أو بفرعهــا.

هذا هو ما يهم القارئ الكريم أن يعرفه بشـأن علم النفس فى الصناعة وأما علم النفس فى الإعلانات فيحتاج إلى مقال خاص بل لقد صار فنا قائماً بذاته.

وحبذا لو التفتت حكومتنا وأرباب المصانع والمتاجر والمعامل عندنا إلى "علم النفس الصناعى" فإنهم سيجدون فيه المعين الأكبر فى مضاعفة إنتاجهم.

الطبيعة تداوى نفسها

تعريف الطبيعة فى رأى الفيلسوف سبينوزا هو أنها مجموعة القوانين الأزلية التى تتغلغل فى صميم الأشياء وهى لب لبابها الذى لا يتغير وأما المظهر فيختلف، وهذه القوانين إما طبيعية أو كيماوية فإشعا ع الذرة وطاقتها وكهرباؤها قوانين طبيعية صارمة والتفاعل الكيماوى بين العناصر الداخلة فى بنائها كهيدروجينها وكربونها من القوانين الكيماوية الأزلية.

هذه القوانين تسيطر على الحى كما تسيطر على الجماد وهى فى الواقع "روح" الوجود، فإذا سميتها "الطبيعة" فقد أصبت التسمية ولكل "روح" أو "جوهر" مظهر يختلف عن غيره فإذا أضفت إلى تلك "الروح" صنوف تلك المظاهر من نبات وجماد وحيوان فسميت كل هذا "الطبيعة" – تجاوزًا – فأنت غير مخطئ ما دمت تدرك أن روح الوجود هى هذه القوانين الضرورية **Laws of necessity**.

ومن هذه القوانين التوالد والنمو والفناء.

ومن عجائب الطبيعة الخارقة أن يكون بين قوانينها الأزلية قوى متعارضة يناقض كل منها الآخر تمام المناقضة، فالميلاد والنمو آيتا الحياة فانظر إلى الطبيعة كيف تداوى الحياة بالموت وتداوى الموت بالحياة! إن المعجزة ليست فى الخلق وإنما فى أن ضمان استمرار الخلق والحياة على الأرض يكون بقانون أزلى هو الموت! ففضلا عن أن ذلك "الحاصد" يترك الميدان خاليا لزرع جديد وفضلا عن أن الموت يقى العالم من التكاثر المطلق والازدحام فكل عظمة الحياة قامت على خيال الموت وتوقعه، فالقطار والطيارة والباخرة وغيرها من وسائل السرعة إنما اخترعت لأن العمر قصير والكفاح من أجل الخبز

– وذلك آية الحياة – قائم على أننا من غير الخبز نموت! وهكذا يمكنك أن تفكر فى الملبس الذى يقيك البرد والمنزل الذى تهرب إليه وتأمن فى ظلاله، ألست تخاف البرد لأنه يؤدى إلى الموت وأنت بغير المنزل معرض لأية كارثة تؤدى إلى الموت ثم ما الحب والزواج؟

اثنان يجتمعان ابتغاء النسل

ولماذا يكون لهما أولاد؟!

لأنهما ذاهبان وهما يريدان أن يتركا أثراً يبقى على الدنيا بعدهما!

إذن فخيال الموت مائل حتى فى هذا! فالطبيعة تداوى الأشياء بضدها ومسألة الحياة والموت إنما هى صفحة من كتاب متشابه الفصول!

فإن الطبيعة كذلك تداوى الخير بالشر والشر بالخير، وقد قرأت فى هذا الباب فصلا ممتعاً جدا فى رواية "النار التى لا تموت" من قلم الكاتب هـ. ج. ولز جعله مقدمة لهاته القصة وافتتحه بحوار بين الله والشيطان.

الله – أنا خلقت الإنسان وجعلت الخير فى صميم طباعه والفضيلة أول عناصره

الشيطان – أنا جملت الفضيلة وجلوتها بأن جعلت لها ضدا أنا جعلت للحياة مذاقاً إذ لو استمرت خيراً كلها لكانت مملة مسئمة!

ومداواة الأمور بضدها "Point counter point" وهو العنوان الذى اتخذه الكاتب هكسلى الشهير عنواناً لقصته الخالدة شىء نعرفه نحن الأطباء جد المعرفة وعليه قام بناء الجسم الإنسانى.

ومن فكر فى ذلك وفهمه أدرك حقيقة "كيف تداوى الطبيعة نفسها"، وإليك شيئاً من التفصيل:

كل عضلة تقبض أمامها عضلة تنبسط

كل عصب يؤدى إلى الإسراع أمامه عصب يؤدى إلى الإبطاء، فمن أهم أعصاب الجسم اثنان يختلفان تمامًا: العصب الحائر والعصب السمبتاوى فإذا تنبه العصب الحائر أبطأ النبض وإذا تنبه السمبتاوى أسرع النبض وجرت كثير من عمليات المعدة والأمعاء فى اضطراب وقلق ثم خذ "الهرمونات" أو إفرازات الغدد اللاقنوية.

هى مجموعة متضاربة متناقضة وقد شبهها السير لا نجدون براون بسفينة ذات مجاذيف، كل مجموعة منها تسير فى اتجاه مختلف ولكن النتيجة أن المركب تسير إلى غايتها، وما هو الأنسولين! هو: هرمون طبيعي يشعل "الفتيل" فى السكر فيحترق وضده الأدرنالين وإفراز الغدة النخامية، ولولا خوف الإطالة لفصلنا هذا الأمر تفصيلا أكثر ولكننا ننتقل لنرى أعجوبة الأعاجيب وهى الدم الإنسانى الذى قال عنه جيته: "إنه مخلوق عجيب كامل"! فالذى يعرف فسيولوجية الدم يؤمن إيمانًا تاما بأن الطبيعة تداوى نفسها فقد جعلت لكل سم ترياقًا وأعدت لكل عدو يطارد الجسم من يقف له ويصده وجيشت الجيوش "البيضاء" والأعلام "الحمراء" وأحاطت كل هذه بأسوار من "المناعة" التى يقف بجانبها خط "ماجينو" وقد عراه الخجل! وإنك لو استعرضت كيفية هاته "المناعة" لهالك ما أعدته الطبيعة من وسائل المحاربة، ففى الدم "المنيع" "مضادات" و"مرسبات" وغيرها وغيرها فإذا تقدم الخصم انبرى له الذى يصده والذى "يلجمه" والذى "يكتفه" وهكذا من آيات التفنن المعجز الذى يحير العقول وتكون هذه "المناعة" على أتمها فى أول العمر.

ولذا قال أوزلر الطبيب العالم المشهور وهو قول رائع: "لا تيأس من طفل مريض" لأن المناعة فى الطفل تكون فى أوجها وأما فى الشيوخ فتكون المناعة قلت والأسوار تهدمت.

إن مشاهير الأطباء لا يسرفون فى وصف الدواء فأعلمهم هو أعلمهم بما تصنع الطبيعة وهو فى علاجه إنما يساعدها ويستعين على ذلك بما أعدته الطبيعة فى خارج الجسم من الوسائل الطبيعية كالشمس والهواء والنور.

وعندما تعجز الطبيعة فهذا فى الواقع ليس بعجز وإنما هى تنتصر لأنها تنفذ قانونًا حتمته على الأحياء وهو الفناء!

أمراض تدفع أصحابها إلى المجد

الأمراض إما جسمية أو نفسية، أما الجسمية فقسمان "عضوية" و"غير عضوية" أى تغير باثولوجى أو تغير وظيفى، أى إصابة حقيقية فى أنسجة العضو أو اضطراب فيما يؤديه من الأعمال، والحد بين هذا وذاك غير فاصل والواحد منهما يؤدى إلى الآخر، ومن الأمراض ما نولد باستعداد له ومنها ما نرثه ومنها ما "نستهدف له" ومنها ما نتعرض له بسبب مهننا أو معايشنا ومنها ما لا نستطيع أن نتقيه فهو معنا يلازمنا ملازمة القدر وإن كنا نداوره ونحتاط له، مثال ذلك أننا نرث المرض التناسلى والاستعداد للسل والسرطان والنقرس والسكر ونستهدف للربو والإكزيما ونتعرض بسبب معايشنا إلى الروماتيزم إذا اضطررنا إلى العمل فى الأمكنة الرطبة أو إلى الدوسنطاريا إذا اضطررنا بسبب الترحال والأسفار إلى شرب الماء العكر أو الزاد الذى لا نعرف من أين جاء ونتعرض لما لا مناص منه كالبرد والزكام والسعال عند نزول الشتاء.

وبعض الأمراض يكون بطبيعته "دافعًا" لوجهة خاصة ومعينًا وهدفًا بذاته، وبعض الأمراض يؤدى إلى الغاية بدافع اليأس أو الاضطرار وبعض الأمراض يؤدى إليها إذ لا طريق لغير هذه الغاية إلا بارتياد هذا السبيل.

مثل ذلك أن السل بطبيعته وطبيعة ميكروبه منشط للأعصاب والحيوية يحدث صفاء فى الذهن وإشراقًا فى السريرة هذا شأن المرض الدافع بطبيعته.

ومن الأمثلة الأدبية المشهورة أن بروست كان مريضًا بالربو فكان يحبس نفسه فى غرفته ولا يخرج إلا نادرًا ويقضى الوقت فى الكتابة والتأليف، وإن الكاتب الشهير ولوز مرض بنزيف رئوى فى أول شبابه فغير ذلك مجرى حياته تمامًا وأخذ يزاول الأدب والكتابة فنبغ وتفوق تفوقًا كبيرا، والشاعر هينه أصيب بشلل أقعده وهو فى الشباب فصار يكتب ويملى ويحرر صحيفة من سريره!

ومالى أذهب بعيدًا فإن أبا العلاء المعرى لو كان مبصرًا لما كان له فى الشعر العربى ضريب ولا منافس ولكن فقدان البصر جعل منه ذلك الفيلسوف المتأمل الذى كان يقضى الساعات فى التفكير والتحليل لأنه لم يكن يملك غير ذلك.

من الأمثلة المشهورة كذلك ما يعرفه المتأدبون عن الشاعر بيون فقد ولد أعرج وكان عرجه موضع سخرية أمه وأصحابه فظل يمارس الرياضة حتى نبغ فى السباحة وغيرها وكان الشعر عنده نتيجة هذا الشعور بالنقص وتكملة لما أحسه منه.

ولقد أخبرنى صديق من أطباء لندن أن من مريضاته فتاة أصيبت بخلع فى عظام الحوض وصارت بعد شفائها موضع كلام وغمز فلجأت الفتاة إلى الرقص تحترفه انتقاماً حتى صارت راقصة شهيرة.

الأمراض النفسية

هذا كله يختص بأمراض الجسم وقد رأينا كيف يدفع بعضها بأصحابها إلى المجد ولكن الشأن الأكبر هو لأمراض النفس.

وأمراض النفس تتوقف على:

(١) الاستعداد الذى نرثه، أى بنيتنا وتركيب جسمنا والميل المتأصل المتسلل فى الجنس عامة وفى الجدود والآباء.

(٢) التربية التى نتلقاها فى صبانا.

(٣) البيئة التى ننشأ فيها.

(٤) أثر التعليم والقدوة - فى المدرسة والحياة.

قبل أن نفصل تأثير هذه الأمور فى التوجيه نتكلم عن بعض الحقائق الهامة الخاصة بالنوع البشرى على الإطلاق ومن هاته الحقائق ما هو جديد جدا فى علم النفس وهو لجدته مخيف بقدر ما هو حقيقى ولكنه أساس لهاته "الدوافع" التى تزج بالناس زجا فى طريق تؤدى بأصحابها إلى ما قد يسميه العالم "مجداً" إذا شاء.. إذا اتفقنا على أن من المجد ما صنعه "تيمورلنك" وهو يكتسح البلاد كالسيل فاتحًا غازيًا مدمرًا هادمًا ذابحًا.

كيف ينشأ الدافع إلى المجد ؟

إذا اتفقنا على هذا فلنبحث الآن كيف ينشأ هذا "الدافع" إلى المجد!.

العقل مكون من طبقتين العليا هي مركز التفكير والإرادة وهي مشرقة عالية تغمرها الشمس.. والسفلى تكون أغلب البناء لا تنفذ إليها الشمس إلا ببصيص مبهم، وفي هذه الطبقة نرى "أثاث" "العنصر" الإنساني مكدساً فماذا نرى؟ نرى "اللبيد" أو مركز الشهوة ونرى حوله الغرائز المشتركة في الناس عامة، ومن العجيب أن علماء النفس كانوا منذ قليل يعطون الأهمية "للبيد" ويقولون إنه كل شيء في حياة الفرد، فإذا بهم يتبينون أن بقرب هذا "اللبيد" وملاصق له مركز الكره ويتركز فيه الميل إلى الاعتداء والإجرام.

واتضح أنه بقدر ما يهز "اللبيد" النفس هزا بطفولته وحمقه ومطالبه السخيفة وبقدر ما هو محتاج للنصيحة والتهذيب والضغط بقدر ما لمركز الكره من أثر بالغ في هز النفس الإنسانية، حتى لقد يزداد حتى يمزقها إلى عدة "نفوس" متفرقة مبعثرة! انظر إلى الطفل فهو دائمًا يريد أن يضرب ويختطف ويعتدي! وقد نعده شرا ونعجب لطفل نراه هادئًا إذ نراه يثور ويختطف ما ليس له ويضرب أخاه أو أخته بغير مناسبة وهذا ما تحدثه غريزة الكره الملاصقة لمركز الحب! وكثير جدا من المخاوف والضمائر المعذبة والنفوس المكفهرة في الكبر ناشئة من هذا المركز العجيب وتأثيره في الصغر!.

نبدأ الآن بمركز الحب.. إن للحب في النفس البشرية تطوراً وخطا مرسوماً فإذا التوى أو صدم أو توقف أدى إلى تلك "الدوافع" الإنسانية.

خط السير للحب هو هذا: حب النفس أولا ثم حب الأم أو الأب ثم حب الناس ثم حب الجنس المشابه، ثم حب الجنس المخالف.

فمن يقف عند حب النفس أو يحرم من حب الأم والأب وعطف الناس من ذكر أو أنثى – وهذا كثير شائع – يشعر "بفجوة" أو "بنقص" كما يسميه علماء النفس يستعين

به على رد ما حذف منه فى خط سير الحياة، فإذا انصرف إلى نفسه انصراف المهذب المثقف لا يلبث بها إلى المجد، ولعل كثيرين من الديكتاتوريين نشأوا فى صباهم هذه النشأة بلا عطف أب ولا حنان أم ولا رعاية من العالم!

وإذا حذف من خط الحياة جزؤها الثانى - حب الناس - قد ينقطع الرجل إلى تأملاته وحيداً كما انقطع شوبنهور فيثب إلى المجد ولو فى آخر أيامه، وإذا صدم الرجل فى الجزء الأخير من حياته مثلا أى لم يجد أليفًا من الجنس المخالف يحنو عليه أو وجهًا فاختُطف منه فماذا يصنع؟ يتغير مجرى الحياة تمامًا وقد يصير شاعراً خالداً كدى موسيه فى لياليه باكيًا على جورج ساند، أو موسيقيا مبرزًا كشوبان! من يدرى ربما كانت أغلب الفنون الرائعة من أثر هاته الصدمات، من يدرى كيف كتب توماس هاردى "كلمات الشتاء" و"سخرية الحياة" ومن يدرى هل كان كتيس يكتب لو لم تكن هناك "فانى". الواقع أن هذه "الدموع" "فى الأشياء" هذا الخط أو الحظ الذى يبتر ويقتطع قبل نهايته هو السبب فى "تغطية" نقص يشعر به المضيع الفاقد فيسير به إلى المجد وقد يدفعه دفعًا.

ولقد يسأل القارئ وما شأن حب الجنس المشابه؟

نجيب أن هذه فترة المدرسة وهى عابرة فإذا دامت ولم تمش إلى المرحلة الأخيرة أدت إلى الشذوذ الجنسى الذى نسمع به كثيراً، ومن العجيب أن هذا الشذوذ قد يؤدى إلى النبوغ فى نواح كثيرة فأمر أبى نواس معروف وحكاية أوسكار ويلد أشهر من أن تذكر.

نتكلم الآن عن غريزة الكره.

إن النفس البشرية عبارة عن أمواج لا تهدأ، ففى لحظة واحدة للحب مطالب وللكره مطالب، وهناك فى النفس رقباء يتدخلون وينصحون ويجتهدون أن يجعلوا ما فى داخل النفس ملائمًا مع ما هو خارجها! وهذا هو ما صنعته الإنسانية وما تزال تصنعه وهذا هو معنى المدنية: كبح النزعات الغشيمة المستقرة فى أعماق الباطن وجعلها متلائمة مع

ما اصطلح عليه العالم من تقاليد ونظم وما توارثه من قوانين صارت لها على الأجيال قداسة الأديان لا يختلف إنسان عن إنسان فى عدد هذه الغرائز وكيفيتها، وفيم الاختلاف إذن؟ يختلفون أولا فى "الاستعداد" الذى يرثونه ومعنى الاستعداد ميل خاص لتفوق غريزة وخمول أخرى، والغرائز لا تموت ولا يقتلها التهذيب أو السجن أو العقاب وإنما "تكبت" و"تلجم" أو يطلق لها العنان إذا رؤى فى ذلك صلاح للبشرية.

ويختلف الناس كذلك فيما تعودت هذه الغريزة أو تلك أن تلقاه من "الاستجابة" لمطالبها فى البيت أو المدرسة أو البيئة، فإذا اعتاد طفل مثلا أن يصفق له كلما سب أو ضرب ألف هذا الطريق ورسم له ومهد منذ الصغر، وكذلك يختلفون فى كيف "تعامل" هذه الغرائز الثائرة، فإذا ضرب طفل أو أوذى كلما أخطا قد يؤدى ذلك إلى شىء من ثلاثة: إما انطواء على النفس و"كبت" يكون له أثره السيئ فى الكبر وإما شعور بالغ "بالنقص" يحاول أن يغطيه بطريقة من الطرق قد تكون سبيلا له إلى المجد وأما يعتاد هذه الاستجابة يألف هذا التهذيب يصير من أرباب الضمائر النادمة يحب التكفير ويطلب العذاب، ومن يقرأ دستوفسكى يلاحظ فى كتبه ذكر هذه الخاصية عن الشعب الروسى، ولعل هذا ناشئ من كثرة ما أصاب هذا الشعب من الضيم والإرهاق، وإنه ليذكرها كيرا على لسان أبطاله فى "الجريمة والعقاب" ولقد يبالغ الواحد منهم فى التكفير فيكفر عن خطيئة لم يرتكبها معتقداً أنه يكفر عن الإنسانية كلها.

وهذا يفسر لنا السادزم والماشوكزم والفتيكزم، يفسر لنا اعترافات روسو ويفسر لنا مذاهب وعقائد محيرة للعقول ولكنها فى الأصل مبنية على هذا "الشعور بالعذاب"

هكذا تدفع الأمراض بأصحابها إلى المجد إذا كان المجد هو الشىء الخارق للعادة يقوم به فرد شاذ فى نشأته شاذ فيما لقى فى صباه وسار خط الحياة عنده على غير ما تقتضى الطبيعة أن يسير!.

نفسية زعماء العصر الحاضر
على ضوء مذهب فرويد

قبل أن نحلل نفسية الزعماء نستعرض مذهب فرويد وليس الكلام عن فرويد بالأمر الهين، إن الكلام عن جزء بسيط مما جاء به فرويد ليقتضى مجلدات بحالها فما بالك بالمذهب بأكمله، إنا لنخشى أن يكون الإيجاز مضيعًا لجلال الموضوع على أنا سنحاول بقدر المستطاع بسط ما ذهب إليه فرويد مستعينين بآخر المراجع الحديثة، وأمامى الآن مجلد هائل من دائرة المعارف الطبية البريطانية يكاد يكون عن فرويد، وإنى لحائر ماذا أذكر وماذا أدع، وإن الكلام عن شخصية فرويد وحدها لأمر لا غنى عنه عند التحدث عن مذهبه.

لقد صار "التحليل النفسى" دراسة مقررة على الأطباء وكل كتب الطب الحديثة تعنى بهذا الباب عناية تامة.

وأنا لا أعتقد أن الطبيب يكمل فنه بغير درس نفسية المرضى، فللروماتيزم جانب من العوامل النفسية وللربو جانب ولأمراض القلب جانب وهكذا.

ونحن فى عصر تعقدت فيه النفسيات وكثرت "مركبات" النقص وكثر "الكبت" وأخذت العوامل "الجنسية" تحتل جزءًا هاما من حياة الناس وتفكيرهم.

بل نحن فى عصر رجع الناس فيه إلى بربريتهم الأولى.. وقد قرأت أخيرًا مقالا شائقًا لجاستون راجو عن فرويد جاء فى آخره أن فرويد تقابل مع برجسون والأخير يعانى الآن آلام الشيخوخة والمرض فتحادثا عن الإنسانية ومالها فاتفقت سيكولوجية

فرويد مع فلسفة برجسون فى نقطة واحدة وهى أن الإنسانية مع الأسف لا يرجى لها صلاح كبير وأن الخير الذى يأتيها على يد أفراد قلائل هو كالجواهر التى تضاف إلى الثروة العامة ولكنها لا تغير من عنصر المجتمع ولا تصلح من أساسه المعطوب!

خلاصة نظرية فرويد:

نظرية فرويد تتلخص فى النقاط التالية:

(١) أن النفس الإنسانية مكونة من قوى "ديناميكية" وأن النضال الذى بين هذه القوى من جهة وبين العالم الخارجى من جهة أخرى هو الذى عليه المعول فى توجيه الإنسان وغاياته..

(٢) لم يكتشف فرويد "العقل الباطن" كما يظن البعض، فقد كان معروفًا من قديم، وقد أشار إليه كل فيلسوف معروف ولكن فرويد درسه وبين القوى التى تتصارع فيه.

(٣) ذكر فرويد أن أقوى القوى - غريزة "الحب" ولم يقل كما فهم أكثر الناس خطأ أنه الشهوة البهيمية بل قال الحب وكفى، ورسم خطا يسير عليه الحب وبين أنه إذا انمحت معالم ذلك الخط أو نقصت أو شوهت أو التوت تغير خط الحياة كله وهذا الخط يبدأ بحب النفس ثم يسير إلى حب الوالدين ثم إلى حب المجتمع ثم حب الرفاق ثم حب الجنس المخالف ويجب أن يكون ذلك التطور الطبيعى كاملا.

على أنى قرأت أخيرًا فى دائرة المعارف الطبية أن فرويد كان مرنًا وأنه كان مستعدا لتعديل نظريته كلما اقتضى الأمر وتبين له وجه الصواب، وآخر تعديل ذكره هو أن من أقوى الغرائز اللاصقة بالحب غريزة "الكره والتحدى" وهذا أعجب العجب وإن كان لا عجب فيه فإن الطفل يضرب ويعتدى بلا مبرر وليست التربية إلا كبحًا لذلك التحدى.

ونحن لا نجد في الغابة غير صراع وكره وتحد، وما المدنية إلا كبح لذلك الصراع وتحد لذلك التحدى.

(٤) من الأعمدة التى قامت عليها نظرية فرويد مسألة "الكبت" والكبت أمر عادى عند كل إنسان، فنحن نكبت كل حين ولا نستطيع أن ننطلق وراء كل نزوة ونتبع كل رغبة ولكن هناك استعدادات خاصة وبنيات مهيأة لكبت مرضى.

ولا يمكن للكبت أن يحدث رجة في الكيان إلا إذا كان الأمر المكبوت جسيمًا وكانت البنية مستعدة.

(٥) من الأعمدة التى قامت عليها نظرية فرويد كذلك مسألة الأحلام.

ففرويد يقول إن الحلم "رغبة" ويضيف إلى ذلك للحلم صلة وثيقة بالطفولة وأن الحلم إن دل على المستقبل فلأن له علاقة بالماضى وعلاقة بالرغبات.

وإنما المستقبل حلقة مكملة للماضى وللرغبات، والواقع أن هذا تفسير ناقص ولا يشرح بتاتًا ما يكشف عنه الحلم أحيانًا مما لا علاقة له بالماضى ولا بالرغبات! وقد فسره أينشتين أنه استيقاظ البعد الرابع الذى لا يموت فى البعد الثالث الآدمى الفانى!!..

نفسية هتلر وستالين:

هذا موجز لمذهب فرويد ولكننا نجعله مقدمة لرأينا فى نفسية الزعماء.

وإنا لنستطيع تطبيق نفسية هتلر وستالين وموسولينى وتشمبرلين على ضوء هذا المذهب بكل وضوح.

فإن هتلر رجل شاذ وقف خط الحب عنده عند حب النفس، فهو لم يظفر بحب الأب ولا الأم ولا الجنس المشابه ولا المخالف وهو كذلك جبار بنيت نفسيته على تطور غريزة "التحدى" وتغلبها على كل شىء آخر، فقد قست عليه الحياة ونبذته فهو الآن ينتقم من الحياة! وفى الوقت ذاته يبغى لنفسه المجد، أى يؤله نفسه إذ أنه لم يعرف حبا غير حبها.

أما ستالين فهو شبيه بهتلر فى تغلب غريزة المحافظة على "الذات" وهى الغريزة الماركسية الشهيرة. الغريزة الاقتصادية، فسواء طبقت فرويد أو كارل ماركس فإن هتلر وستالين شبيهان!!..

نفسية الدوتشى وتشمبرلين:

أما الدوتشى: فهو حقيقة رجل قست عليه الحياة فى مبدئها ولكنه رجل استطاع أن يوازن بين ما فى العالم الخارجى وما فى داخل نفسه فأمكنه أن يتلاءم مع الحياة ويسير بحذر..

أما تشمبرلين فهو مثال لما يسميه يونج **Extrovert** أى رجل يعمل حسب ما يرى فى الخارج من الحقائق، الرجل العملى الذى "لاينطوى" على نفسه ولا يستسلم للخيال، وإذا كان رأى الدوس هكسلى فى كتابه "دراسات حقيقية"! أن الإنسان يبدأ همجيا يعمل من باطنه وينتهى متحضراً يعمل من خارجه فإن تشمبرلين مثال الرجل المتزن المتحضر العلمى العملى الذى يؤمن بالواقع وعلى هديه يسير متئداً..!.

هل تجب الصراحة
فى المسائل الجنسية؟

"الغريزة الجنسية أقوى الغرائز على الإطلاق، بهذه القوة خلقها الله لتضمن اتصال الذكر بالأنثى وليستكمل العمران ويزدهر، ولكن العجيب فيها أنها علة العلل فإننا نظل طيلة حياتنا نضع الحواجز فى سبيل سيلها الطاغى - أو بلغة علم النفس - نظل نكبحها ونكظمها.

"ومن العجيب أيضا أن نتيجة هذا الكبح تختلف فحينًا هى مستعصية وخصوصًا فى المرأة ومن هنا نفهم سبب الهستيريا والزار وما إلى ذلك، وحينًا تحويل لتلك الغريزة إلى مجرى آخر أو ما يسمى بلغة علم النفس "التسامى" فإن دانتى أحب بياتريس مثلا وعانى فى حبها ما عانى وكانت غريزة الجنس الجبارة تعمل عملها الصامت فماذا يصنع دانتى المسكين؟ لا يجد حيلة إلا أن يكتب فيها الشعر ومن ذلك نفهم أن الشعر هو تسام بالغريزة الغاشمة الطاغية!

"فالغريزة الجنسية" كما ترى هامة بالغة الأثر فى حياتنا وحياة المجتمع فلسنا نضيع الوقت فى درسها عبثًا و"فرويد" الذى قضى حياته يستقصى ويدقق فى هذا البحث ألقى نوراً جديداً على ناحية ظلت غامضة أحقاباً طويلة وفتح فتحًا لا فى علم النفس فقط بل فى الأدب أيضًا، فمثلا فى الأدب الإنجليزى نرى الرواية فى العصر الفيكتورى يطبعها طابع الحياء والخوف فإذا جاء ذكر الحب كما فى روايات "دكنز" مثلا وجدنا المؤلف يخشى أن يزيد الموقف عن النظر والكلام والشكوى حتى جاء "هادى" و"مرديث" فتميز أدبهما بالجرأة فى المسألة الجنسية واستهدف هاردى فى بعض

رواياته لنقد مرير لأنه طرق هذا الموضوع على غير ما يألف الناس، وأول من رفع علم الصراحة الجنسية فى الأدب الأوروبى هو جيته ولذلك أكرم ذكراه القرن العشرين وبالغ فى إكرامه!.

على أن النقطة الهامة هى هذه: هل نحن فى جيلنا الحاضر فى حاجة إلى الصراحة الجنسية؟ ألسنا نلاحظ أن الفتى والفتاة أصبحا يفهمان عن المسألة الجنسية كل شىء تقريباً؟

هذا هو الواقع ولكن الذى نخشاه أنهما يفهمان أشياء كثيرة على غير حقيقتها وأغلب الظن أنهما تلقناها عن الجهال أو من الكتب المتداولة التجارية التى لا تطرق من الموضوع إلا ما تجده مروجاً للكتاب أو مستحثا رغبة القارئ ولذته لا فائدته!.

فإذن تحددت مسألة الصراحة الجنسية وأصبحنا نقول إن الواجب علينا أن نطرق فى غير حياء ولا خجل المسائل التى نعتقد أنها يجب أن تفهم فهمًا كاملا صحيحًا فالمسألة هى:

(١) الزواج الكامل.

(٢) الأمراض التناسلية.

الزواج الكامل: العلم به يشمل تشريح الأعضاء التناسلية وهو يبين هذه الأعضاء والعلاقة بين الذكر والأنثى واستدامة الحب بينهما، وهذا يتضمن أن يعرف الذكر والأنثى كل منهما شيئاً من سيكولوجية الآخر، فإن الرجل مثلا لا يحسن معاشرة المرأة حتى يلم بعض الإلمام بخلقها ونفسيتها وطبيعتها إذ هى تختلف كثيراً عن نفسية الرجل وطبيعته.

وإنى لأ تساءل: هل "مارى ستوبس" والدكتور "فان هلد" فى كتاب الزواج الكامل لم يتطرفا فى الصراحة الجنسية؟ كلا المؤلفين طبيب عالم قتل بحثه تدقيقاً وفهمًا، ولكن الواقع أننا فى مصر لسنا مستعدين لمثل هذه الصراحة الخارقة، ويكفينا بعض إرشاد يقوم به الأب والأم فى منزلهما والمدرس فى مدرسته والأطباء بواسطة المحاضرات.

الأمراض التناسلية: فى هذا الباب لاحياء ولا خجل ولا ضعف، يجب أن نطرقه طرقاً عنيفاً فإن ضحايا جهل هذه الأمراض يعدون بالألوف.

أليس من المحزن أن يصاب الرجل بالسيلان مثلا فيجهله أولا ثم يعرفه ثم يمضى إلى الطبيب فما تكاد الأعراض الحادة تزول حتى يعتقد أنه شفى فيمضى ليتزوج ويدخل على عروسه الناضرة نضارة الورد، فيلقحها بالميكروب الملعون فتقضى حياتها شهيدة هذا الداء!!.

"وقل مثل هذا فى الزهرى الشنيع!.."

فلنكن جريئين إذن ويجب أن نقف معلمين للشعب ذاكرين له مدى هذه الأمراض وشناعتها وتأثيرها فى الصحة العامة وفى النسل.

"لنكن جريئين فقد أخرنا الحياء الكاذب والجبن والنفاق الجنسى!".

المرأة فى عهد الرشيد

يقول جان جيرودو فى مسرحيته "امفتريون": "المرأة مخلوق ثلثه عاصفة وثلثه هرة وثلثه زبد.."

والحق أنه صادق كل الصدق فى هذا التعريف، وينقصه أن نقول إن نسبة المزيج تتغير وتبقى العناصر ثابتة!

أجل تتغير الأزمنة والبيئات والتعليم والأوطان والأجناس وتبقى المرأة على الإطلاق عاصفة وهرة وزبداً، فتكون عاصفة حين يطلق لها العنان فتتحكم وتباح لها الحرية التى حرمت منها فتستبد وحين تجد من يدللها فتصير حاكماً بأمره!

وتكون هرة أى تنكمش وتداهن وتطلب الدفء والأمان فى عهود الترف المقرونة بسيطرة الرجل.

وتكون زبداً حين تكون الرجعية وحيث تكون الأحوال البدائية وحيث لا يترك لها من الأمر إلا ما هو مستطاع فى طبيعة الأنثى التى تلد وتربى..

فلكى ننصف المرأة فى عهد هارون الرشيد يجب أن نلم أولا بالتاريخ ثم بالعوامل المسيطرة فى ذلك العهد وبالتيارات المتضاربة ومقدار الرخاء ومقدار ما أتيح للمرأة أن تتعلم وأن ترى الرجل وتختلط به ثم نلم بما يجرى فى بلاط الملك الحاكم فالشعوب صور مصغرة من ملوكهم.

والمصادر التى نعتمد عليها هى: كتب التاريخ وهى كثيرة ولا يختلف الواحد عن الآخر من الناحية التاريخية البحتة أى من ناحية سرد الحوادث ثم كتب الأدب ولدينا منها الأغانى ودواوين الشعراء، ودواوين الشعراء فى رأيى هى المرائى الصادقة

والسجلات التى يرجع إليها وإنه ليكفينا ديوان أبى نواس للإحاطة بكل ما نريد أن نعرفه عن ذلك العهد، هذا إذا تدبرنا الوقائع وحللنا الشعر على ضوئها.

ولا يفوتنا أن نذكر "ألف ليلة وليلة" ذلك الكتاب الأدبى الرائع الذى يدلنا أبلغ الدلالة على ما كان عليه عهد الرشيد من الغنى "الخيالى" والترف المذهل للعقول.

أثر المرأة فى الرشيد:

فأما ما يتعلق بالتاريخ فطفولة هارون الرشيد وصباه لهما أبلغ الدلالة على ما كان للمرأة من أثر، فقد كان الحكم لأخيه الهادى ولكن أم هارون الرشيد كانت تتدخل في السياسة وتتصرف في الرجال وكانت تريد أن تضع هارون الصغير على العرش مكان أخيه لتكون هى المسيطرة، وقيل قد انتصرت أخيراً لأن الهادى مات - على زعم الرواة - مسموماً بواسطتها!!.

فهذه هى الرواية، فى أولها تبدأ بامرأة تمثل "العاصفة" أى المرأة حين تتحرر من القيود وحين يستضعف الرجال أمامها فتجد الميدان خاليًا، ولكن هارون الرشيد كان رجلا وكان رجلا من طراز خاص كان يجمع بين الضدين يجمع بين المرح التام والتجهم الكامل، بين القلب الرحيم الباكي وبين القسوة البالغة بين حب السرور والملذات وبين الخوف من الخطيئة ومن عقاب الله.

وهو بلا شك كان حاد العاطفة متقد الإحساس وكان يحب "المرأة" بنوع خاص.

أجل كان لا شك يعلم تأثيرها فى المجتمع، كان يعلم ذلك من سطوة أمه ومن حبه لزوجته ومن الإماء والسرارى اللواتى كان يشتريهن بثمن باهظ - آلاف الدنانير - وكن يحفظن الشعر وينشدن فى مجالس الغناء، وبعضهن كن يساجلن الشعراء على البديهة وأخريات كن يكاتبنهم من وراء حجاب وغيرهن كن يعقدن صالونات يتبارى فيها *الأدباء والشعراء* وما قولك بعهد كانت فيه *"الجوارى"* بهذه الدرجة من التفوق والتذوق والأدب والفهم، دعك من الجمال!.

شذوذ العبقرى:

قلت إن هارون الرشيد كان رجلا من طـــراز خاص، كان رجــلا يبكي ويضحك يقسـو ويرحم يغضب ويعفـو يقرب ويبعد، كان مزيجًا من كل هـذا وهـــذا شـذوذ العبقـرى.

ويحسن أن نوضح ما نقوله بالأمثلة، فقد قرب إليه البرامكة ثم غضب عليهم وأبادهم وحكايتهم مشهورة وقرب الشاعر أبا العتــاهية واستنشـــده أشعار الزهد حتى بكى خوفًا من عقاب الله ثم سئم هذا الحديث عن الآخرة والثواب والعقاب واستنشده شعر الغزل ثم قرب شاعراً آخـــر واستنشـــده شعراً فى الغـــزل ولعـــله أبو نواس ثم حبسه وحرم عليه النظر إلى النساء فأنشد هذه الأبيات العجيبة من قضبان محبسه:

إن الـغــــــــوانـى تـثـنـت	ومـلـن مـــيـل الـتـــهـــادى
يــارب إن الـغـــــــوانـى	أضـلـلن عـــقـل الـعـــبــــاد
إن شـــئـت عـــذب عـيـــونـى	أو شـــئـت فـــارحـم فـــؤادى

وبعد هذا وذاك هو رجل يعقد مجلس الغناء ويجيز الموصلى ويمنحه أسنى الهدايا ويغاضبه أحيانًا فيلزم الموصلى بيته ثم يرسل له من يستدعيه فيصالحه.

وما نصيب المرأة فى كل هذا؟

الثابت أن الجوارى كن يغنين فى حضرة الخليفة وأن الحرائر كن يسمعن من وراء حجاب ومجالس الغناء يلزمها الشراب وكان الخليفة يحاول أن "يعقم" المجلس من الشراب وأن يمنع السكر! فكان المغنى يمتنع ويغضب لأنه لا سبيل للغناء عنده بدون المسكر فكانوا يحضرون شرابًا من عصير الفـاكهة لا هـــو بالمسكر ولا هـو بالمحرم فى رأيهم ولكنه يحدث فى الشاربين نشوة الخمر وما هو بالخمر!.

ولماذا كل هذا التحايل على الأمور؟

نساء يسمعن من وراء حجاب، شراب يخترعونه اختراعًا، شعراء يستنشدون الغزل، السر فى كل هذا أن عصور الترف تبيح الحرية والرجعية التى لم يمح أثرها بعد التيارات المتضاربة التى أشرت إليها سابقًا - كانت تعمل عملها وتقيد الترف والحرية اللتين أباحهما ذلك العهد الزاهر الوضاء.

الأدب بعد الحرب

لماذا تقوم الحروب...؟

هناك رأيان فى التاريخ: الأول أنها نتيجة لأزمات روحية فى نفوس الزعماء السياسيين والثانى أنها نتيجة عوامل اقتصادية مركبة.

والحقيقة أنه لا يمكن وضع حد فاصل بين السببين فليس من السهل فصل التاريخ السيكولوجى لرجل كهتلر أفضى من نشأته فقيراً مهملا إلى الهدف الذى اختطفه لنفسه ووصل به إلى قمة المجد - من العوامل الاقتصادية الناشئة فى ألمانيا بعد الحرب، وإذا أردنا تعريفًا لكلمة الحرب فليس أصدق من أنها "قلقلة اجتماعية" وهذه القلقة الاجتماعية تتناول كافة المناحى العامة فى أى شعب من الشعوب وبقدر ما تهزه سياسيا واقتصاديا تهزه أدبيا.

والآن نتفرس هذه القلقلة فى محيط الفكر والأدب فمن جهة نجد أنها تتناول الأمم بذاتها التى تحدث بينها الحروب ومن جهة أخرى تتناول الصدى المترتب على تلك الصدمة أى أثر تلك الموجة فى الأفكار البعيدة فهؤلاء الشباب الذين يخوضون غمار المعركة ويهبطون إلى ذلك الجحيم المستعر هم زهرة الأمة وعمادها فإذا عصفت الحرب بأعمارهم فقد عصفت بالعقول التى بنيت عليها الآمال فاختفاؤهم من ميدان الفكر سيقلل حتمًا النتاج الأدبى بل يغير مقاييس الأدب تغييراً تاما..

وأما الذين يقدر لهم النجاة من ذلك الجحيم فهم كتاب "أدب ما بعد الحرب" وهم كتاب أعصاب أجل أعصاب مضنية منهوكة أعصاب شهداء خارجين من الجحيم لا يرون الدنيا إلا أبالسة ونيرانًا، أدب هستيرى! يتناول الأخلاق المنحلة وتحليل الشر

فى صميمه فما بالك بقوم يفيقون على صوت القنابل ويمسون على دوى المدافع لا ترى أعينهم غير الأشلاء والحطام أى أدب ينتظر منهم غير ما تركته تلك المجازر البشرية البشعة فى عقولهم وفى أفكارهم ولنضرب المثل برواية "لا جديد فى الميدان الغربى" لمؤلفها اريك ماريا ورواية "الصلبان الخشبية" لورولان دورجليس ورواية "الرجل الذى قتلته" لموريس روستان، ثم إن هناك أيضًا أشعار سيجفريد ساسون وأشعار أولئك العباقرة المتقدى الشعور الذين نزلوا فى أتون الحرب فكلها تصور ألوان الحروب أبلغ تصوير وتدعو الشبان أو تزهدهم فى امتشاق الحسام.

ولا ننسى الناحية الجنسية للحرب ويكفى أنه عقب الحرب يقل عدد الرجال قلة واضحة ويكثر عدد النساء ومن هاته النساء اللواتى فقدن أبناءهن وبعولتهن وهناك الشابة التى فقدت خطيبها أو حبيبها والتى أخذوا منها رجلها يوم عرسها هؤلاء الناس مريضات بالثكل هستيريات بالأعصاب فإذا كان هذا الوصف هو صورة المجتمع بعد الحرب فحسبك هذا أنه ظل للأدب الذى تتغذى منه أرواح الجماهير.

وقد شاهدنا كيف تختل موازين الأدب بعد الحرب وتشيع المذاهب الأدبية الكسيحة كالسوريالزم والكوبيزم والسبمولزم.. إلخ. تلك المدارس المنتهية بمقطع "يزم" مما يدل دلالة واضحة على عدم الاستقرار والثبات وما تعدد الأحزاب فى الأمة المنقسمة إلا كتعدد المذاهب فى كتلة الأدب وفى محيط الفكر.

ثلاث زوزوات عرفتهن

زوزو ماضي: عرفتها وهى أديبة صافية لم تشبهـا السينمـا بشـائبة ولم ترفق حياتها *أقدار الشاشة*، عرفتها وهى تستوحى *البحر* وتنظم فيه شعـراً. قالت زوزو تنـاجى البحـر:

عــرفـــتك والمصــيف عليــك زاه
كـقـرن الشـمس يضطـرم اضطرامـا
عــرفـــتك والشـــتــاء يمــد ظــلا
وينشـر فـي جـــوانبك القـــتـامـــا

هل تذكر هذا الشعر الآن فنانة السينما وهل تعاوده وهل تحن إليه؟

إنها تحب كل شيء أزرق حتى رسائلها.

زوزو نبيل: عرفت زوزو وهى فى مستقل جمالها وعنفوان رونقهـا، عرفتهـا قبل أن تقبض عليها الإذاعة فتمرمط هذا الرونق فى تمثيلياتها وتقضى على إشراقها الفخم فى كواليس شارع علوى.

زوزو الحكيم: هى الأخرى أديبة صافية عرفتها قبل أن تنزلق إلى الشـاشـة عرفتها وهى تكتب مذكراتها عن أدباء مصر جميعًا وقـرأت لها أجمل فصل قرأته فى حياتى عن زكى مبارك.

عرفتها وهى تجاهد فى تعلم الفرنسية وتناضل لتتعلم الإنجليزية وتقاتل لتكون أول فتاة مثقفة فى مصر! فلما جرفتها السينما انتهت إلى "عفريت مراتى" فسكن العفريت بيتها ومن يدرى هل دب إلى قلبها؟.مسكينة زوزو.. إنها تحمل دماغًا رهيبًا وقلبًا رقيقًا طيبًا.

نشر هذا المقال يوم ٢٧ أكتوبر عام ١٩٤٨.

احتجـــاج

يا صاحب المقال: على أى صورة تفهم الجمال؟

يا صاحب البرج العاجى هل رأيت فى حياتك الدكتور ناجى؟!

متى - نعم بالله يا مختلق العبارة - لبس الدكتور ناجى نظارة؟

يا صاحب المقال هذا كلام أطفال! فلا أنت رأيت وجهى ولا أنت قرأت شعرى.. سامح الله عينك والذى يدفع لك أجرك!.

أيها المحرر العجيب.. إنك قد ذكرت أن على طه يفوز بأكبر قسط من المعجبات.. ولكنى أذكرك بأن "الشلة" وكلها من أول رامى إلى الآخر تشترك فى هذه الميزة وستظل من نصيبهم وحتى حين يصير الواحد منهم عجوزاً يدب على عصاً وضعيفًا يتداعى كالبيت القديم الدارس.

الجمال - أيها المحرر العزيز - فكرة ومعنى وحركة وحياة وإشراق ولمعان وليست الوحاشة فى أنف كبير ولا فى خلقة "زرايبى" ولا فى شفة غليظة ولا فى نظارة سميكة ولا فى قوام "متداع".

أجلس مع أى من هؤلاء الوحشين وتحدث إلى أى أحد منهم وأنت تعلم معنى الجمال.. جمال النفس.

الفن والفنان

ما أكثر ما تُردد اليوم كلمتان: الفن والفنان، حتى أنه ليخيل إلينا أحيانًا أن الفن هو مجرد الإتقان وأن حشد غرفة باللوحات البراقة أو صف المقاعد الملونة وإرسال الأضواء البراقة الزاهية والإكثار من مظاهر الترف والجاه هو الفن.

والواقع أن فهم الفن على هذه الصورة مفسد لأصوله مضيع لجوهره ذاهب بمعناه ولقد ذهبت - من باب المعرفة - أستقصى تعاريف الفن عند كوكبة من صفوة المفكرين والفلاسفة فوقفت على مجموعة عجيبة فى بعضها دقة علمية رائعة وفى البعض الآخر ومض وإشراق وفهم دقيق! فالتعريف العلمى عند شيلر وداروين وسبنسر مثلا هو أن الفن نشاط خاص منشؤه الحاسة الجنسية والميل إلى اللعب وهو مصحوب بتأثير سار فى المجموع العصبى، فأما أن منشأه الحاسة الجنسية فيكفى للدلالة على ذلك أن الألوان البديعة والزينات الرائعة التى تكسو أعضاء الحيوان تكون على أتمها فى الربيع وتلك هى الأغانى والأغاريد المنطلقة من حناجر ظامئة عاشقة فى مواسم التناسل.

* * *

أما التعريف العلمى عند العلماء فهو التعبير عن العاطفة بوساطة الخطوط والألوان والخطوات والأصوات والكلمات. فهيجل وأتباعه يقولون بأن الجمال عبارة عن إشراق الفكرة من خلال المادة.. فلابد للروح من مظهر مادى والفن هو الذى يجلو هاته الفكرة لتعبر عن أهم مشكلات الإنسانية وأعلى حقائق الروح، والحق والجمال عند هيجل شىء واحد غير أن الحق هو الفكرة مستقرة والجمال هو الفكرة مجلوة ظاهرة.

وتقول مدرسة هربرت إن الجمال نسب وعلى الفن أن يكتشف هذه النسب ويجلوها، وأما شوبنهاور فيقول إن الإرادة طبقات مختلفة والتجرد من الذات لتأمل تلك الطبقات يحدث الشعور بالجمال، والفنان هو الذى يملك القدرة على التأمل والتحليق فى سموات مشرقة عليا.

إن الجمال هو الكمال المطلق منظوراً من خلال الحواس والحق هو الكمال منظوراً من خلال العقل، الخير هو الكمال منظوراً من خلال الخلق والجمال هو ما تتناسب فيه علاقة الحق بالخير وعلاقة الجزء بالكل والفن هو الذى يكتشف أحسن هذه النسب وهى على أتمها فى الطبيعة.

ولنسأل أنفسنا أولاً ما هى أنواع الفن التى نعرفها ثم ما هى حاجة الإنسان إلى الفن وهل يمكن أن يعيش الإنسان بدون الفن؟ وبعبارة أخرى هل يمكن أن تخلو الدنيا من الموسيقى والشعر والنحت والتمثيل؟ إن الفنون جميعًا تنبع من مصدر واحد فإن الشعر له "بيت" وهذا يشير إلى أن البناء والألوان المتناسقة لها انسجام يدعى "موسيقى الألوان" وقد سبق لجيته أن قال: إن العمارة الفنية عبارة عن موسيقى متجمدة ومن ثم يكون الكلام على الفنون جميعًا متشابهاً والفنان الحقيقى يلم بها ويفهمها إلماماً عاما إلماماً مبنيا على الطرب قبل أن يكون قائمًا على معرفة خاصة.

والفنون قسمان: منظورة وغير منظورة، فالمنظورة هى التى يكون العمل الفنى فيها بارزاً أو مجسماً كالتصوير والنحت وغير المنظورة هى التى لا يكون فيها العمل الفنى ملموساً كالموسيقى والشعر والتمثيل.

* * *

إن قصد الفن إحداث الطرب والسرور بواسطة إظهار الجمال، والفن والجمال صنوان ولكنهما على قدر الصلة الوثيقة بينهما يجب أن يميزا، وأذكر على سبيل المثال اللوحات "الفنية" التى ليس فيها شىء من الجمال مطلقًا ومع ذلك فيها الفن الخالد، والقطعة من الخزف القديم التى تباع بثمن غال جدا على أنها "فن" وليس فيها للناظر

مسحة من الجمال والتمثال المنحوت الذى له قيمته "الفنية" وليس له أية قيمة من ناحية الجمال على أن الذى يشترى هذا التمثال لابد أن يجد فيه جمالاً لا يراه إلا القليلون فالجمال على ذلك شيء ذاتى أى ينعكس من روح الصانع على فنه ثم من العمل الفنى إلى المتفرس فيه والشرط الأساسى فى استيعاب روح الفنان أن لا تنظر إلى القطعة الفنية "بالتقسيط" بل اجتهد أن تتأملها جملة فسيثب إليك معناها المستتر وجمالها الخفى وستفاجئ روحك عبقرية صاحبها من خلال عمله الفني. يذكر هربرت ريد فى كتابه عن "معنى الفن" على سبيل المثال صورة يابانية لمركب على وشك الغرق فإذا أخذتها جزءًا جزءًا أى المركب ثم الموجة ثم الأشخاص ضاعت معالمها ومعانيها ولكن إذا عرفت كيف تستوعبها جملة وجدتها شيئًا رائعًا خالدًا لا تنساه. ويقول فى ذلك إن الإنسان لكى يقدر العمل الفنى يجب عليه ألا يعطف عليه، ويقف على هامشه بل عليه أن يتعلم كيف يدخل إليه ويستغرق فيه أو بعبارة أهل التمثيل "يندمج" وأنا شخصيا تعلمت أن أقدر القصيدة مثلاً بالإصغاء إليها جملة فأقدر قيمتها الفنية بعد لحظات..

يقول هربرت ريد: "*إن العمل الفنى* يجب أن يكون له شكل أو بعبارة أخرى هيكل وقوام ناتج من تشابك نماذج فنية متكررة ومتلاحقة بطريقة خاصة فالعمل المهلهل الضعيف لن يكون له شكل "form" لأنه ليس له وحدة وعلى ذلك مهما حاولنا الدخول فيه والاستغراق فى ملكوته فلن نستطيع لأنه ليس به شيء ولذلك نقف عند باب بغير منزل ونلازم شاطئًا بغير بحر.. ولكن لماذا نرقص ولماذا نغنى ولماذا نمثل؟

نسمع كثيراً أن الفن هو الصلة بين الإنسان والطبيعة وهذا صحيح وزادوا على ذلك أن الفن يحاكى الطبيعة وهذا خطأ فإن الفوتوغرافية تنقل عن الطبيعة ونحن نفضل التصوير بالألوان أو الزيت على الفوتوغرافيا، إننا نفضل الأخير على الأول لسببين أن التصوير بالزيت يحمل طابع المصور وروحه وقد أمكن تمييز صور رافاييل الأصيلة من المنقولة بواسطة أشعة إكس التى تظهر من الخطوط الاهتزازات والتموجات الخاصة بيد رافاييل والمنعكسة من روحه، والثاني: "أن الفوتوغرافيا تحمل شيئًا منقولاً لا زيادة فيه أما التصوير فينقل إلينا الشيء مضافًا إليه التفسير والإيضاح".

فنحن إذن فى الفن لا نحاكى الطبيعة بل نزيد عليها، نخلع عليها الحياة، نخلع عليها الخيال، نحن فى الواقع نسبق الحياة فى التطور ونصور الطبيعة لا كما هى بل كما يجب أن تكون. قالت سيدة لهويسلر الرسام الإنجليزى المشهور: "إن رسمك مخالف للطبيعة فأجابها: "هذا حقيقة ولكن أما كنت تودين أن تكون الطبيعة كذلك"!!

* * *

يتضح من ذلك أننا فى أعماق نفوسنا نجد كلمات ناقصة، فالكلام شىء ناقص والمكمل له هو الغناء والمشى شىء ناقص والمكمل له هو الرقص، والتعبير العادى شىء ناقص والمكمل له هو التمثيل ولما كان تغريد الطيور وهمس النسيم موسيقى ناقصة فقد أكملناها نحن بالموسيقى ونحن نقول الشعر لأن التعبير بالنثر لا يكفى ونحن لا نلجأ إلى الزخارف اللفظية إلا كحيلة نخلع بها شيئاً من الجمال على تعابيرنا أما الشعر العميق فليس بحاجة لذلك فهو جميل بقوته فنحن إذن الذين نضفى الجمال على لوحات ناقصة، نحن نأخذ الشفق فنرسمه فى لوحاتنا أو فى "صورنا القلمية" رسماً حيا نابضاً يكاد ينطق لو ملك النطق والكلام، ونحن لن نحس بجمال الشفق والغروب أو الفجر إلا إذا أضفنا إليه شيئاً من ذكرياتنا وخيالنا. أما إذا نظر إليه النظر العادى فهو مجرد ألوان سابحة وخطوط غادية رائحة.. وحسبكم ما يجده الناظر من الانقباض فى الطبيعة الجرداء وحسبكم ما يجده من الراحة عندما ينظر إلى العشب لأنه حياة فنحن إذن بفننا نرقى بالطبيعة الجامدة إلى أعلى مراتبها وهى الحياة.

وقد يعجبنا الشاعر أو الموسيقى وهو يصف الجماد ولو دققنا لوجدنا إعجابنا يفسر بأنه خلع الخيال والحياة على الجماد.

ونحن لا نخلع الخيال والحياة والجمال على الأشياء إلا بما يسمى "البصيرة" والبصيرة شىء مخالف للعقل تماماً وهى ذلك الشىء الذى منحته إيانا السماء وأعطت كلا قسطاً منه كما تشاء. البصيرة هى ذلك الشىء الذى يجعل العبقرى يخرج اللحن قبل أن يتعلم "النوتة" والمصور يرسم الصورة وقد تكلمت فيها النسب الهندسية اللازمة لكل عمل فنى، بدون أن يقيس بمسطرة أو ببرجل.

والإنسان يطرب ببصيرته لا بعقله، وأحب الفنون إلى الإنسان أقربها إلى بصيرته وأبعدها عن ذهنه ولذلك نجد الموسيقى والغناء أحب الفنون إلينا.

فالفن إذن يقتضى **أولاً**: البصيرة، **ثانياً**: تجاوز الواقع إلى الخيال، **ثالثاً**: تجاوز المادة إلى الروح، **رابعاً**: التفسير لا النقل.

وآفة الفن شيئان، الأول: الأنانية فلا يمكن لفنان صاف أن يكون أنانيا بل الحب هو أساس كل شيء بعدما رسم دافنشى صورة الجوكوندة لم يستطع التخلى عنها وقد طلبها منه ملك فرنسا فاعتذر.

وآفة الفن الثانية الخضوع للعرف والأوضاع المألوفة ومن السهل أن نذكر أسباب انحشاش الفنون فى العهود المختلفة فإن العهود التى كانت ترسم فيها للفنان أوضاعه وتقاليده هوت بالفن إلى الحضيض ولم يزدهر الفن إلا عندما ترك حرا مطلقاً.

وقد لوحظ أنه إذا روعيت النسب الهندسية فى الفنون خرجت جامدة باردة فعلى الفنان أن يشذ عن الأصول، فما من عمل فنى رائع إلا وفيه شذوذ، فعلى الفنان أن يجعل الخط المستقيم منحنياً والمنحنى مستقيماً إذا اقتضى التعبير ذلك ودليل ذلك أنك لا تجد فى التماثيل الرائعة جبيناً أو أنفاً مرسوماً فى خط مستقيم. ومن الصور التاريخية لوحة صينية تصور حصاناً أراد المصور أن يعبر بها عن عضلات الحصان فرسمها كتلا منحنية متعاقبة من اللحم فجاءت أوقع فى التعبير وبهذا كسبت الخلود.

قلت إن الفنان يتعمد الشذوذ بل يتعمد الالتواء أحياناً مادام يجد أن هذا الالتواء يمكنه أن يتقن التعبير عن روح المنظر أو الشخص وقد يبلغ الالتواء درجة كبيرة وهذا هو الفن الرمزى ولكنه يعطيه قوة خارقة.

ما هاته القوة الخارقة؟ هى القوة التى تعطى للخصوص معنى الشمول وللشمول معنى الخصوص أى أن الطابع الذى يبديه الفنان يكون طابعاً إنسانيا عاما بعد ميزة واحدة هى أن الفنان يجب أن يكون لشموله خصوصيته هو وأسلوبه هو وشخصيته هو..

ويجب أن نذكر أن الفنان الحق لا يهمه غير موضـوعه ولا يهمه غير أن ينقله لنا معبراً عما يجيش فى نفسه وما يحس به نحوه خاصة بغض النظر عن أى ناحية من نواحي الخلق أو الوعظ أو الإرشاد. إن الفن الذى يشوبه شىء من هذا هو فن غير خالص.

سيكولوجية الأديب

فى هذا الموضوع ناحية شخصية طريفة وطرافتها تغرينى بالثرثرة، فإنى لا أرى الآن موضوعًا علميا وإنما أرى أمامى شخوصًا وأسماءً وصنوفًا من النفسيات تكون مجموعة مسلية فخمة ومع ذلك فسأكتب هذا الجانب البديع وأتكلم كلامًا علميا سيكولوجيا تكون فائدته أعم وأوقع.

أجل من أهم الموضوعات الاجتماعية مسألة: "سيكولوجية الأدب".

ولما كان الأدب فرعًا من الفن كان الكلام الصحيح هو عن سيكولوجية الفنان ومقال اليوم يتناول سيكولوجية الفنان المصرى لأن للفنان المصرى طابعًا خاصا به لا تجده فى غير مصر وللثقافة الفنية فى مصر طرق لا تجدها فى غيرها من البلاد.

ولما كان الجسم والنفس وحدة متماسكة فإن أمراضهما متصلة وإن كانت فى الجسم أعضاء تتأثر أكثر من غيرها.

وفوق ذلك فإن للأدباء المصريين أمراضًا خاصة بهم وحدهم.

نبدأ الآن بالتحدث عن نفسية الأديب المصرى:

الأديب المصرى يندر أن يكون رجلاً طبيعيا فإننا إذا نظرنا إلى الحياة وتعريفها ثم إلى الأدب وتعريفه وخصائصه تبين صحة ما نقول.

ما هى الحياة؟

أصدق تعريف لها أنها تفاعل بين عوامل خارجية تتكون من البيئة والظروف والعادات والتقاليد وعوامل داخلية تتكون من العناصر التى بتفاعلها وتطورها وتماسكها

أدت إلى المجموعة التى اصطلحنا على تسميتها "بالشخصية" الحياة "ميزانية" بين دخل وخرج، الحياة موازنة بين قوتين وملاءمة بين دافعين وكل ما يعترى الحياة من اعوجاج أو شذوذ أصله اضطراب فى ميزان التفاعل وأصل ذلك الاضطراب اختلال فى عنصر من العناصر الداخلية أو الخارجية.

وإذا سلمنا أن الدوافع الخارجية متساوية بالنسبة لنا جميعًا سلمنا كذلك أن الاختلال أكثره داخلى، أى فى نواتنا وفى صميم أنفسنا ولنراجع الآن أهم العناصر الداخلية فى النفس بوجه عام ثم نراجعها فى نفس الأديب المصرى بوجه خاص.

أهم العناصر الداخلية التى تكون "الذات" هى "العادة" و"الجنس".

ويدخل تحت حكم العادة ما نسميه "بالخلق" ولا يخفى أن التربية "عادة" فخلقنا وتربيتنا أخيراً هما ما اعتدناه وصار طبيعة ثانية ويدخل فى بناء الشخصية – بعد العادة – مواهب موروثة أو فطرية كالذاكرة والخيال والذكاء.

ويتكئ ذلك كله على الغرائز الفطرية التى هى واحدة فى جميع البشر وإنما يختلف عملها بمقدار ما أطلقنا منها وما كبتنا.

وأما "الجنس" فيساوى "الحب" ويجب ألا يفهم من ذلك اللفظ حب الشهوة وإنما الحب على طول خطه، المبتدئ بالوالدين المتنقل إلى المجتمع المنتهى بالزواج.

ولعل ترتيب الأمور بأهميتها يكون على الوجه الآتى: الوراثة – العادة – الحب.

إنى أعطى الوراثة المكان الأول لكى أؤكد أن هناك ذكاءً مكتسبًا موروثًا وآخر نحصل عليه بالمران، الأول عميق "عمودى" والثانى "سطحى".

ولا جدال فى أن الأدب يورث والمواهب الأدبية كالخيال والموسيقى وغيرهما مواهب تورث أى تولد ولا تصنع والأدب تنبت جذوره وعناصره فى الطفولة، فمن المألوف أن الطفل ينام على اللحن الموسيقى ويستأنس بالغناء ويحب القصة الخيالية وقد يؤلفها هو نفسه.

فالواقع أن الأديب طفل لم يكبر والأديب الصحيح من له خصائص الطفل فى فرحته بالأشياء وسذاجته وتهلله وضحكته وخياله وفرحه وابتهاجه بالموسيقى. والتربية الأدبية الصحيحة هى التى ترمى إلى شيئين: تربية الحواس فإن حدة الحواس هى الوسيلة التى بها يستعين الأديب على التقاط الصور وتذوق الأشياء، والشىء الثانى جو الحرية الذى فيه تترعرع شجرة الذات وتتغذى تلك الحواس النشطة المتقدة.

والأديب المصرى محروم من الأمرين، ففى المنزل وفى المدرسة لا يجد من يتعهد تلك الحواس بالتغذية وفى المنزل يجد التربية قائمة على الزواجر والنواهى وقتل حرية الاستطلاع التى هى أهم خصائص الأديب وفى المدرسة يجد سلسلة من "الكليشهات" التعليمية التى تقتل المواهب وتقبرها وتدفن شجرة الحرية دفناً وكما ذكرت عندنا أديب بالسليقة وأديب بالاكتساب.

أما الأول فيمر على تلك الأدوار ونفسه تشعر بالضيم وتنطوى نفسه على ثورة مكتومة والثانى يتلقى تلك الأخطاء ويبتلعها بسهولة ويصل إلى عتبة المستقبل رجلاً عاديا يتميز عن غيره من الناس بقليل من المواهب الكلامية والبيانية وشىء من الحقد على العباقرة وأرباب بالنبوغ.

ونتكلم الآن على مسألة "الحب" لما لها من الأهمية البالغة فى حياة الأديب ولما لها من الشأن فى مصر خاصة.

الحب فى تعريف بلاتو وفى تعريف البيولوجيا "شطر يبحث عن شطره الآخر الذى كان لاصقًا به ومكملاً فانفصل.."

فالبيولوجيا تقرر أن المخلوق كان فى البدء وحدة ثم شُطر وكان الشطران فى البدء على جذع واحد وكانا متساويين فلم يلبثا أن تميزا على الجذع ثم انفصلا ثم قضى الله عليهما أن يبحث كل عن الآخر فى سن المراهقة حيث تنشط الغدد وتتأجج الحواس وتتطلع النفس باحثة عن شطرها الضائع.

وهذا الوقت هو أزمة الأزمات وهو عندنا فى مصر - خاصة - عهد خطر ومع الأسف يقل فيه الإرشاد وتندر الصراحة الواجبة مع أنه العهد الذى يبدأ فيه نضج الأديب وتزدهر مواهب الفنان وتتفتح.

فإن النفس التى تتطلع إلى مثلها الأعلى أى إلى توأمها من الجنس الآخر قد تجده فإن وجدته قد لا تظفر به أو قد تظفر وتنتهى الرواية أو لا تجده فتتحول إلى خلق شىء على مثاله أو التغنى بالحنين إليه أو رسمه على القماش أو الحجر وهكذا أو تكون الأزمة النفسية من الشدة بحيث تحدث اضطراباً نفسيا كبيراً فأما أن يكون هذا الاضطراب تحدياً واعتداءً أو تخاذلاً وانطواءً وأما أبعد من ذلك وهو الجنون.

فنحن الأطباء نعرف ما هو جنون المراهقة ونفهم أسبابه وعلته. قلت إن هذا العهد فى مصر أخطر العهود على الشباب الأديب فأما أن يكون أديباً عبقرياً فطامته الكبرى أن مثله الأعلى غير موجود أومستحيل وكارثته الأخرى أنه إذا وجد خياله المنشود يخفق فى الحصول عليه أولاً: لأنه ضال لا يعرف الطريق العملى إلى ذلك وثانيًا: لأنه شديد الحساسية متناه فى الاعتزاز بكرامته فيفر بها حتى من وجه الحبيب، أما الأديب "المصنوع" فهو قد ركب فى "القالب" الخطأ وقبله وانصب فيه ومنحته أولاً فى "التركيب" الذى ركب فيه وثانيًا فى الحق المتأصل فى نفس صغيرة بالفطرة وبالتربية وثالثًا فيما يحاوله لبلوغ مرتبة العبقرية والعبقرية منحة من السماء.

هذا فيما يختص بالعناصر الداخلية أو كما يسميه الدكتور جوردون صاحب كتاب "العصبى وأصدقاؤه" ضغط الظروف، فهو الذى باصطدامه مع تلك العوامل التى ذكرناها يسبب المرض العصبى وذلك الاصطدام منشؤه عند العبقرى عظيم الفرق بينه وبين البيئة وعند الأديب المصنوع الفرق بين ما يتعاطاه وما يحاول أن يصل إليه.

هذا موجز لمرضى الأدباء مرضًا نفسيا أما أمراضهم الجسمية فمسببة عن اضطراب نواتهم وقلق حياتهم، فهم قوم مسرفون فى التفكير ينامون قليلا ويأكلون قليلا - وأكثر الأدباء فقراء! وشذوذهم يدعوهم إلى تناول أطعمة شاذة وقد يستعينون بالمنبهات على إدمان العمل ووفرة الإنتاج.

وهم فى مصر قليلو الرياضة ولذلك يمرضون بالكبد والمعدة وأكثرهم يأتوننا شاكين من اضطراب القلب وليس فى قلوبهم مرض وإنما منشأ علتهم فرط ذكائهم واطلاعهم فهم يقلبون كتب الطب فيفهمونها نصف فهم ثم يتحسسون قلوبهم وأكبادهم ويتخيلون فى المرض كما يتخيلون فى الأدب.

أناتول فرانس يناجى هملت

ننقل إلى قراء السياسة الأسبوعية خاطرة لأناتول فرانس عن هملتْ بدأ بها كتابه "الحياة الأدبية" كتبها على أثر مشاهدته تمثيل هذه المأساة الخالدة فى الكوميدى الفرنسيز.

وأنت إذ تقرأ لأناتول فرانس تقرأ الدعابة الظريفة والسخرية الرقيقة وسترى كيف وهو يصف إحساسه بعد مشاهدته لتمثيل هملت لا يسلم من سخريته أحد أولئك الذين ينسبون حزن هملت العميق لجزعه على ما أصاب المملكة فهو حزن رجل الاقتصاد السياسى ثم يعرج بتهكمه على الألمان فيذكر كيف مثلوا هملت فى لباس الإفرنسيين "آخر مودة"!.

مساء سعيد أيها الأمير الجميل وليطبْ نومك على غناء أسراب الملائكة ذلك ما قلناه مع هوراتيو ليلة الثلاثاء للأمير هملت عندما غادرنا مسرح الكوميدى فرانسيز وأنه لحق أن نبعث بتحيتنا إلى الذين كانوا السبب فى أن نقضى مثل ذلك المساء البديع والحق أن هملت أمير ظريف فهو جميل ولكنه تعس وهو يعرف كل شىء ولكنه لا يدرى ماذا يصنع فهو يستحق الإعجاب والشفقة معًا وهو أحسن من أى واحد منا وهو كذلك أسوأ وهو رجل بل فيه كل ما فى الرجل من معنى وإنى لأقسم إنه كان فى ذلك المكان عشرون شخصًا على الأقل يجيش فى صدورهم ذلك الإحساس.

مساء سعيد أيها الأمير الجميل، إننا نغادرك ولا نملك إلا أن نفكر فيك ولقد لبثت ثلاثة أيام بأكملها دائب التفكير فى أمرك.

يا أمـيـر لقـد تولانى يوم رأيتك فـرح حـزين وذلك أكبـر من الفـرح الطروب أنى لأهمس فى أذنيك أن النظارة كانوا عابثين غير مصغين ولكن لا سبب للشكوى ولا كثير عجب فلقد كان المكان ممتلئـًا بالفرنسيين رجالاً ونساء وأنت لم تطلع إليهم فى لباس السهرة ولم تمثل لهم دسيسـة من دسائس الغرام لذلك سمعت سعال النساء وأبصرتهن يأكلن الفواكه المثلجة فى مقاصيرهن! فحوادثك لا تعنى هؤلاء كثيراً لأنها ليست بعصرية بل إنسانية، إنسانية تدفع المرء للتفكير وهذا خطأ منك لا غفران له!

على أنه كـان هنا وهناك فى ذلك الجمع نفوس أثرت فـيـهـا أعمق التـأثير لأنك إذ تتكلم عن نفسك تتكلم عنهم وهم لذلك يفضلونك على غـيرك من خلقت العبـقرية! ولقد أجلسنى الحظ بجانب المسيو أوجست دورسشان وهو يفـهمك كما يفـهم راسين لأنه شاعر! واعتقد أنى أنا أيضـًا أفهمك قليلا لأنى قادم من نواحى البحر! لا تخش أن أقول لك إنك مـحيطان فمـا هـذه الكلمـات.. كلمـات وأنت لا تعبـأ بالكلمـات وإنما أعنى أنى أفـهمك لأنى قضيت شـهرين على الدعة والراحـة فى آفاق مطمئنة وعدت من البسـاطة بحيث أفـهم الجـمال والعظمة والعمق لأن المدارك تعلو وتصـقل بالبطالة المثـمـرة التى تقضى سيراً فى القرى وبين الأفقين! أفق البحر وأفق الحقول فإذا عدنا منها كنا على استعداد لفهم عبقرية شكسبير العجيبة، ولهذا لقيتك بالترحاب ولهذا ظلت أقوالك تتردد على شفتى وتملؤنى رعبًا وشاعرية وحزنًا!.

قد تساءلوا فى المجلة "الزرقاء" وفى سواها عن سر حزنك وآمنوا أنه من العمق بحيث لا يفسر مداه النكبات العائلية مهما بلغت من الفداحة ولقد ظن المسيو أميل دى لافيلى الاقتصادى المشهور أن حزنك حزن رجال الاقتصاد السياسى ولقد كتب مقالا خاصا يثبت فيه ذلك ويزعم أنه هو وصديقه لانفرى أصابهما ما أصابك من الأسى على أثر ما حل بالدولة عام ١٨٥١.

وأنك أيها الأمير لابد أن تكون حزنت أشد من حزنهما لما أصاب دولة الدانمرك من غاصبها كليوديوس.

نعم لقد كنت تجزع لما أصاب أمتك وإني لمعجب بقول فورتنبراس وهو يأمر بحمل جثتك إلى المسرح كما يحمل الجندي: "لو أن هملت عاش لبرهن كيف يكون الملوك" على أني لا أعتقد أن حزنك حزن المسيو لافيلاى بل أنبل وأرقى وأظن أن الدافع إليه هو إحساسك القوى بالمقدور.

فلم تكن الدانمرك وحدها كئيبة في نظرك بل الدنيا بأجمعها ولم يكن لك ثقة بشيء ما والدليل على ذلك نداؤك الجميل المرير الذى فهمت به وجسدك يبرد في يد الموت.

"هوراتيو! إذا كنت يوما ما أحللتنى مكانًا قريبًا من قلبك فاهجر السعادة هونًا ما وازفر زفرة الألم في هاته الدنيا القاسية وقص على الناس أخبارى ولم يكن الذى وجهت إليه خطابك رب عائلة مسممة بالإثم ولم يكن جبانًا مثلك بل كان حرا عاقلا مخلصًا وكان سعيدًا لو أن في الكون رجلا سعيدًا ولكن كنت تدرى أنه ليس في العالم سعادة وأن الكون شر على شر ولنصارحك القول: لقد كنت متشائمًا! حقا لقد دفعك حظك لليأس فقد كان حظا عاثرًا ولكن أى توافق كان بين طبعك وحظك! والحق أنك كنت تسبغ سوء الطالع وتستعذبه فقد كنت خبيرًا به شرهًا في آلامك!

هكذا خلقك شكسبير العظيم ويغلب على الظن أنه لم يكن متفائلا يوم خلقك فإنه من سنة ١٦٠١-١٦٠٨ خلقت يداه الساحرتان جمعًا كبيرًا من الأشباح العتيقة المحزونة:

فهناك ديدمونة يودى بها خبث ياجو وهناك دم ملك ذى حنان أبوى على يدى اللادى ماكبث الصغيرتين ثم هناك كورديليا الصغيرة ثم هناك أنت.. ثم هناك تيمون الأثيني.

لدىّ وأنا أكتب هذا رسم ألماني قديم يمثلك ولكن لا أكاد أستبينك فيه فإنه رسمك كما مثارا في مسرح برلين سنة ١٨٧٠ وما أراك تلبس فيه ثوب الحداد الذى ذكرته أمك لا ولا الجوارب ولا العباءة ولا غطاء الرأس تلك الأشياء التى نراها في صور دلاكروا العجيبة الملهمة والتى يلبس مونيه سللى فتعطيه أى جمال وهيئة شعرية.

نعم! فقد مثلوك أمام البرلينيني في القرن الثامن عشر في لباس يبدو لنا اليوم غريبًا جد الغرابة فقد كسوك على الطراز الباريسي الأخير نسقوا شعرك ووضعوا عليه مسحوقًا أبيض وجعلوا حول عنقك ياقة مزركشة وفي رجليك جوارب من حرير وأحذية مزررة.. وعليك عباءة على نسق أهل البلاط وبالاختصار جعلوا لك الكساء الذي يلبسه في الحداد حجاب فرساي وبهذا الاستعداد وسيفك في جانبك ترتمي على قدمي أوفيليا! أوفيليا التي ألبسوها وجعلوا نظام شعرها على شكل ماري أنطوانيت وباقي الأشخاص يلبسون شيئًا كهذا.. إني لا أراهم في رواية جونزاجو وباتبستا ها هو كرسيك الموشي بالزهور على طراز لويس الخامس عشر وها أنت تهجره وتزحف على الأرض متلصصًا لتبلغ الملك وتبصر على وجهه الدليل الصامت على الجريمة التي أقسمت أن تثأر لها!.

أما الملك نفسه فيلبس قبعته على طراز هنري الرابع كما كان يلبس لويس السادس عشر!.

أو تحسبني أسخر منك! أو تظن أني أفخر بما وصلت إليه ملابسنا من الرقي والأبهة؟ كلا! فإنك إن لم تبد بعد لابسًا كما مثلوك في هذا الرسم.. إن لم تبد في شكل الكونت دي بروفانس حزينًا على ولي العهد وإن لم تبد أوفيليا بعد في زي ماري أنطوانيت – فلا أسف ولا أسمى والله إني أحبك كما أنت وماذا يعنيك الكساء! البس كما تشاء. أنت ابن كل الأزمان والأمم وروحك في عمر أرواحنا نحن نعيش معًا أيها الأمير أنت كما نحن رجل يعيش في وسط الشجن العام! لقد ضحكوا من أقوالك وأعمالك وزعموك مناقضًا لنفسك وقالوا كيف نفهم من لا يفهم، ذلك رجل يفكر تفكير كاهن القرون الوسطى كما له عقل عالم من علماء النهضة وغالوا له رأس فيلسوف ولكنه رأس مملوء بالخبث وقال بعض النقاد إنه قلق مزعزع وقال آخرون بل كله ثقة وثبات وقالوا جعبة من المتناقضات وليس بإنسان!!..

عجبًا أن هذا هو الدليل على إنسانيتك، أنت سريع بطيء جريء جبان قاس رحيم شاك واثق عاقل مجنون.

وعلى الجملة أنت تمثل الحياة، ومن منا لا يشبهك فى شىء من هذا؟

من منا لا يفكر فى غير تناقض ولا يصنع فى غير تماسك؟

من منا ليس له جنة؟ من منا لا ينادى وفى قلبه رحمة وعطف وإعجاب وخوف.

"مساء سعيد أيها الأمير الجميل".

مصادر: كتب أثرت فى حياتى
ومقالات أخرى مجهولة

١- كتب أثرت فى حياتى - نشر هذا المقال فى جريدة "الجمهور المصرى" - يوم ١٦ فبراير عام ١٩٥٣ أى قبل رحيل ناجى عن عالمنا بأقل من شهر.

٢- السير وولتر سكوت - نشر هذا المقال فى مجلة "أبولو" عدد فبراير ١٩٣٣.

٣- ديوان عتيق - نشر هذا المقال فى مجلة "أبولو" - عدد فبراير عام ١٩٣٣.

٤- الراهب المتمرد لصالح جودت - نشر هذا المقال فى مجلة "أبولو" - عدد ديسمبر ١٩٣٣.

٥- أغانى أبى شادى - كتب ناجى هذه الكلمة بعنوان "إلى عشاق الفن" وقد ذيل بها أحمد زكى أبو شادى ديوان "أغانى أبى شادى" الذى صدر عام ١٩٣٣.

٦- كيف نظمت الشعر؟ - نشر هذا المقال فى مجلة "الحديث" الحلبية - عدد يناير عام ١٩٤٠.

٧- هل المدنية تتقدم إلى الأمام أم تعود إلى البربرية؟ - نشر هذا المقال فى مجلة "الحديث الحلبية - عدد يونيو ١٩٤٣.

٨- الغريزة الجنسية - نشر هذا المقال فى مجلة "الحديث" الحلبية - عدد يوليو ١٩٤٣.

٩- فن الحياة - نشر هذا المقال فى مجلة "الرسالة" عدد ٦ مايو عام ١٩٤٠ ونشر فى مجلة "الحديث" الحلبية - عدد يناير عام ١٩٤٥.

١٠- الوعى الأدبى - نشر هذا المقال فى مجلة "الحديث" الحلبية - عدد ديسمبر عام ١٩٤٨.

١١- الشاعر الكامل.. والمعجزة - نشر هذا المقال فى مجلة "الحديث" الحلبية عدد فبراير عام ١٩٥٣ - وكان عنوانه الأصلى "إننا نبحث عن الشاعر الكامل كما نبحث عن المعجزة!".

١٢- عوامل النجاح فى القرن العشرين - نشر هذا المقال على ثلاث حلقات فى ثلاثة أعداد متتالية من مجلة "مجلتى" التى كان يصدرها أحمد الصاوى محمد اعتباراً من عدد ١٥ يوليو عام ١٩٣٦.

١٣- كيف تؤثر الأمراض فى الأخلاق؟ - نشر هذا المقال فى مجلة "الهلال" - عدد يناير عام ١٩٣٩.

١٤- المرأة فى شعر أبى نواس - نشر هذا المقال فى مجلة "الهلال" - عدد أغسطس عام ١٩٣٦.

١٥- خطورة المراهقة فى حياة الشباب - نشر هذا المقال فى مجلة "الهلال" - عدد مايو ١٩٣٨.

١٦- مقارنة بين علمى الشعر العربى - المعرى والمتنبى - نشر هذا المقال فى مجلة "الهلال" - عدد مايو ١٩٣٨.

١٧- أثر فرويد فى الأدب الحديث - نشر هذا المقال فى مجلة "الهلال" - عدد ابريل ١٩٣٨.

١٨- الشباب المصرى والمشكلة الجنسية - نشر هذا المقال فى مجلة "الهلال" - عدد أكتوبر ١٩٣٨.

١٩- درس نفسية العامل هو المعين الأكبر لزيادة الإنتاج - نشر هذا المقال فى مجلة "الهلال" - عدد ديسمبر ١٩٣٨.

٢٠- الطبيعة تداوى نفسها - نشر هذا المقال فى مجلة "الهلال" - عدد مايو ١٩٣٩.

٢١- أمراض تدفع أصحابها إلى المجد - نشر هذا المقال فى مجلة "الهلال" - عدد مايو ١٩٣٩.

٢٢- نفسية زعماء العصر الحاضر على ضوء مذهب فرويد - نشر هذا المقال فى مجلة "الهلال" - عدد ديسمبر ١٩٣٩.

٢٣- هل تجب الصراحة فى المسائل الجنسية - نشر هذا المقال فى مجلة "الهلال" - عدد ديسمبر ١٩٣٢.

٢٤- المرأة فى عهد الرشيد - نشر هذا المقال فى مجلة "الهلال" - عدد أغسطس ١٩٤٠.

٢٥- الأدب بعد الحرب - نشر هذا المقال فى مجلة "الهلال" - عدد مارس وابريل ١٩٤٦.

٢٦- ثلاث زوزوات عرفتهن - نشر هذا المقال فى مجلة "الاستديو" - عدد ٢٧ أكتوبر عام ١٩٤٨.

٢٧- احتجاج - نشر هذا المقال فى مجلة "الاستديو" - عدد ١٧ نوفمبر عام ١٩٤٨.

٢٨- الفن والفنان - نشر هذا المقال فى مجلة "الهلال" - عدد مارس وابريل ١٩٤٦.

٢٩- سيكولوجية الأديب - نشر هذا المقال فى مجلة "الرسالة" - عدد ٢٧ مايو ١٩٤٠.

٣٠- أناتول فرانس يناجى هملت - نشر هذا المقال فى مجلة "السياسة الأسبوعية" - عدد السبت ١٩ نوفمبر ١٩٢٧ وهو أول مقال ينشر لناجى.

الفهـــرس

المحقق فى سطور :

حسن توفيق

- شهد حى شبرا بالقاهرة ميلاد حسن توفيق يوم ٣١ أغسطس ١٩٤٢.

- حصل على الليسانس من كلية الآداب - جامعة القاهرة - سنة ١٩٦٥.

- حصل على الماجستير فى الأدب العربى الحديث سنة ١٩٧٨.

- عمل - بعد تخرجه - مديراً لمكتب الشاعر العظيم صلاح عبد الصبور فى الهيئة العامة للكتاب.

- عمل فى جريدة الراية القطرية رئيساً للقسم الثقافى على امتداد ثلاثين سنة ابتداء من سنة ١٩٧٩.

- عاد إلى مصر ابتداء من يوم ٥ يوليو ٢٠٠٩ ليتفرغ للكتابة.

يكتب عموداً أسبوعياً بعنوان "مرايا الروح" فى جريدة الشرق القطرية.

- أصدر ديوانه الأول - الدم فى الحدائق - سنة ١٩٦٩ ثُم توالت دواوينه الشعرية ومنها أحب أن أقول لا - قصائد عاشقة - حينما يصبح الحلم سيفا - انتظار الآتى - وجهها قصيدة لا تنتهى - بغداد خانتنى.

- أحدث دواوينه بعنوان "أحبك أيها الإنسان"، وله قيد الطبع ديوان جديد بعنوان "حلم يتفتح فى صخر".

- اتجه لإحياء فن المقامة، حيث أصدر كتابه الأول فى هذا الفن بعنوان "مجنون العرب بين رعد الغضب وليالى الطرب"، ثم أصدر "ليلة القبض على مجنون العرب".

- أصدر أولى دراساته النقدية بعنوان "اتجاهات الشعر الحر" سنة ١٩٧٠.

- قام بتحقيق الأعمال الشعرية الكاملة للدكتور إبراهيم ناجي، وقد صدرت عن المجلس الأعلى للثقافة فى طبعتها الأولى سنة ١٩٩٦.

- قام بجمع وتحقيق الأعمال النثرية للدكتور إبراهيم ناجي، وقد أصدرها على نفقته فى طبعة محدودة سنة ٢٠٠١ وها هى تصدر فى طبعة شاملة عن المجلس الأعلى للثقافة.

- تمكن من اكتشاف رواية كاملة مجهولة للدكتور إبراهيم ناجي وهى بعنوان "زازا" وستصدر هذه الرواية مع دراسة مطولة عنها فى القريب.

- له كتاب ضخم فى أدب الرحلات وهو بعنوان رحلات شاعر عاشق - رحلات مع الشعر والحب فى الشرق والغرب.

- أنجز كتابة روايته الأولى سنة ٢٠٠٩ وهى بعنوان "عرفة ينهض من قبره"، وقد نشرت مجلة نزوى العمانية نص هذه الرواية فى عددها الثالث والستين.

- حصل على جوائز أدبية عديدة كما شارك فى ملتقيات ومهرجانات ثقافية متنوعة.

المراجعة اللغـوية: عبد الوهاب صلاح
الإشـــراف الفنـى: عبد الحكيم صـالح


تليجرام
هنا
سور الأزبكية


تليجرام
مكتبة
غواص في بحر الكتب
محمد خطاب

إذا كانت العاطفة المشبوبة والجارفة هي التي تقود مسيرة ناجي في شعره، فإن العقل المحلل والمتأمل هو الذي يقود مسيرته في نثره المتسم بالروح الموضوعية التي تتحرى الدقة ويبدو فيها الحياد العلمي جليا واضحا.

وإنه من المفيد والممتع في آن واحد، أن يعكف أحد الباحثين المهتمين على قضية من القضايا التي شغلت ناجي وعبر عنها بالشعر وبالنثر؛ لأننا – في هذه الحالة – سنكتشف أن العاطفة المشبوبة والجارفة هي التي تقود مسيرة ناجي تجاه هذه القضية في الشعر، أما في نثره فإن العقل المحلل والمتأمل هو الذي يقود مسيرته تجاه القضية نفسها.



